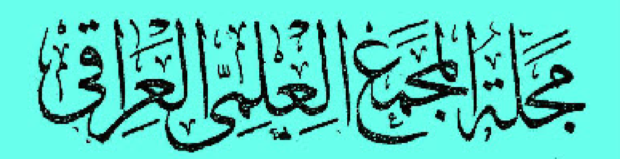
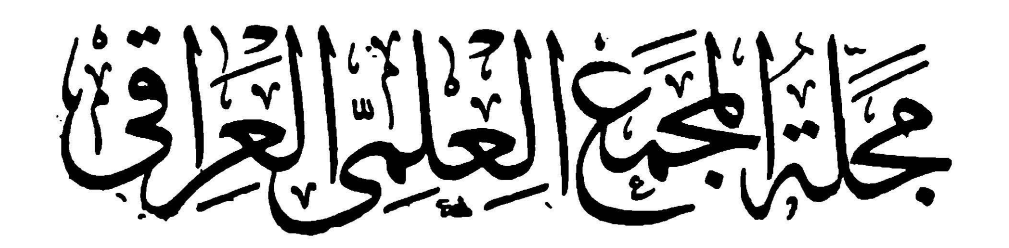


المجلد السادس والعشرون

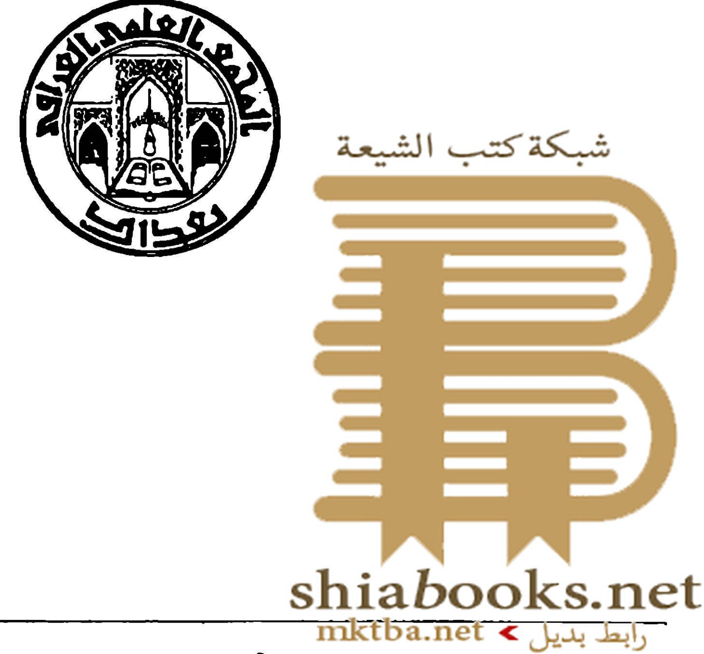


مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م



المجلد السادس والعشرون



مطبعة المجمع العلمي العراقي

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

عمر بن الخطاب في سيرته الأدبية

— ١ —

الدكتور جميل سعيد

كثيرون تحدثوا عن عمر بن الخطاب ، قديماً وحديثاً ، وأفاضوا في الحديث عنه . وكأن الرجل بصفاته العظيمة الجليلة ، التي تتعلق بالإسلام والعدل ، والفتوح ، وتدبير الملك ، وسياسة الدولة ، وسياسة الشعوب ، كأن الرجل بهذه الصفات العظيمة ، شغل المتحدثين عن الإفاضة في غيرها . او لعلهم رأوا الحديث في غيرها أمراً ليس بذي بال بالقياس اليهـا . ومن هنا رأينا ان نلم بنواح من شخصيته الكريمة ، نتحدث فيها عن احساسه في الأمور التي تتصل بنفسه ؛ لأننا نرى الحديث في هذا مقدمة لازمة للحديث عنه في سيرته الأدبية .

كان عمر عظيماً في جاهليته وفي اسلامه . وحسبك منه عظمة في جاهليته ، ان يرى الرسول الكريم — صلوات الله عليه — في اسلامه نصراً ، وان يدعو ربه فيه ، بقوله : « اللهم اشدد الدين بعمر » وان يقول فيه : « اللهم أعزّ الإسلام

بأحب الرجلين اليك ؛ بعمر بن الخطاب او بأبي جهل بن هشام » قالوا : وكان احب الرجلين اليه عمر بن الخطاب .

كان هذا في جاهليته . فلما اسلم قال صلى الله عليه وسلم : « لم أر عبقرياً يفرى فريه » اي يأتي بالعجب في عمله ، ويصنع صنيعه . وكنّاه — صلوات الله عليه — « ابا حفص » والحفص: هو الأسد ، ولقّبه « بالفاروق » ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل ، وقال فيه : « إن الحق على لسان عمر وفي قلبه » وقال — صلى الله عليه وسلم — « اشدّ امّتي في أمر الله عمر » (١) .

وحين توفي الرسول الكريم ، كان عمر عون ابي بكر ومستشاره في امور الدولة .

ثم ولي الخلافة بعده ، فطغت صفاته الجليلة العظيمة في تدبير امور الدولة ، وفي السهر والحدب على الرعية ، وفي العدل والحزم والصرامة في محاسبة قواده ، وفي محاسبة عماله وولاته . ولقد اشرف — رحمه الله — على ميادين قتال وفتح مالم يفتح مثله خليفة ، وساس شعوباً بينها ما بينها من اختلاف ، حتى قالوا عنه : « إنه عمل مالم يعمله الا القليل من اقدر الحكام في تأريخ بني الإنسان (٢) .

نقول : لعل هذه الأعمال الكبيرة ، جعلت المتحدثين عنه ، يرون الإفاضة بالحديث عن سيرته الأدبية امراً جانبياً ، ضئيل الأهمية بالقياس اليها . ومن هنا رأينا ان نتناول هذه الناحية من سيرته في هذا الحديث . ولا نعرج على غيرها إلا بمقدار مانرى له من مساس فيها . وسنتحدث عنه في حياته الخاصة ، وفي صلاته باسرته واصحابه . ونأخذ في هذا بمقدار مانرى له من مساس في فهم الأدب وتذوقه وتأثّرٍ فيه .

(١) انظر في هذه الاحاديث : الإصابة في تمييز الصحابة — لابن حجر ج٣/٢٧٩ وصفوة الصفوة ١٠٦/١ وسيرة عمر بن الخطاب — لابن الجوزي، ص : ٨ وما بعدها . طبعة المطبعة المصرية بالأزهر .

(٢) عبقرية عمر — لعباس محمود العقاد ؛ ص : ٦٤ . مطبعة الاستقامة بالقاهرة . ١٩٤٣

وعمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزّى... القرشي العدوي وأُمّه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية(١) وقد اختلف الكتاب القدماء(٢) في أبيها والكتاب المحدثون. ومن الكتاب المحدثين ، ذهب العقاد الى ان «امّه حنتمة بنت هشام بن المغيرة (٣) وتردد الدكتور طه حسين في ان اباها هاشم او هشام بن المغيرة . (٤)

اما الخطاب بن نفيل ، أبوه ، فوصفه عمر بأنه كان فظاً غليظاً ، وانه كان يبعث عمر بالإبل يحتطب عليها مرة ، وعلى ظهره اخرى ؛ فالرجل – على ما يبدو – ليس بصاحب المال ولا العبيد . على انه مع حاله هذه ، كان محترماً في قومه ، حتى قالوا : إنه كانت لهم السفارة والتحكيم في قومهم في الجاهلية ، (٥) وان نُفيل بن عبد العُزى ، جده ، كان الحكم بين عبد المطلب ، وحرب بن اميّة حين تنافرا وتنافسا على الزعامة .

والباحثون المحدثون يرون عمر قد ورث الشدة والبأس عن آل ابيه ، وآل امّه معاً (٦) .

ولد عمر قبل المبعث النبوي بنحو ثلاثين سنة ، يقول ابن سعد : «إنه اسلم وسنّه ست وعشرون سنة » فهو في عنفوان قوته وشبابه حين اسلم .

وقالوا في صفته : كان ابيض تعلوه حمرة ، اشيب ، اصلع ، حسن الخدّين والأنف والعينين ، غليظ القدمين والكفين ، مجدول اللحم ، حسن الخلق ، ضخم

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر ، ج ١/٢٧٩

(٢) قال ابن الجوزي : « وقد روي عن ابن اسحق ان حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، وابو جهل خاله. قال الشيخ : هذا وهم . والزبير بن بكار اعرف بالنسب ، وقد قال : ولد المغيرة بن عبدالله هاشماً وبه كان يكنى ، وهشاماً و ابا حذيفة و ... فقد بان بهذا ان هاشماً وهشاماً اخوان ، فهاشم والد حنتمة ، ام عمر رضي الله عنه . وهشام والد الحرث رضي الله عنه ، وابي جهل» ابن الجوزي – سيرة عمر بن الخطاب ، ص : ٦

(٣) ص : ٣٧ عبقرية عمر .

(٤) انظر : « الشيخان » لطه حسين ، ص : ١٢٧ ،

(٥) الاصابة في تمييز الصحابة ٢٧٩/٣

(٦) انظر : الشيخان » لطه حسين ص : ١٢٧ والعقاد – عبقرية عمر ، ص : ٣٧

الكراديس (١) اعسر ايسر ؛ اي يعمل بكلتا يديه جميعاً . وكان طوالاً ، يكون بين الناس وكأنه على دابة . وكان شديد الوطء على الأرض اذا مشى . قالوا : فإذا شاء ان يركب اخذ اذن فرسه بيده ، وجمع جراميزه ، ووثب عليه ، فكأنما خلق على ظهره . وكان جهوري الصوت اذا تحدث .

هذه صفاته الجسمية . ووصفه ابن عباس – رضي الله عنهما – فقال : « هو كالطائر الحذر ، قد علم أنه نصب له في كل وجه حبالة »(٢) وعلّق الجاحظ على قول ابن عباس هذا ، بقوله : « شبه حزم عمر وتخوفه من الخطأ ، وحذره من الخدع بالطائر الحذر » (٣) وفي صفة عمر هذه قال المغيرة بن شعبة ، لعمرو بن العاص ، وهما من الدهاء ماهما ، قال(٤) : « أأنت كنت تفعل او توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك ؟ والله ! مارأيت عمر مستخلياً بأحد الا رحمته ، كائناً من كان ذلك الرجل . كان عمر – والله – اعقل من ان يخُدع ، وافضل من ان يَخدع » .

هذه هي صفات عمر ، كما يراها الناس . ولابد لنا ونحن نتحدث عن سيرته الأدبية ، ان نتناول احساسه وعواطفه ، بما يُنطق الناسَ بالأدب والشعر . ومعلوم ان الناس ليسوا سواء في احساسهم وتأثرهم بهذا . انهم يختلفون فيه ، بمقدار مالهم من حساسية ، وما لهم من تجارب . ولبيان هذا نقول : إن هؤلاء الذين لم يذوقوا لوعة الجوع ولم يعرفوا اللوعة في حرمان الأمن ، لايحسّون احساس القرشيين في قوله تعالى ، في الآية الكريمة : « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » وهؤلاء الذين لم يذوقوا حرّ العطش – وهو الغالب على العرب في صحرائهم – لايحسون احساس العرب ، بما في قوله تعالى : « ونادى اصحابُ

---

(١) الكراديس : رؤوس العظام
(٢) البيان والتبيين – للجاحظ : ٢٦٦/٣
(٣) الحيوان : ٤٥٨/٧.
(٤) عبقرية عمر للعقاد – ص : ٦٢

النار اصحابَ الجنة ان افيضوا علينا من الماء ، او مما رزقكم الله ، قالوا : ان الله حرمهما على الكافرين» وهؤلاء الذين لم يرزأوا بأبنائهم واخوانهم في الحياة، قد لايحسون ، بما في سورة يوسف ، من لوعة لأبيه ولا يحسون، بما في اشعار متمّم بن نويرة ، وابن الرومي ، وغيرهما من شعراء الرثاء احساس المرزّئين. وقل مثل هذا في قراء شعر المجنون عاشقين ، وغير عاشقين ، ثم قل مثله في اناس يسمعون الكلام الأدبي، يفهمونه ويذوقونه ويتأثرون به ، واناس فقدوا الحاسة الأدبية ، وصاروا يسمعونه و كأنهم لايسمعونه .

وعلى هذا ، فلا بد لنا من حديث عن عمر بن الخطاب ، في نواحيه هذه التي نراها تتصل بالأدب ، وتعين على فهمه وتذوقه ، والتأثر بما فيه .

* * *

عمــر و الطعــام

ونبــدأ بالحديث عن الطعام وشهوته ، وعن الجوع والشبع عنده، فنقول : يرى بعض علماء النفس ، ان الغريزة التي تدفع الإنسان وراء قُوتــه ، اقوى الغرائز . ويمثلون عــلى هذا، بأن لو ان انساناً ترك في الصحراء طويلا من غير امرأةٍ ، وترك يوماً واحداً من غير طعام، ثم قدّر له ان يراهما معاً، وان يخيّر بينهما، فإنه يختار الطعام ويفضّله . ولو تركت امرأة مع طفلها في الصحراء ، وبلغ بهما الجوع غايته، ثم عثرت على ما يسدّ الرمق، فإنها – في كثير من الأحيان – تفضّل نفسها على طفلها . بل ربما اكلت بعض الأمهات اولادها حين يشتدّ بها الجوع ، وهذا ما يحدث لكثير من انثى الحيوان . وهكذا يرون ان الغريزة التي تدفع الإنسان وراء قوته ، تغلب – في كثير من الأحيان – غريزة حفظ النوع ، والغريزة الجنسية ، وهما اقوى الغرائز .

واذا علمنا مدى تأثير هذه الغريزة في حياة الإنسان ، ومدى سيطرتها عليه ، فإننا لانعجب ان نراها تهيج العاطفة، وتنطق الناس بأدب وشعر ، احرّ من شعر

العشق ، واحرّ من شعر الرثاء . وحسبنا من ابن الرومي الشاعر دليلاً على هذا .

ولا يغرنّك الاّ ترى هذا في الشعر الجاهليّ . إنّ الشعراء الجاهليين ، كبتوا احساسهم بالجوع كبتاً ، وفخروا به ، وجعلوا التصريح به امراً يخزى الأنسان منه، ويلام عليه . ومن جميل مايروى لهم في هذا ماينسب للشنفرى ، في القصيدة المسماة لاميّة العرب :

ادیم مطال الجوع حتى اميته   واضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
واطوي على الخمس الحوايا كما انطوت   خيوطة ماريّ تغار وتفتل
واغدو على القوت الزهيد كما غدا   ازلّ تهاداه التنائف اطحل(١)

ونحن نأخذ بهذه المقدمة ، لنرى احساس عمر بن الخطاب ، بهذه الناحية ، ولنرى مدى ذوقه لنصوص الأدب فيما يتعلق بها .

اشار القرآن الكريم الى هذا ، وخوّف العرب ــ وصحراؤهم شحيحة قاسية بطعامها ــ به . وحسبك من شحّها ان نهى الاسلام اهلها ، ان يقتلوا اولادهم خشية املاق ؛ قال تعالى : « ولا تقتلوا اولادكم خشية املاق ، نحن نرزقكم وإيّاهم » (٢)فانظر كيف وعدهم بثوابهم بالرزق ، في الدنيا قبل الآخرة ، لأنهم يضيقون به ولا يصبرون عليه في الدنيا . وانظر الى عبارة « نحن نرزقكم » وما بها من تأكيد الرزق عليه سبحانه ، وانظر الى سبقها للفظة : « وإيّاهم » . وفي الحديث لآدم عن الجنة ،قال : « إن لك الاّ تجوع فيها ولاتعرى»(٣) وحين تحدّث سبحانه عن اهل الجحيم ، قال : «ليس لهم طعام الاّ من ضريع ، لايسمن ولا يغني من جوع » (٤) وانظر الى قوله تعالى : « ولايغني من جوع » . وحين خوّف سبحانه ،

(١) انظر : « الوصف في شعر العراق » – لجميل سعيد . ص : ٣٨٩
(٢) سورة الإسراء ، الآية : ١٧
(٣) سورة طه الآية : ١١٧
(٤) سورة الغاشية الآية : ٦

قال : « ولنبلونّكم بشيئ من الخوف والجوع » .(١) ومما وصف به المؤمنين في الدنيا قوله : « يوفون بالنذر ، ويخافون يوماً كان شرّه مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً واسيرا » .(٢) وانظر الى عبارة : « على حبّه » وما فيها من تأكيد لأهمية الطعام .

وكتب ابن الجوزي عن عمر – رضي الله عنه – وجعل فصلاً من كتابه (٣) في زهد عمر ، فجمع بعض حديثه عن الطعام ، وعن اللباس ، وعدّهما مظهري الزهد الهامين . وقد بين في حديثه عنه اكتفاءه بالطعام الخشن القليل ، حتى ان الوافدين عليه من عمّاله وولاته ، كانوا يرون مشقة في الإقبال على طعامه . وكان بعض الولاة يجيع نفسه ، ويبالغ في هذا ، ليستطيع مؤاكلة عمر على طعامه .

وننظر في اخباره هذه ، وفي حديث عمر لضيوفه ، وللائميه على طعامه الخشن منهم ، فنراه لايعرض عن الطعام الناعم الرقيق ، اعراض العازف عنه ، غير الراغب فيه ، ولكنه يعرض ، وهو يذود نفسه ذوداً عنه . وشتّان بين انسان لايشتهي شيئاً ويزهد فيه لأنه لايشتهيه ، وآخر يشتهيه ، ويصدّ نفسه عنه ،وهو يغالبها مغالبة . بل شتّان بين حرمان من يشتهي الشيئ ، ولا يناله لبعده عنه ، وبين حرمان من يشتهي الشيئ ويكون في مناله،ويدفع نفسه عنه دفعاً،ولله اشارتهم في ما يُغَنّى به في ايامنا هذه :

وأمرّ مالاقيت من الم الجوى ... قرب الحبيب وما اليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥

(٢) سورة الأنسان الآية : ٨

(٣) سيرة عمر بن الخطاب ، ص : ١١٨ وما بعدها

لم يكن عمر من الموسرين في جاهليته ، وقد مرّ بنا ان اباه الخطّاب « كان فظاً غليظاً » على حدّ وصف عمر له ، وانه كان يبعثه في ابله ، يحتطب عليها مرة وعلى ظهره اخرى . واراد عمر بعد ان اسلم وصار خليفة وملك الدنيا ، اراد ان يذلّ نفسه ، فنادى بالناس : الصلاة جامعة ! ثم جلس على المنبر ، حتى اذا امتلأ المسجد ، قام فقال : « الحمد لله ! لقد رأيتني اؤاجر نفسي بطعام ، ثم اصبحت على ماترون . . . » (١) ولامه اصحابه ، ولامه ابنه على هذا ، فقال له : « إن اباك قد اعجبته نفسه فأحبّ ان يضعها » .

وقد يظن القارئ ان انساناً ذاق الجوع واحسّه ، حتى صار يؤاجر نفسه بطعام ، ثم قدّر له ان يملك الدنيا على نحو ماملكها عمر ، سيتأنق في طعامه ماوسعه التأنق ، ويأكل بنهم وشره دونه شره ابن الرومي الشاعر ونهمه . ولكن عمر يشتهي الطعام ، ويذود نفسه عنه . قال سفيان – رحمه الله – : «كان عمر يشتهي الشيئ لعله يكون بثمن درهم فيؤخره سنة»(٢). ودخل عمر على ابنه عبدالله فإذا عنده لحم ، فقال عمر : ماهذا اللحم ! ؟ قال : اشتهيه . قال عمر : وكلما اشتهيت شيئاً اكلته !؟ كفى بالمرء شراً ان يأكل كلّ ما اشتهى. وعن جابر بن عبد الله ، قال : رأى عمر ابن الخطاب – رضي الله عنه – في يدي لحماً معلّقاً ، فقال : ماهذا ياجابر !؟ قلت : اشتهيت لحماً فاشتريته . فقال عمر : كلما اشتهيت اشتريت !؟ ما تخاف هذه الآية : « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا » (٣) . وكان رحمه الله يكرر هذه الآية الكريمة ، كلما عرضت له شهوة ، وشهوة في الطعام خاصة (٤)

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص : ٣٣

(٢) ابن الجوزي ص : ١٢٧

(٣) سورة الأحقاف الآية : ٢٠

(٤) انظر ابن الجوزي ص : ١١٩

ولنرى كيف كانت تتحرق نفس عمر للطعام الشهيّ ، وكيف كان يذود نفسه عنه ذوداً ؛ لأنه لايشعر بالعدل والإنصاف حين يأكل من الطعام ، ما لا يستطيع ان يأكل مثله عامة المسلمين،نستمع اليه ، وكأنه يناجي نفسه بشهيّ الطعام في قوله(١) : « لولا مخافة الحساب لأمرت بحَمَل يُشوى لنا بالتنّور» . اترى رغبة وتحسراً على طعام تبلغ هذا المبلغ بانسان قهر الدنيا وملكها !؟ .

ويعاتبه اصحابه على خشونة عيشه ، فيقول رادّاً عليهم ، بأنه يعرف العيش الرقيق كما يعرفونه ، ويقول وكأن نفسه تتوق لهذا العيش الرقيق : « اترون أني لا اعرف رقيق العيش !؟ لباب البرّ بصغار المعزى » (٢) وقال الربيع بن زياد الحارثيّ (٣) وكان عاملاً لعمر على البحرين ، واستقدمه عمر ، قال : « فقلت يايرفأ — مولى عمر بن الخطاب — ايُّ الهيئات احبّ الى امير المؤمنين ان يرى عمّاله فيها ؟ فأومأ يرفأ الى الخشونة . قال الربيع : « . . . ثم دعا عمر بالطعام ، واصحابي حديثو عهد بلين العيش ، وقد تجوّعت له فأتي بخبز يابس، واكسار بعير ، وجعلت آكل . ثم سبقت مني كلمة تمنيت اني سخت في الأرض ولم الفظ بها ، قلت : لو نظرت ياامير المؤمنين الى قوتك من الطحين فيخبز لك ، قبل ارادتك اياه بيوم ، ويطبخ لك اللحم كذلك ؛ فتؤتى بالخبز ليّناً ، وباللحم غريضاً » . ويشعر عمر كأنّ الربيع يعلّمه ويدلّه على لين الطعام ، كأن عمر لايعرفه ، ولايدريه فيقول :

« لنحن أعلم بليّن الطعام من كثير من آكليه ، ولكنّنا ندعه ليوم تذهل فيه كلُّ مرضعة عمّا ارضعت ، وتضع كلُّ ذات حمل حملها » ! (٤)

ثم يسارع الى ذكر ما يشتهيه ، ويحبس عنه نفسه ، فيقول : « ياربيع لو نشاء

---

(١) ابن الجوزي ، ص : ١٢٣
(٢) البيان والتبيين للجاحظ : ١٨/١ طبعة عبدالسلام محمد هارون
(٣) العقد الفريد : ١٥/١
(٤) ابن الجوزي ص : ١٢٣

لملأنا هذه الرحاب من صلائق ، وسبائك ، وصناب ! ولكنيّ رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم ، فقال : « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها»

وكان عام الرمادة ، واصاب العرب في جزيرتهم جدب ، اضطرهم ان يأكلوا الميتة ، وان يستخرجوا الضباب والجرذان من جحورها ليأكلوها . واتصل الجدب تسعة اشهر . وابت نفس عمر الكريمة الا ان تجوع كما يجوع الناس . يقول الرواة : سمعنا اشياخنا يذكرون ، ان عمر كان ابيض ، فلما كان عام الرمادة ، وهي سنة المجاعة ، ترك اكل اللحم والسمن ، وادمن اكل الزيت ، حتى تغيرّ لونه (١) ونقول : قد لايغيرّ ادمان الزيت الوان الناس ، ولكنهم يريدون : ان عمر حرّم على نفسه اكل اللحم ، واكل السمن – وهما افضل من الزيت عندهم – وصار يأكل الزيت لأنه دونهما عندهم في المنزلة ، ولعلّه – رحمه الله – هزل وذهب بياضه ، فظنوا هذامن ادمانه الزيت .

وعمر يأبى عليه عدله ان يأكل مالايستطيع الناس ان يأكلوا مثله . قالوا : اجدب الناس على عهد عمر ، فما اكل سمناً ولا دسماً حتى أكل الناس .وقالوا : « لما قدم عتبة بن فرقد اذربيجان أتي بالخبيص ، فأكله فوجده شيئاً حلواً طيباً . فقال : لو صنعت لأمير المؤمنين من هذا ، فجعل له صَفَطين عظيمين ، ثم حملهما على بعير . . . وذاقه عمر ، فاذا شيئٌ حلو ، فقال للرسول : أكلُ المسلمين تشبع من هذا في رحالهم !؟ قال : لا . فقال عمر : امّا لا ، فارددهما . ثم كتب الى عامله : «امّا بعد ، فإنه ليس من كدّك ولا كدّ امّك . اشبع الناس مما تشبع منه في رحلك » ولا يفوتك النظر الى عبارة : « ولا من كدّ امّك » وما فيها من زجر . وعمر يستعمل هذا في تعابيره ، حين يلوم ولاته ، وكأنها ضرب

(١) الإصابة في تمييز الصحابة – لابن حجر : ٣/٢٧٩

من التعنيف او الشتيمة.(١) كان عمر يشعر انه حارس لأموال المسلمين ،وكان يرى خيانة لهذه الحراسة ، ان يشبع رغباته في الطعام ، ويصل الى ما لا يستطيعون الوصول اليه منه .

وناحية اخرى كانت تذود نفسه عن الطعام ؛ ذلك انه احبّ صديقيه الكريمين : رسول الله صلوات الله عليه ، وابا بكر الصديق ، وقد نهجا الزهد في مطعمهما ، فخاف ان يخالف طريقيهما في هذا ، فيختلف به الطريق . ولطالما حدّث بهذا ، وذكره .

عن محمد بن قيس ، قال : دخل ناس على حفصة بنت عمر — رضي الله عنهما — فقالوا « : ان امير المؤمنين بدا علباء رقبته من الهُزال ، فلو كلمته ان يأكل طعاماً هو الين من طعامه . » وكلّمته حفصة ، فسألها عن افضل طعام للرسول — صلى الله عليه وسلم ، فكان التمر ينزع نواه ، فقال عمر ، للائميه على طعامه الخشن : « ترون اني لااشتهي الطعام !؟ إني لآكل السمن وعندي اللحم ، وآكل الزيت وعندي السمن ، وآكل الملح وعندي الزيت ، وآكل البحت وعندي ملح . . . ولكنّ صاحبيّ سلكا طريقاً فأخاف ان اخالفهما فيخالف بي » أرأيت كيف يرتب الطعام وجودته ترتيب عارف عليم به وبذوقه !؟ .

وهكذا ترى ان عمر قد تضافرت على تباعده عن الطعام الليّن — مع حبّه له ورغبته فيه — امور ، منها عدله وشعوره بالاّ يستأثر بشيئ دون عامة المسلمين ، ثم احساسه بما في الآية الكريمة : « اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» ثم مخافته ان يختلف به الطريق عن صاحبيه . كان — يرحمه الله — يردد ، بعد ان يسد رمقه بطعام لايستسيغه غيره : « ويحٌ لمن ادخله بطنه النار ! » (٢) .

---

(١) انظر حديثه مع ابي هريرة؛ عامله على البحرين ، وقد لامه لثرائه ؛ في العقد الفريد : ١/٤٥ طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة سنة ١٩٤٨

(٢) ابن الجوزي ص : ١٢٣

عمر و الشراب

هذا احساس عمر بالطعام، ولعلّه كان اكثر ذوقاً وحسّاً لمايشرب ...، عن عبد الرحمن الأشعري، انه خرج الى عمر – رضوان الله عليه – فنزل عليه قال: «وكان لعمر ناقة يحلبها، فانطلق غلامه ذات يوم، فسقاه لبناً، فأنكره، فقال: ويحك من اين هذا اللبن !؟ قال: ياامير المؤمنين ان الناقة انفلت عليها ولدها، فشرب لبنها، فحلبت لك ناقة من مال الله، فقال عمر: «ويحك سقيتني ناراً ! ادعُ لي علياً بن ابي طالب. قال: فدعاه فقال: «إن هذا عمد الى ناقة من مال الله، فسقاني لبنها. افتحلّه لي !؟»

قال: «نعم، يا امير المؤمنين هو حلال لك، ولحمها» (١).

ومعلوم ان حاسة الذوق يتفاوت فيها الناس تفاوتاً كبيراً، وان بعض الناس، لايكادون يفرّقون بين حلو وحلو وبعضهم، في بلدنا مثلاً، يعرفون انواع التمر بحلاوته من غير نظر اليه. ومعلوم ان التمر له عشرات الأنواع في العراق. هذا في الطعام. وفي الشراب يقولون: إن شركات الخمور – اعاذك الله منها – في ايامنا هذه، لها اخصائيون وظيفتهم ذوق الخمر، وتفريق ما تمّ وكمل من انواعها، وتدريجه عما هو دونه، مما لم يتم ولم يكمل. نقول: إن التفريق بين لبن ولبن، لايكون الاّ لانسان مرهف الحس في ذوقه. وكذلك كان عمر.

وننظر الى عبارته لغلامه: «ويحك سقيتني ناراً !؟» إن عبارته توحي للقارئ بالآية الكريمة: «فاتّبعوا أمر فرعون، وما أمرُ فرعون برشيد. يقدم قومه يوم القيامة، فأوردهم النار، وبئس الورد المورود»(٢) ففي الآية الكريمة عن فرعون، وهو ملك قومه، انه يتقدم قومه، تقدّم الفارط الذي يتقدم الواردة الى الماء،

(١) ابن الجوزي، ص: ١٣٩

(٢) سورة هود، الآية: ٩٧

ولكنه يوردهم النار ، لايوردهم الماء. إن الورد انما يراد لإطفاء غلة العطش ، وتبريد الأكباد ، واين النار وفعلها من هذا !؟

وتوحي عبارته ايضاً بالآية الكريمة ، في قوله تعالى : « إن الذين يأكلون اموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون في بطونهم ناراً » (١). إن عمر – رضي الله عنه – وهو امير المؤمنين وخليفة المسلمين ، توهّم انه تناول من مال المسلمين ، ماقد لايحلّ لّه تناوله . وعمر يقول : « انزلت مال الله عندي بمنزلة مال اليتيم ، فإن استغنيت عففت عنه ، وإن افتقرت اكلت بالمعروف » . (٢)

نقول : إنه احسّ بهذا ، ولذلك اسرع فقال : « ادع لي علياً بن ابي طالب » وعبارته هذه تريك انه يحسّ انه في مأزق او ورطة يطلب النجاة منها . ثم انظر الى قوله : إن هذا عمد الى ناقة من مال الله . . . » .

وانظر الى لفظة « هذا » وفيها اللوم والتوبيخ. ثم انظر الى لفظة «عمد »التي لاتجعل الذهن ينصرف الى الوهم او الخطأ ، في اتيان ماجاء به الغلام . وانظر الى عبارة: « من مال الله » ومافيها من الحرج والإثم والتجاوز ، لأن عمر أنزل مال الله من نفسه منزلة مال اليتيم .

إن الخبر الوارد عنه في هذا ، لم يكتب لنا بتفصيل ، وما اشك في ان عمر شرب بعض اللبن ، وحين احسّ بتغيير طعمه انكره وانقطع عن الشرب ،ولم يتم شربه ، وصاح بغلامه : « ويحك من اين هذا اللبن !؟ »ثم انظر الى عبارته الى علي بن ابي طالب – رضي الله عنهما – : « افتحلّه لي ! ؟ » وانظر الى لفظة : « افتحلّه ؟ » وكأن يحسّ احساس من تورّط في شيئٍ يطلب الخلاص او الفكاك منه . إنه لم يقل : « احلالٌ هو لي ؟ » ثم انظر بعد هذا

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٠
(٢) ابن الجوزي ، ص : ٨٩

الى جواب علي بن ابي طالب رضي الله عنه : « هو حلالٌ لك » وكأن علياً رضي الله عنه نظر الى الآية الكريمة « ... إنما يأكلون في بطونهم ناراً . . . » فتمم عبارته ، بقوله : « ولحمها » مع ان عمر لم يسأله عن لحمها احلال هو ام غير حلال .

وقال الرواة « . . . عن ثابت ، قال : اشتهى عمر بن الخطاب رضوان الله عليه الشراب ، فأتي بشربة عسل ، فجعل يدير الإناء بكفه ، فيقول : «أشربها» وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها !؟ » ثم دفعها الى رجل من القوم فشربها»(١). إننا لاندري لمَ لم يشربها ، وهو قد اشتهاها ، ولا ندري لم تذهب حلاوتها ، وتبقى مرارتها الا ان يكون قد احس بأنه لا يحق له ان يشربها ، مادام عامة المسلمين لايستطيعون شربها مثله ، ولذلك صدّ نفسه عن شربها . ولولا اشتهاؤه الشديد لها ، واحساسه الشديد بما فيها من لذة ، لما صار يتردد بين شربها وعدمه ، حتى صار يدير الإناء في كفّه ، فعل المتحير المتردد . وهو يقول مخاطباً نفسه ، كالمعنّف لها : « اشربها وتذهب حلاوتها وتبقى مرارتها » ولا يفوتك ان « المرارة » تعبير مجازي يقصد به مرارة الندم واللوم ، لا « مرارة » الذوق الحسيّ ؛ لأن العسل لايعرف عنه انه يترك في الفم مرارة لشاربه .

* * *

عمر و الخمر

ويقول عمر عن نفسه : « كنت صاحب خمر في الجاهلية ؛ احبها واشربها . وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش ... فخرجت اريد جلسائي اولئك ، فلم اجد منهم احداً ... ، فقلت لو انني جئت فلاناً الخمار . . . فجئته فلم اجده ، فقلتُ : لو انني جئت الكعبة فطفت بها سبعاً او سبعين ، فجئت المسجد اريد ان اطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

(١) ابن الجوزى ص ١٢٦

قائم يصلي » (١) . وهم يروون بعد هذا إنه سمع القرآن من الرسول فرقّ له قلبه ، وبكى ودخله الإسلام .

وتراه في صدر حديثه هذا، يصوّرلنا حبّه وولعه بالخمر في جاهليته وحبّه لأصحابه ندامى الخمر ، حتى انه بحث عنهم ، قبل ان يبحث عن الخمر ، وانه خرج يريدهم، حتى اذا لم يجدهم ذهب الى فلان الخمّار علّه يراهم عنده فلم يجدهم ولم يجده . ويذهب الباحثون في الخمر وأثرها في شرّابها ، الى أنها من اقوى الأواصر التي تربط بين الأصدقاء وتؤلف بين قلوبهم . وقد ذهب علماء النفس في ابحاثهم وتجاربهم على اهل الخمر ، الى هذا . ورأوا ان الشارب يحن الى الاجتماع بأصحابه ، او نداماه حنيناً قد يزيد على حنينه الى كأسه (٢)

وفي الشعر الجاهلي ، نرى الشعراء تهيج عواطفهم اطلال مجالس الخمر ، وتذكّرهم بالندامى ، فيحنون اليهم حنينهم للعشيقات الظاعنات ، يقول لبيد :

لمن طَلَلٌ تضَمنه اثال ... فسَرحة فالمرانة فالخيال

ذكرت به الفوارس والندامى ... فدمع العين سحٌ وانهمال

وقد يمر بعضهم بمجلس الخمر ، فيتذكر اول ما يتذكر ، نداماه به . وقد تثير هذه المجالس صور الندامى ، وقد قتلوا في الغارة والحرب – وما اكثر ما تكون الغارة ويكون القتل فيها عند العرب – فتهيج عاطفة صاحبهم ، ويرثيهم الرثاء الحار . يقول الشاعر طفيل الغنوى ، ويذكر وقعتهم بطيئ ، وقد قتل بها هؤلاء الندامى.

---

(١) العقاد ص ١١٦

(٢) انظر : ص ٢٦١ وما بعدها من كتاب : Notes on a Celler book
لـ: Saintsbury وانظر ص: ١٨ من كتاب : تطور الخمريات في الشعر العربي ، لجميل سعيد

وبالخير إن كان ابن جيدع قد ثوى | يبنّى عليه بيته ويحجّب
نداماي اضحوا قد تخلّيت عنهم | فكيف الذّ الخمر !؟ ام كيف اشرب ؟
مضوا سلفاً قصد السبيل اليهم | وصرف المنايا بالرجال تقلّب

فانظر ايّ عاطفة صادقة تشيع في ابياته هذه ! وانظر الى هذه الحسرة المعبّر عنها بهذا الاستفهام : « فكيف الذّ الخمر ؟ ام كيف اشرب ؟ »(١)

ونعود ، بعد هذا ، فنقول : إن نفس عمر حين تضيق ، تذهب تطلب المتعة ومتعتها في الخمر وندمانها اولاً ، وانها حين لم تجد الى هذا سبيلاً رأت ان تستمتع بالطواف بالبيت .

وأسلم عمر ، وكانت الخمر حلالاً للمسلمين . وكانوا يشربونها فتحدث لهم مشاكل كبيرة ، كان عمر يشهدها ، ويضيق بها ، ويودّ لوأن الله سبحانه وتعالى باعد بين المسلمين وبينها . وفي التفسير الكبير لفخر الدين الرازي (٢) قالوا « : نزلت في الخمر اربع آيات ، نزل بمكة قوله تعالى : ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً . وكان المسلمون يشربونها ، وهي حلال لهم . ثم ان عمر ومعاذاً ونفراً من الصحابة ، قالوا : يارسول الله أفتِنا في الخمر ، فإنها مذهبة للعقل ، مسلبة للمال . ونزل فيها قوله تعالى : قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس . فشربها قوم وتركها آخرون . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً منهم ، فشربوا وسكروا ، وقام بعضهم يصلي فقرأ : قل ياايها الكافرون اعبد ماتعبدون . . فنزلت : لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى فقلّ من شربها . ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن ابي وقاص ، فلما سكروا افتخروا وتناشدوا الأشعار ، حتى انشد سعد شعراً فيه هجاء للأنصار — فضربه انصاريّ بلحي

(١) تطور الخمريات : ص ٣٧
(٢) ١/٤٢ طبعة المطبعة البهية سنة ١٩٣٨

بعير فشجه شجة موضحة ، فشكا الى رسول الله صلى عليه وسلم ، فقال عمر : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ، فنزل : إنما الخمر والميسر . . . الى قوله تعالى « فهل انتم منتهون ! فقال عمر : انتهينا يارب

وحرّم عمر الخمر على نفسه ، وتاب عنها التوبة النصوح ، والتوبة النصوح — على حد تعبيره — هي التوبة التي لايعاود صاحبها ماتاب عنه. وقسا على الخمر وشرّابها كل قسوة . »

وكانت مدينة الطائف كثيرة الخمور ، لكثرة ما فيها من اعناب . وكانت كثيرة الحانات ، قبل ان يدخلها الإسلام ، فلما اسلمت وحرّم الاسلام الخمر عسر على بعض شرّابها منهم تركها ، فحدّ بعضهم عمر ، ومنهم الشاعر ابو محجن الثقفي . وحين رآهم يتمادون بالشرب ، ولايستطيعون فكاكاً منه ، شأن مدمني الخمر ، أمر بإضرام النار في حانات الخمور ومعاصرها . ويروي الرواة انه امر بإحراق بيت خمّار يقال له «رشيد»(١)، ولعل ابا محجن الثقفي، وهو من شعراء الخمر المشهورين ، يصور موقفه ، وموقف ندمائه ، يتباكون حول هذه هذه المعاصر — وتلك صفة مدمني الخمر — حين يقول :

رماها امير المؤمنين بحتفها   فخلانها يبكون حول المعاصر

وإني لذو صبر وقد مات إخوتي   ولست عن الصهباء يوماً بصابر

نقول : قسا عمر — رضي الله عنه — على شرّابها كل قسوة . وفي صحيح مسلم بشرح النووي (٢) في حديث عن الوليد بن عقبة ان عثمان — رضي الله عنه — شهد عنده رجلان : انّ الوليد شرب الخمر فقال عثمان : ياعلي قم فاجلده . . . فقال : ياعبد الله بن جعفر قم فاجلده . فجلده وعلي يعدّ ، حتى بلغ اربعين

(١) ابن الجوزي ؛ ص : ١٦٤
(٢) ٢١٥/١١

فقال : أمْسِكْ . ثم قال : «جلد النبي – صلى الله عليه وسلم – اربعين ، وجلد ابو بكر اربعين ، وعمرُ ثمانين . وكلٌ سُنّةٌ ، وهذا احبُّ اليَّ » وفي صحيح مسلم (١) « . . . عن انس بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم ، أُتي برجل قد شرب الخمر ، فجلده بجريدتين نحو اربعين ، قال : وفعله ابو بكر ، فلما كان عمر استشار الناس ؛ فقال عبد الرحمن : أخفَّ الحدود ، ثمانينَ . فأمر به عمر » ويشرح النوويّ هذا بقوله : « وفي رواية جلد النبي صلى الله عليه وسلم في الخمر بالجريد والنعال ، ثم جلد ابو بكر اربعين ، فلما كان عمر ، ودنا الناس من الريف ، قال : ماترون في جلد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف اري ان تجعلها كأخفّ الحدود ، قال: فجلد عمر ثمانين.» وانت ترى ان عمر قد تشدد في حدّ الخمر حتى ابلغه الضعف . ويعلل النووي هذا بشرحه في قوله : « فلما كان عمر ودنا الناس من الريف والقرى . . . ومعناه : لما كان زمن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه ، وفتحت الشام والعراق وسكن الناس في الريف ومواضع الخصب ، وسعة العيش ، وكثرة الأعناب والثمار اكثروا من شرب الخمر ، فزاد عمر في حدّ الخمر تغليظاً عليهم وزجراً لهم عنها »(٢) .

هذه حال عمر وتشدّده في شرّاب الخمر . وقد ذهب بعض الرواة الى انه حدّ ابنه فيها ، بل ذهب بعضهم الى انابنه مات في الحدّ . وقد لانلومه في هذا ؛ لأن من مدمنيها من يهون عليه ان يترك كل شيئ في سبيلها ، جاء في الأغاني (٣) : « ان ربيعة بن امية بن خلف ، كان قد أدمن الشراب وشرب في شهر رمضان ، فضربه عمر – رضي الله عنه – وغرّبه الى ذي المروءة . . . فلحق بالروم وتنصّر . .

---

(١) ٢١٥/١١

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢١٨/١١

(٣) ٢١/١٥ .

وقدم رسول يزيد بن معاوية على معاوية : فقال له معاوية : هل كان للناس خبر؟ قال : بينا نحن محاصرون مدينة كذا وكذا ، اذ سمعنا رجلاً فصيح اللسان مشرفاً من بين شرفتين من شرف الحصن ، وهو ينشد :

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا انيس ولم يسمر بمكة سامــر

فقال معاوية : ويحك ذاك الربيع بن امية يتغنى بشعر عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهميّ » .

وترى في قصة ابي الفرج هذه — وربّما وشّى الخيال حواشيها — ان الرجل كان اهوَن عليه ان يهجر وطنه ودينه ، من ان يترك الخمر حين ادمنها وتعلق بها .

وتتبع احساس عمر في هذا، فتراه احساس المعاقر التائب؛ يخاف محنة الفراغ على الناس ، فلا يرى تشبيهاً يشبهها به ، اكثر من محنة الخمر ، والسكر ، يقول : « احذركم عاقبة الفراغ ، فإنه اجمع لأبواب المكروه من السكر » .

وينهى الناس عن الإسراف في اكل اللحم ، فيقول : « اياكم وهذه المجازر ، فإن لها ضرواة كضرواة الخمر»(١) ويقول : «لاتأكلوا في مائدة يُشربُ عليها الخمر » ونحس من قوله هذا ، انه يرى المتعلق بها اولى له أن يباعد بين نفسه وبينها ، مخافة ان تغلبه شهوته عليها حين يراها ، فلا يستطيع ان يصدّ نفسه عنها .

ومانراه يذهب الى هذا كله ، في تغليظ الحدّ ، وفي الأمر باحراق المعاصر والحانات ، والبعد عن موائدها كل هذا البعد ، لولا علمه بصعوبة ترك الخمر على مدمنيها .

* * *

عمر و الطيب

وعمر مرهف الحسّ بالرائحة والطيب. وعطور بلاد العرب معروفة مشهورة. وقد اشار الشاعر الإنكليزي شكسبير Shakespeare الى عطور بلاد ، العرب وحدة رائحتها : (٢)

---

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ؛ ٢/٨١

(٢) انظر مسرحيته :
Macbeth, P:147. Cambridge, at the University Press 1962

ورووا عن الرسول الكريم صلوات الله عايه : حبب الى من دنيا كم ثلاث : الطيب والنساء وقرة عيني الصلاة .

وعمر – رحمه الله – كان يقول : « لو كنت تاجراً ، ما اخترت على العطر شيئاً . إن فاتني ربحه لم تفتني ريحه»(١) ويقول :« إنه ليعجبني الشاب الناسك ، نظيف الثوب ، طيّب الريح » ويقول : « ادنوا الخيل وتسوّكوا . . . » فهو يحض على السواك ، لتطهير رائحة الفم .

وفي العقد الفريد (٢) انه سمع في الطواف شعراً لامرأة ، فسأل ، فاذا زوجها متغير الفم . قالوا : فخيره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقها ، فطلقها . والذي يقرأ سيرة عمر ، وحرصه الشديد على مال المسلمين ، يرى مقدار احساسه بهذا ، حتى انه رأى ان يبذل خمسمائة من الدراهم ، ليباعد بين هذه المرأة وبين مااشتكت منه .

والعرب – عامة – معروفون بإحساسهم البالغ برائحة الطيب . وشعرهم الجاهلي مملوء بوصفهم لإحساسهم برائحة الحبيبة ، ومن المشهور قول النابغة الذبياني :

. . . . رأيت بها طيباً وإن لم تَطَيّب

ومشهور قول سحيم :

وَهبّت شمالاً آخر الليل قَرّةً ولاثوب الا بردها وردائيا

فما زال ثوبي طيّباً من ثيابها الى الحول ، حتى انهج البرد باليا(٣)

فتراه يتخيل رائحتها في برده ، بعد عام من لقائه بها . ويرى ان رائحتها ، حين مس بردها برده – علقت في برده وظلت ، او ظلّ يشمها ، حولاً ، حتى خلق

(١) ابن الجوزي ؛ ص : ١٦٧
(٢) ٤٦٣/٢
(٣) ديوان سحيم ؛ ص : ٣٠ – طبعة دار الكتب المصرية

البرد وبلي . وعندنا ان هذا احساس الوهم ، الذي يصوّره الخيال لمرهفي الحسّ بشم العطر وذوقه ، لااحساس الحقيقة .

نقول : هذا احساس مرهفي الشعراء منهم بالطيب . وعمر — رضي الله عنه — كان مثلهم . قتل اخوه زيد بن الخطاب ، وكان عمر محباً له مولعاً به ، قتل في حرب اليمامة من حروب الردّة ، وحزن عليه عمر ، وكان يقول : «ماهبّت الصبا من جهة اليمامة الا شممت فيها رائحة اخي زيد» واين اليمامة ونجد من الحجاز !؟ ولكنّه احساس الوهم والخيال يعرض لأهل الحواس المرهفة من الناس.

على انه — رضي الله عنه — كان لحرصه الشديد على مال المسلمين يذود نفسه عن الطيب ذوده لها عن الطعام. يروي ابن الجوزي(١) عن سعد بن ابي وقاص — رضي الله عنه — قال : قدم على عمر مسك من البحرين ، فقال عمر : والله لوددت اني اجد امرأة حسنة الوزن ، تزن لي هذا الطيب ، حتى افرّقه بين المسلمين ، فقالت له امرأته عاتكة : انا جيدة الوزن ، فهلم ازن لك . قال : لا. قالت : ولم ؟ قال : اخشى ان تأخذيه هكذا ، وتجعليه هكذا — وادخل اصبعيه في صدغيه — وتمسحين به عنقك ، فأصيب منه فضلاً عن المسلمين » .

ويروون ان امرأته باعت من طيب المسلمين لعطّارة ، وصار الوزن يزيد وينقص فتكسر الطيب بأسنانها ليستوي الوزن . ثم وضعت اصبعيها في فيها ومسحت على خمارها . ودخل عمر ، فقال : ماهذه الريح !؟ فأخبرته الذي كان . فقال : طيب المسلمين انت تتطيّبين به !؟ ثم انتزع خمارها من رأسها ، واخذ جزءً من ماء فجعل يصبه على الخمار ، ثم يدلكه في التراب ، ثم يشمّه . وفعل ذلك ما شاء الله .

---

(١) سيرة عمر بن الخطاب ؛ لابن الجوزي ص : ١٣٨

أرأيت الى حرصه الشديد على مال المسلمين ، الذي يمليه عليه احساسه الشديد بما في الطيب من متعة ولذة ، يخشى ان ينالها دون بقية المسلمين !؟

* * *

عمر والحداء والغناء

وكان عمر يبعثه ابوه بالابل في شعاب ضجنان، يحتطب عليها مرة وعلى ظهره أخرى . ومرافقة الإنسان لحيوانه تحدث بينهما شيئاً من التجاوب والالفة. والعطف وكذلك كان العرب مع ابلهم ، وكذلك كان عمر . عن المسيّب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب يؤنبّ رجلاً ، ويقول : «حمّلت جملك مالا يطيق !» وقال الأحنف بن قيس : « وفدنا على عمر – رضوان الله عليه – بفتح عظيم ، فقال : اين نزلتم ؟ فقلنا : في مكان كذا وكذا . . . فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا ، فجعل يتخلّلها ببصره ، ويقول : الا اتقيتم الله في ركابكم هذه !؟ اما علمتم ان لها عليكم حقاً ؟ الا خلّيتم عنها فأكلت من نبت الأرض ؟ فقلنا : ياامير المؤمنين ! إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا التسرّع الى امير المؤمنين والى المسلمين بما يسرّهم » (١) .

وهكذا ترى عمر يؤنب رجلاً حمّل جمله فوق طاقته . ويؤلمه ان ينصرف الأحنف بن قيس واصحابه ، ويتركوا رواحلهم مقيّدة ، لايخلّون بينها وبين نبت الأرض ترعاه . وتراهم حين رأوه يأسى لهذا ، ويؤنبّهم عليه ، ردّوا عليه معتذرين .

ونقول : جدير بمن يرعى الإبل ويحتطب عليها ، ويرافقها ، ويعطف عليها ان يحدوها ليسلي نفسه بالحداء ، وليخفّف عن ابله ايضاً . وقد ذهبوا : الى ان الجمل يستخفّه الحداء ، حتى يجعله يرى احماله الثقيلة خفيفة عليه ، ويبعث فيه من النشاط مايسكره ويولّهه . وذهبوا : الى ان الجمال تستمع الى صوت الحادي

---

(١) ابن الجوزي ؛ ص : ٩٧

– وقد اعتراها الكلل وثقلت عليها احمالها – فتخفّ في سيرها ، وتسرع حتى تزعزع عليها احمالها . وربما اتلفت نفسها من شدة السير ، وثقل الحمل ، وهي لاتشعر بهذا لفرط ما يعتريها من الحداء . وهم يقصّون القصص في هذا (١) .

وكان عمر – في جاهليته – يحدو إبله ، وظلّ يحبّ الحداء ويطرب له الطرب كله ، بعد ان اسلم وصار خليفة ايضاً . وفي العقد الفريد (٢) : «قال عمر بن الخطاب للنابغة الجعديّ : أسمعني بعض ماعفا الله لك عنه من غنائك . فأسمعه كلمة له : قال وإنك لقائاها !؟ قال: نعم . قال عمر – رضي الله عنه –: لطالما غنّيتُ بها خاف جمال الخطّاب » .

وكان الحداء يطرب عمر ويستوقفه . عن عاصم بن عبيدالله بن عامر ، قال : «سمع عمر صوت ابن المغترف الحادي، في جوف الليل ، ونحن منطلقون الى مكة فأوضع عمر راحلته ، حتى دخل مع القوم . . . فلما طلع الفجر ، قال للحادي : اسكت الآن! قد طلع الفجر . اذكروا الله تعالى » . (٣)

وهكذا تراه يظل يستمع الى الحادي حتى يطلع الفجر ، ولكنه مع شهوته لسماع الحداء ، كفّ عن السماع ليذكر ويذكروا الله ؛ فهو يحب الحداء مالم يكن فيه لاهياً عن ذكر الله .

وكان يحب الغناء واصوات الدفوف ، حبّه للحداء . قالوا : سمع عمر ضوضاء في الدار ، فسأل : ماهذا ؟ قيل له : عرس . فقال هلاّ حرّكوا غرابيلهم! يعني الدفوف . ورووا عنه ، انه جيئ برجل يغنّي بالحج ، وهو محرم، فقال:

(١) انظر مقالتنا عن الشعر والإنشاد ؛ في المجلد الرابع عشر من هذه المجلة . وانظر كتاب احياء علوم الدين – للغزالي ؛ ١/٢٧٥

(٢) ٦/٩

(٣) ابن الجوزي، ص : ٧٠

دعوه ، فإن الغناء زاد الراكب » وحسبك بعبارته هذه رخصة في الغناء وتحبيذاً له وكان يستمتع بالغناء ، ويطيل الإستماع اليه ، مالم يكن به شاغل عن شيئ من أمر دينه ، ولاينهى عنه الا ان يكون مثاراً لغواية اوشهوة (١). روي عن نائل مولى عثمان بن عفان . انه خرج في ركب مع عمر وعثمان وابن عباس . . . وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المغترف الفهري . وكان رباح هذا يجيد الحداء والغناء ، فسألوه ذات ليلة ان يحدو لهم ، وتردّد ، وقال مستنكراً : مع عمر ! ! قالوا : احدُ ، فان نهاك فانته . فحدا ، حتى اذا كان السحر ، قال له عمر : كفّ الآن ! فإن هذه ساعة ذكر . قالوا : وفي الليلة الثانية سألوه ان ينصب لهم نصب العرب – والنصب ضرب من الغناء – فتردد رباح تردّده بالأمس ، ثم غنّى ، حتى اذا كان السحّر ، قال له عمر : كفّ ! فإن هذه ساعة ذكر

ودخل مرةً على خادمه اسلم ، وابنه عاصم ، وهما يغنّيان غناء النصْب . فوقف يسمع منهما . . . وسألاه : ايهما احسن غناء ؛ فقال : اعيدا علي ، فأعادا عليه . فقال لهما ممازحاً : مثلكما كمثل حمارَي العبادي . ، سئل : ايهما شرّ ؟ فقال : هذا ، ثم هذا .

وخرج للحج مرةً ، ومعه خوات بن جبير ، وابو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن ابن عوف . . . فاقترحوا على خوّات ان يغنّيهم من شعر ضرار . قال عمر : « بل دعوا ابا عبد الله ! فليغن من بنيات فؤاده » قالوا : فما زال يغنّيهم ، حتى كان السحَر ، فهتف به عمر : « ارفع لسانك ياخوّات فقد أسحَرنا ! » .

ولئلا تفوتك ملاحظته هذه في الفرق بين ان يغني المغني بشعره ، وان يغنّي بشعر غيره ، نورد قول الأصمعي : قلت لبعض الأعراب : انشدني شيئاً من شعرك . قال : كنت اقول الشعر ثم تركته . قلت : ولم ذاك !؟ قال : لأني قلت شعراً ، وغنّى فيه حكم الوادي ، وسمعته ، فكاد يذهل عقلي ، فآليت الاّ

(١) عبقرية عمر – للعقاد ؛ ص : ٢٩٦

اقول شعراً.(١) وهم يحدثون الأحاديث الكثيرة عن الشعراء يُغنّون بأشعارهم فيحدث لهم من الهياج والإثارة ، مالا يستطيعون ان يملكوا معه نفوسهم (٢) ومن هنا نرى ملاحظة عمر ، في ان يغنّي خوات بن جبير من « بنيات فؤاده» لأنه يكون احمى عاطفة ، واكثر تأثراً وتأثيراً حين يغنيّ بشعره .

وقد يخلو عمر الى نفسه ، وتستثيره الذكرى ، فيغنّي . قالوا : كان مرة في سفر فرفع عقيرته بالغناء ، وانشد :

وما حملت من ناقة فوق رحلها   أبرّ وأوفى ذمة من محمد

فاجتمع الركب اليه . . .

وجاء عبد الرحمن بن عوف الى بابه مرة ، فوجده مستلقياً على مزحفةٍ له ، واحدى رجليه على الأخرى ، وهو يترنّم ويغنّي :

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما   قضى وطراً منها جميل بن معمر

فلما دخل عليه ، وجلس ، قال له عمر : يا ابا محمد ! إنا اذا خلونا قلنا كما يقول الناس .

وهكذا ترى عمر يحب الغناء ؛ يسمعه ويغنيه بنفسه . وقد شهر بهذا ، وحسبنا من شهرته ان يكتب ابن خرداذبة عن اغاني الخلفاء واولادهم فيعتبر عمر الأوّل في هذا ، ويبتدئ به – رضي الله عنه – ويذكر انه تغنّى وقد ركب ناقة فاستوطأها :

كأن راكبها غصن بمروحة   اذا استمرت به او شاربٌ ثمِلُ (٣)

* * *

غيرته على النساء

وكان عمر شديد الغيرة على النساء . والغيرة على الشيئ ، لاتكون الاّ لشدة الحبّ والإعزاز له ، وشدة الحرص عليه . ويزيد في الغيرة على النساء ان يكون

---

(١) الأغاني ؛ ٣٨١/١١

(٢) انظر في هذا مقالنا : الشعر والإنشاد ، في المجلد الرابع عشر من مجلة المجمع العلمي العراقي

(٣) الأغاني ؛ ٢٥٠/٩

المرء عفيفاً ذا دين وذا مروءة . وكذلك كان عمر . كان – رحمه الله – يقول : «لن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه » . وكان يقول : « المروءة مروءتان : مروءة ظاهرة ، ومروءة باطنة ؛ فالمروءة الظاهرة الرياش ، و المروءة الباطنة العفاف (١) وكان – رحمه الله – لشدة عفافه ومروءته وغيرته ، يحس بما يعانيه المحبّون ذوو المروءة والعفاف ، حتى رووا عنه قوله : « لو ادركتُ عفراء وعروة لجمعت بينهما » (٢) .

وفي رسائل الجاحظ (٣) : « وانتم تروون ان عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كان اغير الناس ، وان النبيّ – صلى الله عليه وسلم – قال له : « إني رأيت قصراً في الجنة ، فسألت : لمن هذا القصر ؟ فقيل : لعمر بن الخطاب . فلم يمنعني من دخوله ، الا لمعرفتي بغيرتك » فقال عمر ، وقد بكى : « وعليك يغار يانبيّ الله ! » .

وكان الرسول الكريم ، يحمد هذه الصفة ، ويحمدها في عمر خاصة، وقد روي عنه – صلى الله عليه وسلم– قوله :(٤)«إن الله غيور يحبّ الغيور ،وإن عمر لغيور » وحسبك من تناهي عمر في الغيرة هذه ، ان اشار على الرسول الكريم بحجاب أزواجه ، امّهات المؤمنين (٥) .

ومن غيرته الشديدة على النساء ، رووا عنه قوله :«استعينوا عليهنّ بالعُري » وقداورد الجاحظ قوله هذافي الحديث عن النساء ، وما يفتنهُنّ ، وفسّره بقوله :« لأن الثياب هي المدعاة الى الخروج في الأعراس . . والظهور في الأعياد»(٦).

---

(١) العقد الفريد ؛ ٢٢١/١

(٢) ابن الجوزي ؛ ص : ٧٠

(٣) ١٥٢/٢ طبعة الاستاذ عبدالسلام محمد هارون

(٤) عبقرية عمر – للعقاد ، ص ٣٢٥

(٥) انظر تفسير الزمخشري في الآية الكريمة : واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب؛ ذلكم اطهر لقلوبكم ، وقلوبهن » سورة الأحزاب الآية : ٥٢

(٦) الحيوان ١٧١/١ طبعة الاستاذ عبدالسلام محمد هارون

وبلغ في غيرته هذه إن نهى ان يعرّض الحادي بذكر النساء ، وهو محرم(١) وفي حديث للجاحظ : « وخرف النمر بن تولب ـ العُكلي ـ ، فكان هجيّراه : اصبحوا الركب ، اغبقوا الركب . وفرت امرأة من العرب ، فكان هجيّراها : زوّجوني ! زوّجوني . فقال عمر بن الخطاب : « لما لهج به اخو عُكل خيرٌ مما لهجت به صاحبتكم » وما نراه ليرى هذا ، لولا ما في عبارتها مما يحرج الرجل الغيور ويخجله ! .

* * *

عمر و اسرته

وكان عمر محباً لأسرته، على اننا لانكاد نجد من الأخبار ما يتحدث به عن امّه، حتى اننا لنرى مؤرخيه يختلفون فيما اذا كانت امه «حنتمه» بنت هاشم او بنت هشام بن المغيرة . ومن اسباب هذا عندنا ان العرب عامة كانوا يأنفون من الحديث عن امهاتهم ، بل اننا لنراهم يسمون الرجل باسم امّه ، اذا ارادوا تعنيفه ، او النيل منه . وعمر نفسه ، يبعث ابا هريرة ـ رحمهما الله ـ عاملاً على البحرين . ويبلغه انه ابتاع افراساً بألف دينار وستمائة دينار ، ويسأله عنها فيجيب : بأن كانت لهم افراس تناتجت، وعطايا تلاحقت . . .» فيقول عمر : « اجئت من اقصى حجر بالبحرين يجبى الناس لك ، لا لله ولا للمسلمين ! ما رجعت بك أُميمة ـ اي ما ولدتك ـ الا لرعية الحُمُر ! » واميمة هذه ام ابي هريرة (٢) .

وجاء أمر عمر بعزل خالد ، وكان خالد قائد المسلمين في حرب اليرموك . قال ابن الأثير (٣) : « . . . ودخل خالد الخندق . . . فلما اصبحوا أتى خالد

(١) ابن الجوزي ، ص : ١٦٨

(٢) العقد الفريد ؛ ١/٤٦

(٣) ٢/٢٨٢ ، طبعة منير الدمشقي

بعكرمة بن ابي جهل جريحاً . — وعكرمة صاحب خالد وصديقه — فوضع رأسه على فخذه ، وبعمرو بن عكرمة فجعل رأسه على ساقه . ومسح خالد وجوههما ، وقطّر في حلوقهما الماء ، وقال : « زعم ابن حنتمة — يعني عمر — الا نستشهد».

نقول : لعل الحديث عن الأمهات كان امراً غير محمود عندهم ، ومن هنا كان عمر لايتحدث عن أمه ، او لعل المؤرخين . لهذا السبب ايضاً ، لم يشيروا — فيما بين ايدينا من كتب — الى ذكر حديث عمر عن أمّه حنتمة بنت هشام او هاشم بن المغيرة .

اما حديثه عن أبيه ، فيرينا ان عمر كان محباً مكبراً له ، ويقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين (١) : إن عمر « كان كثيراً ما يقول : سمعت ذلك من الخطاب ، ولم اسمع ذلك من الخطاب » ولا نراه يقول هذا الا حباً لأبيه وإعزازاً وتعظيماً له . وحسبك من حبّه و اكباره له ان ظل يقسم باسمه وهو كهل حتى نهى النبي — صلى الله عليه وسلم — عن ذلك . وقد نهى الرسول الكريم عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية . هذا كلّه ، وعمر يمرّ بشعاب ضجنان ، بعد ان صار خليفة ، ودانت له الدنيا ، فيقول عن الخطاب ابيه : « لقد رأيتني في هذه الشعاب في إبل الخطابّ ، وكان فظّاً غليظاً احتطب مرةً على ظهري ، واحتطب عليها اخرى . ثم اصبحت اليوم وليس فوقي احد » يقول هذا ، ويعقبه منشداً (٢)

لاشيئ فيما ترى تبقى بشاشته   يبقى الإله ، ويودي المال والـولد

ولانراه ينشد هذا البيت ، الا ان يكون قد دارت بخياله صورة ابيه ، وانـه تحسّر على فقده ، فأدار هذا البيت على لسانه ، يعزّي نفسه ؛ ويسليها بأن الله وحده هو

---

(١) ١/٣٠٤ طبعة الاستاذ عبدالسلام محمد هارون

(٢) ابن الجوزي ؛ ص : ١٣٣

الباقي ، وكلٌّ من عليها فان . وعمر يذكر هذا ويتحسّر عليه، مع انه لم يكن هو وابوه من الموسرين . يقول عمرو بن العاص ، حين بلغ عمر انه فشت له فاشية من خيل وابل وغنم وعبيد بعد ان اصبح عاملاً على مصر ، وبعث اليه عمر محمد بن مسلمة ، ليشاطره ماله ؛ لأنه — على مايرى عمر — حصل على هذا بسبب ولايته وحكمه . يقول عمرو لمحمد بن مسلمة في معرض التعريض بعمر — رضوان الله عليه — : « قَبَّحَ الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل . والله ! إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حُزمةً من الحَطَب ، وعلى ابنه مثلها . ومامنهما الافي نمرة — والنمرة بردة من صوف تلبسها الأعراب — لاتبلغ رُسغَيْه . . . » (١) .

واحبّ عمر أبناءه ، وكان يتبسط مع صغاره ، حتى ليستلقي على ظهره وهو يلاعبهم . ويروون انه سأل احد عماله : « كيف انت مع اهلك؟ قال : اذا دخلت سكت الناطق . فقال عمر : « اعتزلْ ، فإنك لاترفق بأهلك وولدك ، فكيف ترفق بأمّة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ » (٢) .

وكان عبدالله بن عمر احبّ ابناء عمر اليه . كانت ولادته في العاشرة قبل الهجرة ، وأسلم مع أبيه بمكة ولم يكن بالغاً حينئذٍ ، وهاجر مع ابيه الى المدينة وعُرِض على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يوم بدر فردّه ، وعُرض عليه يوم أحد فردّه ايضاً لصغر سنه ، فلما كان يوم الخندق عُرِض عليه وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه . وشهد الخندق وفتح مكة ، وبقية المشاهد . . . (٣) .

قالوا : وكان اشبه ولد عمر بعمر . وكان عمر يحبه فوق حبّ الآباء لأبنائهم . ولعل مرافقته لأبيه في الهجرة ، وفي الحروب يذودان بها عن الإسلام ، مما جعل

---

(١) العقد الفريد ١/٤٨

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف — للأبشيهي ؛ ص : ١٥٢

(٣) صفوة الصفوة — لابن الجوزي ١/٢٣٦

نفس عمر تتعلّق به ، وحسبك به تعلّقاً ان يقول فيه : « مامن اهل ولا ولد ولا مال ، الاّ واحبَ ان اقول عليه : انّا لله وإنّا اليه راجعون ، إلاّ عبدالله بن عمر احبُّ ان يبقى في الناس بعدي .

واحبّ عمر ابنه عاصماً ، وكان عاصم هذا من احسن الناس خلقاً . وكان قريباً من نفس اخيه عبد الله بن عمر ومن قلبه ، وكان عبد الله يقول : انا واخي عاصم لانغتاب الناس . ومات عاصم بالرّبذة وجزع اخوه عبد الله عليه ، وراح يندبه ويتمثّل بقول متمم بن نويرة في اخيه مالك بن نويرة ، ينشده ويردده :

فليت المنايا كنَّ خلّفن مالكاً فعشنا جميعاً او ذهبْن بنا معــا

ويسمه عمر – رضوان الله عليه – فيروح ينشد معه ، قول متمم هذا ولكنه يضع « عاصماً » يستعيض بها عن « مالك » وينشد :

فليت المنايا كنَّ خلفن عاصماً فعشنا جميعاً او ذهبن بنا معــا

ولك ان تنظر الى جزعه في قوله هذا . هذا مع ايمانه العميق واحتسابه (١).

وموقف عمر هذا من ابنائه ، جعله يزور القبور ، ويقدّر عاطفة الأبوة ، ويحسُّ لوعة فقد الآباء للأبناء ، ويحبّ ان يسمع شعر الرثاء يقوله الآباء في رثاء ابنائهم ؛ كأنه يجد في هذا الشعر تنفيساً لما في نفسه عن ابنه عاصم الذي احتسبه . وفي العقد الفريد (٢) : « خرج عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يوماً الى بقيع الغرقد ، والغرقد مقبرة اهل المدينة ، فإذا اعرابيّ بين يديه ، فقال : ياأعرابيّ ما ادخلك دار الحقّ ؟ قال : وديعة لي هاهنا من ثلاث سنين . قال عمر : وما وديعتك ؟ قال : ابن لي حين ترعرع فقدته ، فأنا اندبه . قال عمر : أسمعني ماقلت فيه . وراح الأعرابي ينشد ، وعمر يسمع . . . ثم قال عمر ، وكأنه قد سرّى عنه بالإنشاد : صدقت يااعرابي ! غير ان الله خيرٌ لك منه .

(١) الإصابة – ٣/٥٦
(٢) ٣/٢٥٥

يتبــع   جميل سعيد

ألفاظ من رحلة ابن بطوطة

الدكتور سليم النعيمي

القسم الثالث

الغرتي :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٩٢) في حديثه عن غابات مالي : « ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص القلـــو ، وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتي ، والغرتي بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة ، وهو ثمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان اذا أكلوه ، ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع ، فمنها أنهم يطبخون به ، ويسرجون السرج ، ويقلون به هذا الاسفنج ، ويدهنون به ، ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير ، وهو عندهم كثير متيسر ،ويحمل منه من بلد إلى بلد في قرع كبار ، تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا . »

وقال (ص ٣٩٨) : « وبعث إلى بغرارتين من الغرتي . »

* * *

الفتاك جمع فاتك :

قال ابن بطوطة (٣ : ٦٥) في حديثه عن خراسان : « وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ، ويعرفون بخراسان بسرابدالان (سرابداران) ، ويعرفون بالمغرب بالصقور .»

وتطلق اللفظة على جماعة من الناس لا عمل لهم الا الفساد وقطع الطرق وسلب الأموال . لهم رئيس ، وهم مثل العيارين الذين كانوا في بغـــداد في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ومثلهم موجود في كل المدن ويسمون في الشام الحرافيش .

والكلمة عربية وهي فاعل من فتك فتكاً وهو ركوب ما همّ من الأمور ودعت اليه النفس فهو فاتك أي جريءٌ شجاع جمعه فُتّاك كرمّان. وفتك به انتهز منه غرة فقتله (أنظر تاج العروس فتك) .

* * *

الفرارية :

قال ابن بطوطة (٤ : ٤٠٤ ، ٤٠٥) في حديثه عن سلطان مالي : « وتأتـــي الفرارية وهم الأمراء . . . وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه ، وقوسه بيده وهو راكب فرساً .»

* * *

فربا :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٨٥) في حديثه عن ايوالاتن وهي أول عمالات السودان جهة الغرب : « ونائب السلطان فربا حسين ، وفربا بفتح الفاء وسكون الراء، ومعناه النائب .

* * *

فَرَجِيَّة :

قال ابن بطوطة (٢ : ١٨٦) في حديثه عن أهـــل مقديشو : « وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فإنهم لا يعرفونها ، ودراعة من المقطع المصري معلمة ، وفرجية من القدسي مبطنة ، وعمامة مصريـــة معلمة . »

وقال (٢ : ١٨٧) عن سلطان مقديشو : « وكان لباسه في ذلك اليوم فرجيـــة قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ، وهو متقلد بفوطة حرير »

والفَرَجية بفتح الفاء والراء ثوب ضاف ردناه واسعتان طويلتان تتجاوز أصابع اليد عادة وهي غير مشقوقة وهي ما يسمى في بغداد (الدشداشة) .

ولعل الكلمة عربية يمانية ففي اللسان : امرأة فرج متفضلة في ثوب يمانية كما يقول أهل نجد فضل .

* * *

الفِرسِك

قال ابن بطوطة (١ : ٣٥٩) في حديثه عن رباط ربيع بمكة : « وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عادتهم أن كل من له بستان من النخيل ، والعنب ، والفرسك وهو الخوخ ، والتين ، وهم يسمونه الخَمط ، يخرج منه العشر لهذا الرباط . »

واللفظة عربية ، قال صاحب تاج العروس : « الفرسك كزبرج الخوخ يمانية ، أو ضرب منه مثله في القدر أجرد أحمر وأصفر وطعمه كطعمه ، قال شمر : سمعت حميرية فصيحة سألتها عن بلادها ، فقالت النخل قل ، ولكن عيشنا امقمح ، امفرسك ، امعنب ، امحماط طوب أي طيب ، فقلت لها : ما الفرسك ؟ فقالت

هو امتين عندكم . قال الأغلب * كمز لعبّ الفرسك المهالب * أو ما ينفلق عن نواه ، وفي الصحاح : ضرب من الخوخ ليس ينفلق عن نواه . قلت ويقال لـه الفرسق بالقاف .»

* * *

فرشتي :

قال ابن بطوطة (٢ : ٢٩٦) في حديثه عن مدينة بركى من مدن الأناظول : « ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي ومعنى فرشتي الملَك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله .» واللفظة تركية معناها الملَك واحده الملائكة .

* * *

الفرقعة :

قال ابن بطوطة (١ : ٣٢٧) في كلامه عن أهل مكة : « ومن عادتهم في الخطبة وصلاة الجمعة ... إذا خرج الخطيب أقبل لابساً ثوب سواد ... وبين يديه أحد القَومَة في يده الفرقعة ، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء ، فيسمع له صوت عال ، يسمعه من بداخل الحرم وخارجه ، فيكون إعلاماً بخروج الخطيب ولا يزال كذلك إلى أن يقرب من المنبر .»

والكلمة عربية محدثة ، وأصلها من فرقعة الاصابع وهو غمزها حتى يسمع لمفاصلها صوت ، وقد نهي عنه في الصلاة ، وفي حديث مجاهد كره أن يفرقع الرجل أصابعه في الصلاة ، فسمي ما يحمله القيّم فرقعة لأنه يحدث صوتاً كالفرقعة التي يحدثها غمز الأصابع .

* * *

فنديار قالو :

قال ابن بطوطة (٤ : ١٣٣) في حديثه عن أهل جزائر مالديف : « ويسمون القاضي فنديار قالو ، وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتـوح وياء آخر الحروف وألف وراء وقاف وألف ولام مضموم .»

* * *

الفوني :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٩٤) في حديثه عن بلاد مالي : « فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بأنلي واللبن والدجاج . . . والفوني وهـو كحب الخردل يصنع منـه الكسكسو والعصيدة ... إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان والفوني خير منه .»

* * *

قاسا :

قال ابن بطوطة (٤ : ٤١٧) في حديثه عن سلطان مالي : « ان السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ، ومعنى قاسا عندهم الملكة ، وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر .»

* * *

القاشاني :

قال ابن بطوطة (٢ : ٤٦) في حديثهعن زاوية باصبهان : « وبها حمام عجيب مفروش بالرخام ، وحيطانه بالقاشاني » وقال (٢ : ١٣٠) في حديثه عن المسجد الجامع بتبريز : « وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني ، وهو شبه الزليج .»

معرب كاشاني نسبة إلى كاشان من مدن العراق العجمي قرب اصبهان ولعله من مصنوعاتها . ويقال إنه في الفارسية مشتق من كاش أو كاج بالجيم المعقودة بمعنى الزجاج ، لأن القاشاني مربعات من الخزف المموه وهو مختلف الألوان .

* * *

القافلي :

قال ابن بطوطة (٣ : ٢٣٤) في كلامه عن المبخرة العظمى لسلطان الهند : « يدخل فيها المبخرون يدقون العود القماري والقافلي والعنبر الاشهب والجادي حتى يعم دخانها المشور كله » .

وقال (٤ : ٢٤٢) في حديثه عن العود الهندي : « وكل ما ببلاد المسلمين من شجرة فهو متملك واما ما في بلاد الكفار فاكثره غير متملك ، والمتملك منه ماكان بقافلة وهو أطيب العود » .

ويفهم من كلام ابن بطوطة ان القافلي ضرب من العود ينبت في قافلة موضع في الهند في بلاد المسلمين من الهنود وهو منسوب اليها ويقول صاحب القاموس المحيط : « والقافلة ثمر نبات هندي من العطر والأفاويه » وقال الزبيدي شارحه : هو الهيل بوا أو الهالة والعامة تقول حب هان . وهذا يتفق مع ماذكره أصحاب كتب المفردات فقد قال داود الانطاكي في تذكرته مثلا هو حب يخرج من أصل نحو ذراعين عريض الورق خشن حاد الرائحة يكون فيه هذا الحب. وهو ذكر مثلث بين طول واستدارة يتفرك عن الشكل المذكور وقد رصفت فيه الحبات كل حبة كالعدسة ولكنها غير مفرطحة .

غير ان وصف ابن بطوطة لشجر العود الهندي بانواعه ومنه القافلي يختلف عما يذكره أصحاب كتب المفردات فهو يقول ان «شجره يشبه شجر البلوط الا ان قشره رقيق ، واوراقه كاوراق البلوط سواء ، ولا ثمر له ، وشجرته لاتعظم كل العظم. وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة ، وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها . . . »

فالقافلي الذي يذكر ابن بطوطة هو من العود الهندي . وهو عروق شجرة . وهو ليس الجوز بوا أو الهيل او حب الهان .

* * *

القافي :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٩٩) في حديثه عن مالي : « وأكلنا . . . عصيدة تصنع من شيْ شبه القلقاس يسمى القافي بقاف وألف وفاء ، وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام . »

والقلقاس بالضم أصل نبات يؤكل مطبوخاً . قال ابن البيطار : هو شيْ ينبت على المياه وله ورق كبير أملس شبه ورق الموز الا أنه ليس بطوله ... أو يشبه ورق القرع ، ولكل ورقة من ورقه قضيب منفرد غلظه كالإصبع وأكبر ، ونبات القضيب من الأصل الذي من الأرض ، وليس لهذا النبات ساق ولا ثمر . وأصله شبيه بالأترجة ، إلا أن ظاهره مائل إلى الحمرة وداخله أبيض كثيف مكتنز مشاكل للموز ، وطعمه فيه قبض مع حرافة قوية ... إذا سلق بالماء زالت حرافته جملة واكتسبت مافيه من القبض اليسير لزوجة مغرية ... ولذلك صار غذاؤه غليظاً بطيْ الانهضام ثقيلاً في المعدة .

* * *

القاقـم :

قال ابن بطوطة (٢ : ٤٠١ ـ ٤٠٢) في حديثه عن أرض الظلمة : « فاذا كان من الغد عادوا (المسافرون) لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم ... والقاقم هو أحسن أنواع الفراء تساوي الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار.. وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر ، وذنبه طويل يتركونـه في الفروة على حاله ، والسمور دون ذلك .»

والقاقم بضم القاف حيوان من الفصيلة السمورية فصيلة بنات عرس Ermine ويسمى بالفرنسية hermine . وقد وردت الكلمة في برهان قاطع بالمعنى الذي ذكره ابن بطوطة ، وفي الحاشية أنـه في العربية قاقوم ولم نجدها فـي اللسان ولا القاموس ولا تاج العروس .

وذكره الجاحظ في الحيوان (٥ : ٤٨٤) قال : وذوات الوبر كالإبل والثعالب ، والخزز ، والأرنب ، وكلاب المـاء ، والسمور ، والفنك ، والقاقم ، والسنجاب والدباب . وأعاد ذكره في (٦ : ٢٧ ، ٣٢) ولم يعرّفه ، وقال المعلوف تركيته قاقم ، وهو بالفارسية قاقم أيضاً . وذكره دوزي فقال قاقوم = قاقم hermine

* * *

القـال :

قال ابن بطوطة (٣ : ١٣٠) في كلامه عن الحبوب الخريفية في الهند : « القال وهو شبه أنلي . » أنظر : (أنلي) .

* * *

القـان :

قال ابن بطوطة (٤ : ٢٩٦) : « والقان عندهم (أهل الصين والخطا سمة لكل من يلي الملك – ملك الأقطار – كمثل ما يسمى من ملك بلاد اللور بأتابك . »

والكلمة تركية ثم تحولت إلى خان وأُخِذ من الكلمتين كلمة واحدة فقيل خاقان .

* * *

القاهريـة :

قال ابن بطوطة (٣ : ١٢٤) في حديثه عن طعام أهل السند : « ثم يجعلـون لقيمات القاضي ويسمونها الهاشمي . ثم يجعلون القاهرية .» ولم نقف على معناها ولعلها ضرب من الحلوى منسوبة إلى القاهرة إذ أنها تقدم آخر الطعام .

* * *

القبرية :

قال ابن بطوطة (٢ : ١٥) : « وعلى كل قبر منها قبرية مكتوب فيها اسـم صاحب القبر ووفاته .»

* * *

القتارة :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣١ – ٣٢) في حديثه عن أمير مدينة علابور : « فضربه أحدهم بقتارة ، والقتارة ، بقاف معقودة وتاء معلوة ، حديدة تشبه سكة الحرث ، يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقي.»

* * *

القرباني :

قال ابن بطوطة (٤ : ١٣٨–١٣٩) في حديثه عن وزير جزيرة ذيب المهل : « وبعث

الوزير إلي صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة الأرز والسمن والخليع وجوز النارجيل، والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القرباني ، بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والف ونون وياء ، ومعنى ذلك ماء السكر . »

* * *

القرندرية :

قال ابن بطوطة (١ : ٦١ — ٦٢) في حديثه عن جزيرة البرزخ خارج دمياط بين البحر والنيل : « وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوي قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية ، وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ... ويذكر أن السبب الداعي للشيخ جمال الدين الى حلق لحيته وحاجبيه أنه كان جميل الصورة حسن الوجه ، فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه في الطرق وتدعوه لنفسها ، وهو ممتنع متهاون ، فلما أعياها أمره دست له عجوزاً تصدت له إزاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم ، فلما مر بها قالت له : ياسيدي أتحسن القراءة ؟ قال نعم ، قالت له هذا الكتاب وجهه إلي ولدي وأحب أن تقرأه علي ، فقال لها نعم ، فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدي إن لولدي زوجة وهي بأسطوان الدار ، فلو تفضلت فقرأته بين بابي الدار بحيث تسمعها ، فأجابها لذلك ، فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب ، وخرجت المرأة وجواريها فتعلقن به ، وأدخلنه الى داخل الدار ، وراودته المرأة عن نفسه ، فلما رأى أن لا خلاص له قال لها إني حيث تريدين فأريني بيت الخلاء ، فأرته إياه ، فأدخل معه الماء ، وكانت معه موسى حديدة ، فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها ، فاستقبحت هيئته ،

واستنكفت فعله ، وأمرت بإخراجه ،وعصمه الله بذلك ، فبقي على هيئته فيما بعد، وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .»

هم القلندرية ، ومن هذا الاسم صيغت كلمة قرندل في العامية العراقية .

يقول الدكتور محمد معين في تعليقاته على برهان قاطع : يرى أكثر مؤلفي المعاجم أنها معربة من كلندر ـ كلندرة وهي الخشبة الضخمة غير المنظمة الجوانب ويرى محمد معين أن من المحتمل أن تكون الكلمة من اليونانية Caletur من الجذر Caleo بمعنى الدعوة والإحضار . ويرى مؤلف برهان قاطع أن القلندري يبلغ الكمال في التجريد والتفريد ، ويسعى في تخريب العادات والعيادات

ويقول دي ساسي : (Chrestomathie arabe) انهم أتباع طريقة في التصوف سميت باسم مؤسسها الشيخ كرندل .

* * *

القسطل :

قال ابن بطوطة (٢ : ٣٢٤) في حديثه عن مدينة يزنيك بالأناظول :« والقسطل عندهم كثير جداً رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون .»

وفي (٤ : ٣٩١) قال ابن جزى : ببلاد الأندلس شجرتان من شجر القسطل في جوف كل واحدة منها حائك ينسج الثياب احداهما بسند وادي آش ، والاخرى ببشارة غرناطة .»

ويقال له أيضاً قصطل وكستنه وكستنا وهو الشاهبلوط وهو شجر من الفصيلة البلوطية له ثمر يؤكل مشوياً . ويعرف بمصر بأبي فروة . ولا يعرفه أهل العراق .

* * *

القشـي :

قال ابن بطوطة ٢ : ٣٧٢–٣٧٣ في حديثه عن خيل الترك التي تعرف بمصر بالأكاديش : « وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند ، فيكون في الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك ومافوقه .

ويستأجر التاجر لكل خمسين منها راعياً يقوم عليها ويرعاها كالغنم . ويسمى عندهم القشي . ويركب أحدها ، وبيده عصا طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذي هو راكبه ورمى الحبل في عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعي . »

وقال في (٢ : ٣٨٧) في حديثه عن خواتين أوزبك ملك الترك : « وكل خاتون تركب في عربة ... وخديم العربة الذي يركب أحد الخيل فتى يدعى القشي .»

* * *

القفطان :

قال ابن بطوطة (١ : ١٥٠) في حديثه عن الشيخ أبي عبد الله المدعو بخليل في مكة : « وكنت أراه حين ذلك لابساً جبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة بالقفطان .» ويقول دوزي إنها من خفتان وإنها لم تستعمل الا منذ القرن السادس عشر (أنظر كتابه الملابس عند العرب ص ١٦٧) .

* * *

قلب الماس :

قال ابن بطوطة (٤ : ١١٢) في حديثه عن جزائر ذيب المهل : « وإنما أكل

أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس ولحمه أحمر ، ولا زفر له ، وإنما ريحه كريح لحم الأنعام ، واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع ، وطبخوها يسيراً ، ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فإذا استتم يبسه أكلوه . »

• • •

القماري :

قال ابن بطوطة (٤ : ٢٤٢) في حديثه عن العود الهندي : « وكذلك القماري وهو أطيب أنواع العود . ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع .»
وانظر أيضاً القافلى .

والقماري نسبه الى قمار . وفي تاج العروس : «وقمار كقطام موضع بالهند يجلب منه العود القماري »

وفي معجم البلدان لياقوت الحموي : قمار موضع بالهند ينسب اليه العود . هكذا تقوله العامة والذي ذكره أهل المعرفة : قامرون موضع ببلاد الهند منه العود النهاية في الجودة .

وزعموا انه يختم عليه بالختم فيؤثر فيه . . .قال ابن هرمة :

أحب الليل ان خيال سلمى   اذا نمنا ألم بنا قرارا
كأن الركب اذ طرقتك باتوا   بمندل أو بقارعتي قمارا

• • •

قمر الدين :

قال ابن بطوطة (٢ : ٤١) في حديثه عن أصفهان « وبها الفواكه الكثيرة ومنها

المشمش الذي لانظير له ويسمونه بقمر الدين وهم ييبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو . »

وقال (٢ : ٢٥٩)في حديثه عن مدينة أنطالية « وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين ، وفي نواته لوز حلو ، وهو ييبس ويحمل الى ديار مصر وهو بها مستطرف . »

ويطلق قمر الدين على صحائف رقيقـــة تتخذ من المشمش تيبس . تؤكل أو تنقع في الماء ويتخذ من منقوعها شراب لذيذ ويتخذ هذا الشراب كثيراً في شهر رمضان في الفطور وفي السحور .

* * *

القمز :

قال ابن بطوطة (٢ : ٣٧٨) في حديثه عن نساء امراء الترك : « وجاءوا بروايا القمز فصبت (الخاتون زوجة الأمير التركي) منه في قدح وجاست على ركبتيها قدام الأمير وناولته القدح فشرب . »

وقال : (٢ : ٣٩٢) في حديثه عن الخاتون الكبرى زوجة ملك الترك : « ثم أمرت أن يؤتى بالقمز ، فأتي به في أقداح خشب لطاف خفاف ، فأخذت القدح بيدها وناولتني إياه ، وتلك نهاية الكرامة عندهم . ولم أكن شربت القمز قبلها ، ولكن لم يمكنني إلا قبوله ، وذقته ولا خير فيه ودفعته لأحد أصحابي . »

وقد كرر ذكره في ص ٢٩٣ و ٢٩٥ من الجزء الثاني ولم يشرحه ابن بطوطة . ويظهر أنه شراب يتخذ من لبن الخيل يشرب قبل الطعام وبعده .

* * *

القنبر :

ذكره ابن بطوطة في حديثه عن أهل جزر ذيب المهل قال (٤ : ١٢١) : « القنبر بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء ، وهو ليف جوز النارجيل ، وهم يدبغونه في حفر ثم يضربونه بالموازب ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب . وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن . »

وفيما استدركه الزبيدي في تاج العروس على صاحب القاموس (ماده قنبر) : « والقنبار كقنطار الحبل من ليف جوز الهند. والى فتله والحزز به نسب الامام ابو شعيب موسى بن عبد العزيز العدني . ذكره أبو أحمد الحاكم . واستدرك ابن الاثير هذه النسبة على السمعاني » .

* * *

قنطار :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٥١) في حديثه عن أمر السلطان أبي عنان سلطان المغرب بفداء مدينة طرابلس أفريقية حين استولى عليه الفرنجه : « ففديت بخمسين الف دينار من الذهب العين . . . وقال : الحمد لله استرجعها بهذا النزر اليسير . ولم يخطر في الأذهان أن أحداً تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزراً يسيراً . »

فيكون القنطار من الذهب أيام ابن بطوطة وزن عشرة آلاف دينار .

وفي تاج العروس : « والقنطار معيار قيل وزن أربعين أوقية من ذهب أو الف ومئتا دينار وفي اللسان ومائة دينار . وقيل مائة وعشرون رطلاً أو الف ومائتا أوقية عن أبي عبيد . أو سبعون الف دينار ، وهو بلغة بربر الف مثقال من ذهب أو فضة وقيل ثمانون الف درهم قاله ابن عباس . وقيل هي جملة كبيرة مجهولة من المال . أو

مائة رطل من ذهب أو فضة قاله السري . او الف دينار ، او ملء مسك ثور ذهباً أو فضة بالسريانية ، نقله السدي ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : القنطار اثنتا عشرة الف أوقية . وروي عن ابن عباس : القنطار مائة مثقال المثقال عشرون قيراطاً . وقال ثعلب اختلف الناس في القنطار ماهو ؟ فقالت طائفة مائة أوقية من ذهب ، وقيل من الفضة . وقيل الف أوقية من الذهب وقيل من الفضة ويقال : أربعة آلاف دينار ، ويقال درهم . وقال : والمعول عليه عند العرب الأكثر أنه أربعة آلاف دينار .

والكلمة معربة ففي حواشي برهان قاطع أنها من اللاتينية كنتاله وقيل من اليونانية كنتاريوم .

* * *

القول :

قال ابن بطوطة(٢ : ٣٧١)في حديثه عن الأوزبك : «ثم أخذوا يغنّون بالعربي ويسمونه القول ، ثم بالفارسي والتركي ويسمونه الملمع .»

والشعر الملمع في الفارسية هو المخلوط بالكلام العربي .

* * *

حرف الكاف وما يليها

الكتوال :

قال ابن بطوطة (٤ : ٢٩٧) فيحديثه عن قصرسطانالصين والخطا الملقب بالقان: « وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه ، واكثر عمارته بالخشب المنقوش ، وله ترتيب عجيب ، وعليه سبعة أبواب ، بالباب الأول منها يجلس به الكتوال ، وهو أمير البوابين . »

* * *

الكديش وجمعه اكاديش :

ذكرها ابن بطوطة(٢ : ٣٧١) فيحديثه عن خيل الترك في مدينة آزاق : « وهذه الخيل التي تعرف بمصر بالأكاديش ومنها معاشهم ، وهي ببلادهم كالغنم ببلادنا بل أكثر فيكون للتركي منهم آلاف منها . »

والكلمة لاتزال مستعملة الآن وتطلق في العراق على الفرس غير الأصيل، ويستعمل الكديش للحمل وصاحبه كدّاش .

* * *

الكذرو :

ذكرها ابن بطوطة(٣ : ١٣٠) في حديثه عن حبوب أهل الهند قال : « ومن هذه الحبوب الحريفية عندهم : الكذرو بضم الكاف وسكون الذال وضم الراء وبعدها واو ، وهو نوع من الدخن . وهذا الكذرو هو اكثر الحبوب عندهم . »

* * *

الكراني – كاتب المركب :

ذكره ابن بطوطة(٢ : ١٩٨) في حديثه عن أهل ظفار قال : « ومن عادتهم أنه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا في صنبوق الى المركب ، ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وللكراني وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب أمامهم الأطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير . »

* * *

الكردولي :

ذكره ابن بطوطة (٤ : ١١١) في حديثه عن جزائر ذيب المهل فقال : «وجزائر ذيب المهل منقسمة الى أقاليم ، على كل إقليم وال يسمونه : الكردولي . »

* * *

الكرنية :

قال ابن بطوطة (٤ : ١١٩) في حديثه عن أهل جزر المالديف : «ومن عوائدهم اذا قدم عليهم مركب أن تخرج اليه الكنادر وهي القوارب الصغار وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول والكرنية وهي جوز النارجيل الأخضر ، فيعطي الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله . »

* * *

الكرور :

قال ابن بطوطة (٤ : ٤٩) في حديثه عن دولة أباد : «واخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها بسبعة عشر كروراً ، والكرور مائة لك ، واللك مائة ألف دينار ، ولكنه لم يف بذلك . »

وفي آنندراج : كرور عدد يساوي ٥٠٠٠٠٠ = ٥ لك في إيران . والكرور الهندي يساوي عشرين كروراً ايرانياً أي مائة لك .

* * *

الكسكسو :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٩٤) في حديثه عن السودان «جاء نساء السودان بأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة.»

والكسكسو طعام معروف في الشمال الافريقي من طرابلس الغرب الى الغرب . لا يزالون يتخذونه ويسمونه الكسكس أو الكسكسي .

* * *

كسيرا :

قال ابن بطوطة في حديثه عن فواكه الهند (٣ : ١٢٩) «ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا بفتح الكاف وكسر السين يحفرون عليها الارض ، وهي شديدة الحلاوة، تشبه القسطل .

* * *

الكشري :

قال ابن بطوطة في حديثه عن حبوب الهند (٣ : ١٣١) : «ومنها المنج . . . وهو نوع من الماش الا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة ، ويطبخون المنج مع الارز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشري بالكاف والشين لمعجمة والراء وعايه يفطرون في كل يوم . وهو عندهم كالحريرة في بلاد المغرب . »

وهو معروف بمصر بهذا الاسم وفي العراق كجري بالجيم المثلثة الفارسية ويصنعونه من العدس والارز عادة أو الماش والارز ولكن الناس لايفطرون عليه .

ويقول آنندراج ان كجري الفارسية مأخوذة من الهندية كهجري . فكأن كشري اصلها كهجري .

* * *

الكشكول :

ذكر ابن بطوطة(٢ : ٢)جمعها كشاكل قال في حديثه عن الغدار في العراق : « وهي غابة قصب في وسط الماء يسكنها أعراب يعرفون بالمعادي وهم قطاع الطريق خرجوا على جماعة من الفقراء «تأخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل .»

والكشاكل جمع كشكول. وعرّف المترجمون للرحلة ان الكشكول هو الكوب يتخذه للشرب وتابعهم على ذلك دوزي وقال كشكل في المفرد وهو كوب يتخذه الفقراء

والدراويش للشرب .

والكلمة فارسية مؤلفة من جزئين : الاول من المصـــدر كشيدن بمعني الجر والســـحب والثاني كول بمعنى الكتف فالمجموع يعنى ما يحمل على الكتف من الاكياس التي يحمل فيها الفقراء متاعهم .

ويرى ادي شير احتمال أن الكلمة آرامية وليس بصحيح ، والكشكول المعروف الآن إناء يتخذه الفقراء والدراويش منهم خاصة في الاستجداء ويوضع فيه الطعام بعضه فوق بعض مهما اختافت انواعه . وهو على اشكال مختلفة منها المدور ومنها مايكون على شكل الكلية وقد ثبت في حافته العليا ثلاث سلاسل رفيعة تلتقي في اعلاها يحمله منها صاحبه . ويضرب به المثل فيقال : مثل الكشكول للشيء يجمع اشياء مختلفة .

* * *

كفتار :

قال ابن بطوطة في حديثه عن السحرة الجوكية في الهند (٤ : ٣٦) «ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتاً من نظرته . وتقول العامة إنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد بدون قلب ويقولون أكل قلبه . وأكثر مايكون هذا في النساء . والمرأة التي تفعل هذا تسمى كفتار . »

ويقول آنندراج ان الكلمة فارسية وتطلق على حيوان صحراوي صار يسمى بالهندية داين . وان الساحرة تسمى بهذا الاسم لانها تستخدمه في سحرها .

* * *

ككم :

قال ابن بطوطة (٤ : ٩١) في حديثه عن مراكب الصين : « ومراكب الصين ثلاثة أصناف : الكبار منها تسمى الجنوك واحدها جنك...والمتوسطة الزد . . . والصغار

يسمى أحدها الككم بكافين مفتوحين .» واسم الككم بالصينية هاوهنج .

* * *

الكلا :

قال ابن بطوطة في حديثه عن ثياب الترك (٢ : ٣٧٩) «ولا يكون عليه – الرجل التركي – الا فروة من جلد الغنم ، وفي رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلا». وقال (٢ : ٣٨٨) : «وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلا وهو شبه الأقروف وفي اعلاه دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها . »

وهو في الفارسية كلاه ومنها في عاميتنا كلاو .

* * *

كلكي :

قال ابن بطوطة (٤ : ١٣٣) في حديثه عن أهل جزائر ذيب المهل (المالديف) : « وهم يسمون الوزير الاكبر النائب عن السلطان كلكي بفتح الكاف الأولى واللام »

* * * *

الكمخا ، والكمخاء :

قال ابن بطوطة (٣ : ٨١) : «ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها وتحمل الى الهند . وقال : وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان (محمد ملك الهند) . . .وخمسمائة ثوب من الكمخا منها مائة من التي تصنع بمدينة الزيتون (نسه – نونج الحالية) ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا (هغ – تشو – فو) .

وهي نوع من القطيفة وهي في الفارسية كمخا بهذا المعنى (انظر آنندارج) .

* * *

كمر :

قال ابن بطوطة (٢ : ٢٣٢) في حديثه عن مدينة جرون بفتح الجيم والراء وآخرها نون وهي قاعدة جزيرة هرمز الجديدة : « ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الأقصراني وأصله من بلاد الروم فأضافني وزارني والبسني ثوباً وأعطاني كمر الصحبة . وهو يحتبي به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند. وأكثر فقراء العجم يتقلدونه .»

والكلمة فارسية ولها اصل في الفهلوية والايستافية (انظر برهان قاطع – حواشي) ومعناها حزام . ولها معان أخرى .

وكمر الصحبة معناها : حزام الصداقة .ولا تزال كلمة كمر مستعملة عند العامة .

* * *

كندرة :

قال ابن بطوطة (٤ : ١١٩) في حديثه عن أهل جزائر ذيب المهل (المالديف) : « ومن عوائدهم إذا قدم عليهم المراكب ان تخرج اليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندرة بضم الكاف والدال .» ووردت في آنندراج (بمعنى طائر مائي).

* * *

الكرشان :

ذكرها ابن بطوطة (٢ : ١٨٥) في حديثه عن طعام سلطان مقديشو : « وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحنة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكرشان وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول .»

وقال في حديثه عن طعام سلطان هنور (٤ : ٦٩–٧٠) «فتقدم قدور الطعام بين

يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة . . .فاذا فرغت الوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فيأكلون بها الأرز فاذا فرغ ذلك كله ، أتوا بالكرشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون طعامهم .»

* * *

كليت دار وكليدار :

قال ابن بطوطة في حديثه عن السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين (٣:١٩٦) : «وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر الجهان وهو أكبر أمرائه . وكليت (كليد) دار وهو صاحب مفاتيح القصور وعادته أن يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم الف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال.»

والكلمة فارسية : كليد دار مركبة من كليد بمعنى مفتاح ودار وأصلها دارنده بمعنى مالك من مصدر التملك داشتن .

* * *

الكليجا :

قال ابن بطوطة (٣:١٠–١١)في حديثه عن أمير خوارزم : « أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج . . . وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك .»

وترد الكلمة بالفارسية بهذه الصور : كلوج ،وكلوج بالجيم الفارسية ، وكاوجة بالجيم الفارسية وكليجة بالجيم الفارسية

وفي الكردية كلوج بالجيم الفارسية (انظر برهان قاطع وحاشيته)

وهي لاتزال معروفة في العراق ويسمونها كليجة بالجيم الفارسية .

* * *

حـرف الـلام

لقشة (بقشة) :

ذكرها ابن بطوطة (٤ : ١٤٢) في حديثه عن وزير جزيرة ذيب المهل قال : «جاء الوزير الي بعد العشاء ومعه غلامان . . . فالقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقاً فيه جوهر وحلى فاعطاني ذلك.»

كذا وردت لقشة باللام وبين قوسين بقشة بالباء . وصوابه بقشة . وهي بالفارسية بقچة فيما يذكر آنندراج ، ويقول دوزي إن الكلمة تركية وهي معروفة بهذا الاسم في بغداد الآن ويطلقونها على قطعة من القماش مربعة ومبطنة توضع فيها الملابس وتلف وتشد من أطرافها الأربعة . وتتخذ من انواع مختلفة من القماش .

والسبنية نسبة الى سبن وفي القاموس سين محركة قرية ببغداد منها الثياب السبنية وهي ارز سود للنساء . وفي التاج : قيل منسوبة الى سبن موضع بناحية الغرب . . . قال الليث : السبنية ضرب من الثياب تتخذ من مشاقة الكتان اغلظ ما يكون . . . وقال أبو بردة ابن أبي موسى الاشعري في تفسير الثياب السبنية هي القسية . ونصه : فلما رأيت السبني عرفت انها القسية . . . والقسية ثياب من كتان مخلوطة بحرير كانت تجلب من القس . وقيل إنه منسوب الى القس وهو الصقيع لنصوع بياضه . وهي من حرير فيها أمثال الأترج . ومنه اخذ الأترج السباني للملاحف المطرزة .

* * *

الليرون :

وهو ضرب من السمك ذكره ابن بطوطة (٤ : ١١٢) في حديثه عن بعض جزائر ذيب المهل قال : «إنما أكل أهلها سمك يشبه الليرون ويسمونه قلب الماس بضم القاف . ولحمه أحمر ولا زفر له . إنما ريحه كريح لحم الأنعام . واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوها يسيراً ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان

فإذا استحكم يبسه أكلوه . ويحمل منها الى الهند والصين . » ووردت الكلمة في بعض المخطوطات ليبرون ويقول دوزي ان كلمة ليرون مغربية وهي بفتح اللام .

* * *

الليـم :

قال ابن بطوطة (٣:١٢٦)في حديثه عن العنبة من فواكه الهند : « فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه لما يصير الليم والليمون ببلادنا . » والليم نوعان حلو وقارص . ويراد بالليم هنا ما نسميه بالنومـي الحامض .

* * *

حرف الميـم

المتجرد :

قال ابن بطوطة في حديثه عن مدينة قوص(١:١٠٧) «وبالمدينة اجتماع الفقراء المتجردين في شهر رمضان من كل السنة .. »

ويراد به الذي انصرف عن الحياة الدنيا وتجرد منها وانقطع الى العبادة.

* * *

المتسبب :

قال ابن بطوطة (٤:٣٧٣) « ولقيت أيضاً الفقية اباالحسن علي بن المحروق بزاويته . . . وهو شيخ المتسببين من الفقراء . »ومترجموالرحلةفهموا من المتسببين أنهم صغار الباعة . والمتجولون منهم . ونرجح انها تطلق على الفقير الذي يحاول كسب عيشه بما يتهيأ له منالرزق .

* * *

محارة :

ذكرها ابن بطوطة(٢:١٤٨) في حديثه عن سفره من بغداد قاصداً الحج قال : « فقصدت أميرها . . . فعين لى شقة محارة » .

وقال (٣:١٩)«ولما أردتالسفرمنخوارزم اكتريتحمالاً واشتريت محارة ، وكان عديلي فيها عفيف الدين التوزري . »

وفي القاموس : المحارة شبه الهودج . ولعلها كانت معروفة فلم يحاول صاحب التاج وصفها واكتفى بقوله : والعامة يشددون . ويجمع بالالف والتاء . وأغلب الظن أن شكلها كان على هيئة المحارة التي هي الصدفة فاطلق عليها هذا الاسم .

* * *

المرتبـة :

قال ابن بطوطة (٢ : ٣٩٣) في حديثه عن نساء ملك الترك : « ودخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ في المصحف الكريم . »

وقال (٢ : ٤٠٦) في حديثه عن سرير السلطان أوزبك : «وفي وسط هذا السرير الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى . وعن يمينه مرتبة جلست بها بنت ايت كجك ومعها الخاتون أردجا ، وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كيك . »

وقال (٣ : ٢٨٨) « وللقاضي مرتبة تحق بها المخاد كمرتبة السلطان . »

ويراد بالمرتبة هنا ما يسميه العرب بالنضيدة وهو ما حشي من المتاع للجلوس عليه جمعه نضائد ، قال الشاعر :

وقربت خدامـها الوسـائدا حتى إذا مـا علوا النضائـدا

* * *

مرطبان :

قال ابن بطوطة (٤ : ٢٥٢) في حديثه عن ملكة كيلكرى : «وأمرت لي بأثواب... وأربعة مرطبانات وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا .»

وكان المرطبان معروفاً في بغداد وهو إناء ضخم مفرطح بعض الشيء يتخذ للطعام . ويصنع من النحاس .

وفي المعاجم الفارسية مرتبان وهو إناء من الخزف تحفظ فيه الأدوية أو المربيات أو الأفاويه أو الحبر .

* * *

المرعز :

قال ابن بطوطة (٢ : ١٤٣) في حديثه عن ماردين : « وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز .»

والمرعز معروف الآن وهو ليس صوفاً وانما هو شعر نوع من الماعز . ويتخذ منه نوع من الطنافس تسمى المرعزية .

* * *

المرهتة :

قال ابن بطوطة (٤ : ٤٨) في حديثه عن الهند : «وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهتة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصاً في الأنوف والحواجب . ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن . »

وقال (٤ : ٥١) : « ومدينة نذبار يسكنها المرهتة وهم أهل الإتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون . وشرفاء المرهتة هم البراهمة . »

* * *

المستخرج :

قال ابن بطوطة (٣ : ٢٩٥) في حديثه عن سلطان الهند « وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل . »

* * *

المسند :

قال ابن بطوطة (٤ : ٢٩٧) في حديثه عن أبواب قصر القان سلطان الصين : «والباب الخامس فيه ديوان الوزارة ، وبه سقائف كثيرة . فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند . »

وقال (٤ : ٢٩٨) في حديثه عن دواوين القان سلطان الصين : « والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الامراء . والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الامراء من اقطاعاتهم . »

* * *

المشنك :

قال ابن بطوطة (٣ : ١٠٣) في حديثه عن أهل سيرستان بالهند : « وطعامهم الذرة والجلبان وهم يسمونه المشنك ، بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن . ومنه يصنعون الخبز . »

وبالفارسية مشنك : نوع من الغلة (انظر آنندراج) .

* * *

مشـهد :

قال ابن بطوطة (١ : ٢١١) : « أقام الصلاة أمام مشهد علي ثم أمام مشهد الحسين.. ثم أمام مشهد أبي بكر ، ثم أمام مشهد عمر ، ثم أمام مشهد عثمان . »

وقال (١ : ٢٢٥) : « وعلى فرسخ منها مشهد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب من فاطمة عليهم السلام وعليه مسجد كريم . »

وقال (١ : ٤١١) : « فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من الحجارة ، وكل من مرّ به رجمه . »

وواضح مما ذكره ان ابن بطوطة يعني بالمشهد القبر مطلقاً . ولا يراد به قبور الشهداء من آل البيت عليهم السلام كما يستعمل الآن في العراق أو المدن التي فيها قبورهم ، فيقال : مشهد علي ومشهد الرضا .

* * *

مشـور :

قال ابن بطوطة (٢ : ٢٣٥) : « ذهبوا الى دار السلطان للعزاء ... فوجد مشور دار السلطان ممتلئاً رجالاً وصبياناً من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد . »

وقال : (٢ : ٤٢٨) : « فدخلوا بي إلى مشور كبير حيطانـــه بالفيسفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد ، وفي وسطه ساقية ماء ، ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يميناً ويساراً .

وقال (٣ : ١٠) : « فدخلنا مشوراً عظيماً أكثر بيوته خشب ، ثم دخلنا مشوراً صغيراً فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون »

وقال (٣ : ٢٧١) : « وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جداً، ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور الثاني الذي يدخل منه الى القصر . وكان السلطان جلال الدين يقعد بها وتلعب الكرة بين يديه في هذا المشور . »

وقال (٣ : ٢٧٨) : «أمر أخاه مبارك خان أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين في قبة مرتفعة هناك مفروشة بالبسط .

وقال (٣ : ٢٨٨) : «وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم كل يوم اثنين وخميس برحبة امام المشور » .

وقال (٣ : ٢٨٩) : « وعين أربعة من كبار الامراء يجلسون في الأبواب الاربعة من المشور لأخذ القصص من المشتكين . »

والمشور لفظة مغربية وهي تعني عندهم :

١ــ المحل الذي يجلس فيه السلطان للتشاور مع أعوانه في شــئون الدولة وتصريف أمورها .

٢ــ البهو الكبير الذي يستقبل به السلطان الناس ، ويقيم فيه المآدب .

٣ــ قسم من القصر منفصل عن باقي البناية حيث ينتظر فيه أعوان السلطان والقواد والجنود الذين يرافقون السلطان عند خروجه من قصره .

* * *

مصريــة :

قال ابن بطوطة (٤ : ٩٣) : « وأهل الصين يجعلون للمركب أربعة ظهور ، ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجار . والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس . وعليها المفتاح يسدها صاحبها ... وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون في الموكب . والبحرية يسكنون فيها أولادهم . »

واللفظة مغربية وهي تطلق عندهم على علية منعزلة إمافي اعلى الدار ويصعد اليها من سلم في الطريق . يسكنها العزاب عادة .

وإما على علية سلمها من دهليز الدار يسكنها الخدم . وتجمع على مصاري .
وأطلقها ابن بطوطة على المخدع في السفينة أو قمرية السفينة .

* * *

المصيّر :

قال ابن بطوطة (٢ : ١٨٥) : «ويجعلون عليه الليمون المصير وعناقيد الفلفل المصير المخلل المملوح . » والمصيّر هو الذي يصير في الملح والخل .

* * *

المطنفس :

قال ابن بطوطة (٤ : ٤٠٦) في حديثه عن ملك مالي : « وأكثر ثيابه جبة حمراء من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس .»

وفي تاج العروس : « قال ابن الاعرابي يقال : طنفس الرجل اذا ساء خلقه بعد حسن ، وكذا اذا لبس الثياب الكثيرة ؛ كطرفس فهو مطنفس ومطرفس .والطنفسة مثلثة الطاء والفاء وبضمهما عن كراع ، ويروى بكسر الطاء وفتح الفاء وبالعكس واحدة الطنافس . وهي النمرقة فوق الرحل . وقيل الطنافس للبسط والثياب ولحصير من سعف عرضه ذراع .»

والكلمة فيما يظهر عربية وعلى ذلك ينص آنندراج ويرى أدى شير انها يونانية وهو يرى ان اليونانيين أخذوها من الفارسية لان الطنافس في الأصل من صنع الايرانيين فيما يقول . وهي بالفارسية مستعملة بمعنى الثياب .

والظاهر ان المطنفس ثوب ذو خمل يشبه خمل الطنفسة . ويقول دوزي انه من صنع أوربا ولا ندري من أين جاء بهذا .

المعرف :

قال ابن بطوطة (٢ : ٢٦٣) في حديثه عن رحلته الى خوارزم شاه : « وسرنا في صحبة الأمير تلكتمور ... وسافر معه ... والمعرف علاء الدين ، وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدي الأمير في مجلسه ، فاذا أتى القاضي يقف لـــه هذا المعرف ويقول بصوت عال : بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام بسم الله . وإذا أتى فقيه معظم أو رجل مشار إليه قال : بسم الله سيدنا فلان الدين بسم الله . فيتهيأ من كان حاضراً لدخول الداخل ، ويقوم اليه ويفسح اه في المجلس .

وقال : (٢ : ٣٤٦) : « فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكِّر فمدح السلطان بشعر تركي ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف . »

* * *

معلوم :

قال ابن بطوطة (٤ : ٢٣) في حديثه عن الصالح الولي محمد العريان الساكن بقرافة مصر : « انه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وإدام وماء وفرق ذلك على المساكين . ورمى بفتيلة السراج ، واصبح على غير معلوم . » والمعلوم هنا : طعام اليوم ومعاشه .

* * *

المفرد :

قال ابن بطوطة (٤ : ٤٧) في حديثه عن قلعة دوله آباد : « ويسكن بها الفردون وهم الزماميون . بأولادهم . »

والزماميون هم المسجلون في ديوان الزمام .

المُلَيّن :

قال ابن بطوطة (١ : ١٨٦) في حديثه عن بعلبك : « وفيها حلواء تصنع من رُبّ العنب ويجعل فيها الفستق واللوز ، ويسمون حلواءه بالملين ويسمونها أيضاً بجلد الفرس»

* * *

الملك :

قال ابن بطوطة (٣ : ٢٠٨) في حديثه عن سلطان الهند : «وبعث معه عسكراً عظيماً فيه كبار الامراء مثل الملك تمور ، ومثل الملك تكين ، ومثل ملك كافور المهردار ، ومثل ملك بيرم .» فكلمة الملك كان يلقب بها كبار الأمراء بالهند .

* * *

الملمع :

قال ابن بطوطة (٢ : ٣٧) في حديثه عن الاوزبك ثم أخذوا بالغناء بالعربي ويسمونه القول ثم بالفارسي والتّركي ويسمونه الملمع . »

انظر في شرحه لفظة « القول » .

* * *

المنسى :

قال ابن بطوطة (٤ : ٣٩٩) في حديثه عن مالي : « وسلطان مالي هو السلطان منسى سليمان . ومنسى بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل ، ومعناه السلطان ، وسليمان اسمه .

* * *

المنـج :

قال ابن بطوطة (٣ : ١٣١) في حديثه عن الحبوب الحريفية في الهند : « ومنها المنج بميم مضموم ونون وجيم . وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي

الخضرة . ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ، ويسمونه كشري وعليه يفطرون في كل يوم .»

وبالفارسية منج الماش الأخضر . (انظر آنندراج) .

* * *

المهوا :

قال ابن بطوطة (١٢٨:٣) في حديثه عن أشجار الهند : « ومنها المهوا بفتح الميم والواو ، وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز إلا أن فيها حمرة وصفرة ، وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة . وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة طعمها كطعم العنب إلا أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعاً .

ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان مطعمها كمطعم التين ، وكنت آكلها عوضاً عن التين إذ لا يوجد ببلاد الهند . وهم يسمون هذه الحبة الانكور بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقوة . وتفسيره بلسانهم : العنب.

* * *

منيرة :

قال ابن بطوطة (١٢:٤) في حديثه عن الخلاص من الأسر : « فقال لي : أتريد أن أسرحك ؟ فقلت نعم . فقال : اذهب فأخذت الجبة التي كانت علي فأعطيته إياها وأعطاني منيرة بالية عنده وأراني الطريق .»

والمنيرة ثوب منسوج على نيرين . وهو في العربية منير . ففي القاموس « ثوب منيّر كمعظم منسوج على نيرين ، فارسيته دوبود .» وعربوا دوبود فقالوا : ديابوذ . وإذا نسج الثوب على نيرين كان أمتن وأبقى .

* * *

موت :

قال ابن بطوطة (٣:١٣١) في حديثه عن حبوب الهند الخريفية : « ومنها الموت بضم الميم وهو مثل الكذرو إلا أن حبوبه أصغر ، وهو من علف الدواب عندهم ، وتسمن الدواب بأكله .» (أنظر : الكذرو) .

* * *

حرف النون

الناخودَة :

قال ابن بطوطة(٤:٥٨) في حديثه عن سلطان قندهار : «وجاء الينا مَن عنده من كبار المسلمين كأولاد خواجه بهره ومنهم الناخودةابراهيم ، لهستةمراكب مختصه له.»

وقال (٤:٥٤) : « والناخودة الياس وكان من كبار أهل هذه المدينة .»

وفي الفارسية ناخدا : صاحب الركب . انظر آنندراج .

وفي القاموس المحيط : النواخذة : ملاك سفن البحر أو وكلاؤهم ، معربةالواحد ناخذاة اشتقوا منها الفعل تنخذ كترأس .»

وفي تاج العروس : هو هكذا بالذال المعجمة والمشهور عند أكثر المعربين اهمال دالها .... والمشهور أن الناخذاة هو المتصرف في السفينة المتولي لأمرها سواء كان يملكها أو كان أجيراً على النظر فيها وتسييرها . ... وتنخّذ فلان كترأس إذا صار ناخذاة أو رئيساً في السفينة .»

* * *

النــخ :

قال ابن بطوطة (٢:٣٠٩) في حديثه عن خضر بك بن السلطان محمد بن آيدين : «ولم يبعث إلى الا ثوباً واحداً من الحرير المذهب يسمونه النخ بفتح النون وخاء معجم.»

وقال (٢ : ٣٨٨) : في حديثه عن نساء خوارزم شاه « وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ.» وقال (٢ : ٤٢٢) في حديثه عن الخاتون زوجة محمد أوزبك: « وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ . ويقال لها أيضاً النسيج مرصعة بالجوهر .»

وقال (٣ : ٨١) في حديثه عن نيسابور : «ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها ، وتحمل منها الى الهند .»

ويسمى الآن بروكار وهي كلمة مأخوذة من الفرنسية وهو نسيج مقصب بخيوط الحرير والذهب . واعله الذي كان يسميه العرب الديباج . وفي تاج العروس : «والنخ بساط طويل طوله أكثر من عرضه وهو فارسي معرب وجمعه نخاخ .

* * *

النسيج :

قال ابن بطوطة (٢ : ٤٢٢) في حديثه عن الخاتون زوجة محمد أوزبك : « وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضاً النسيج مرصعة بالجوهر .»

وقد ذكر لفظه النسيج هذه ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢ : ٣٦٣) (مادة تبريز) فقال : « وتعمل فيها من الثياب العبائي والسقلاطون والخطائي والاطلس والنسيج . » (انظر النخ اعلاه).

* * *

النفير :

قال ابن بطوطة (٢ : ١٢٦) : « وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره . » وقال (٢ : ١٨٨) « ثم ضربت الاطبال والأنفار والابواق والصرنايات . »

ويظهر أن النفير هو البوق الكبير كما يفهم من نص جاء في كتاب الفخري وهو « البوقات الكبار كبوق النفير » .

وللكلمة عربية وليست فارسية كما ظن بعض المستشرقين فقد كان يقال ضرب بوق النفير ثم اسقطت كلمة بوق قيل ضرب النفير .

ولهذا قال الزبيدي فيما استدركه على القاموس (مادة نفر) : « والنفير كأمير البوق وهو من استعمال العامة لان ضربه ينفر الناس ويعجلهم للسفر والرحيل . »

* * *

حرف الهـا

الهاشمي :

قال ابن بطوطة (٣ : ١٢٤) في حديثه عن أهل السند : «ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونها الهاشمي . »

ولقيمات القاضي ويقال لها الآن لقمة القاضي ضرب من الحلوى خفيفة معروفة.

* * *

هزرميخى :

قال ابن بطوطة (٢ : ٤٧) في حديثه عن زاوية الشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد بأصبهان : « وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في جملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي . »

وهي بالفارسية هذارميخ وهزارميخي بمعنى خرقة الدرويش أو جبته والكلمة مركبة من هزار بمعنى ألف وميخ بمعنى مسمار ، لأن مرقعة الدرويش تكون مؤلفة من قطع كثيرة مخيط بعضها ببعض (آنندراج) .

* * *

الهريسة :

قال ابن بطوطة (٢ : ٨٩) في حديثه عن زاوية الكازروني : «ومن عادتهم ان يطعموا

الوارد كائناً من كان الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن ، وتؤكل بالرقاق .»

وهي معروفة الآن كما يصفها ابن بطوطة . وعرفها العرب قديماً وهي عندهم البر يدق ثم يطبخ من غير لحم . قال صاحب التاج: وسميت الهرسة هريسة لأن البر الذي هي منه يدق ثم يطبخ .

* * *

حرف الواو

الولان :

قال ابن بطوطة (٣ : ٩٥) في حديثه عن بلاد الهند : «والبريد ببلاد الهند صنفان: إما بريد الخيل ويسمونه الوُلان (أو لان) بضم الواو ، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال .»

* * *

الوليان :

قال ابن بطوطة في حديثه عن أهل جزاير ذيب المهل (المالديف) : « ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان بكسر الواو وسكون اللام وهي شبه الأحاريم .»

والأحاريم جمع إحرام ويريد به ابن بطوطة ما يضعه المحرم على كتفيه ويغطي به جسده الأعلى وهو محرم بالحج أو بالعمرة .

* * *

حرف اليـاء

اليرليـغ :

قال ابن بطوطة (١ : ٤٢١) في حديثه عن نقيب الأشراف في العراق : « فمات النقيب قوام الدين بن طاووس فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الأشراف ،

وكتبوا بذلك إلى السلطان أبي سعيد فأمضاه . ونفذ له اليرليغ وهو الظهير بذلك .»

واليرليغ كلمة تركية (مغولية) بمعنى الأمر السلطاني أو المنشور (آنندراج) . والظهير كلمة مغربية بهذا المعنى . ومن الألفاظ التي كانت تستعمل بهذا المعنى أيضاً التقليد والرسم والرسوم في المشرق .

سليم النعيمي

* * *

ألوان الملابس العربية
في العهود الإسلامية الأولى

الدكتور
صالح أحمد العلي

(١)

الألوان ظاهرة معقدة يمكن دراستها من عدة جوانب ، منها طبيعتها وخصائصها الفيزيائية ومنها تركيب المواد التي تصنع منها سواء المعدنية أو النباتية أو الكيمياوية كما أنه يمكن دراستها بالعلاقة مع المواد التي تُكَوّن بها كالخطوط والأثاث الخشبية والحديدية ، أو الحيطان والسقوف المبنية بالآجر والجص والفسيفساء ؛ أو لعلاقتها بأذواق الناس ونفسياتهم . وسنقتصر في هذا المقال على دراسة الألوان التي ذكرت المصادر شيوعها في الألبسة العربية في العهود الاسلامية الأولى ، مؤملين أن تقدم المادة المعروضة فيها ما يوضح جانباً من الحضارة لم يحظ باهتمام كبير ، وأن تساعد المستزيدين في دارسة هذه الميادين .

ومن المعلوم أن الدولة الاسلامية توسعت بعد تأسيسها بسرعة هائلة ، فبعد أن بدأت نواتها في أول القرن الأول الهجري ، صارت تشمل في أواخر حياة الرسول

(ص) كل الجزيرة العربية تقريباً ، وفي خلال أقل من ربع قرن من وفاته شملت كل البلاد الواقعة بين نهر جيحون في المشرق وتونس في المغرب ، ثم توسعت في عهد الخلافة الأموية في أواسط آسيا والسند وأرمينية والمغرب والأندلس . وكان يقطن هذه الرقعة الشاسعة شعوب ومجتمعات متعددة ، لها تقاليد ونظم إجتماعية واتجاهات فنية وأذواق متنوعة ، كما كانت فيها قبل الاسلام دول ذات نظم وتقاليد يتصل بعضها بألوان الألبسة السائدة عندهم . ومن الطبيعي أن تلك المجتمعات حدثت فيها تبدلات سياسية ومادية وحضارية بعد الفتح الاسلامي بسبب انقراض ملوكها وانهيار سيادة الطبقة الحاكمة فيها ونشاط الحياة الاقتصادية ، وتزايد مكانة الطبقة المتوسطة من أهل المدن وتكاثر عدد المهاجرين الأعاجم الى الأمصار التي أنشأها العرب ، وما كان لهم من آثار تدريجية في الألبسة والأذواق والألوان زاد أثرها بعد مجيء الدولة العباسية ، التي وان كانت ظلت تساند العرب ، إلا أنها أتاحت حرية اوسع للاعاجم ، وخاصة في المدن . للتعبير عن أذواقهم ومثلهم الحضارية ، بل اقتبست بعض مظاهر حضارتهم في الألبسة والألوان ، والواقع أن بعض العرب الذين نزلوا المدن الاعجمية أخذوا يقلدون الاعاجم في ألبستهم وأذواقهم ، ويقول البلاذرى إن عباد بن زياد غزا قندهار «ورأى قلانس أهلها طوالاً فعمل عليهافسميت العبادية»(١) ويقول الجاحظ «وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لاتفصل بين من نزل أبوه فرغانة وبين اهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً في السبال الصهب والجلود القشرة والأقفاء العظيمة والأكسية الفرغانية ، وكذلك جميع تلك الارباع لاتفصل بين ابناء النازلة وبين ابناء الثابتة» (٢) والراجح ان ماقاله الجاحظ عن ماوراء النهر ينطبق على أنحاء أخرى من الدولة الاسلامية ، كما أن ازدياد هذا الاقتباس هو أحد المبررات التي وصف

١- فتوح البلدان ٤٣٤

٢- مناقب الاتراك . ضمن مجموعة رسائل الجاحظ ١/٦٣-٤

فيها الجاحظ الدولة العباسية بأنها « دولة أعجمية خراسانية ، ودولة بني مروان أموية عربية » (١) .

والواقع أن التطورات التي حدثت في العصر العباسي لم تقتصر على تزايد أثر الأعاجم في مظاهر الحياة المادية ، ومنها الألبسة ألوانها ، بل امتدت الى ميادين اخرى ،منها اكثار الدولة من دور الطراز التي تنسج الألبسة للخليفة والمقربين اليه تبعاً لما تقرره الدولة ، ومنها فرض ازياء رسمية ذات ألوان تقررها الدولة ، ومنها تزايـد الخاصة من الملتفين حول بلاط الخليفة،وكذلك عـدد الموظفين وتمايزهم بالألبسة والألوان ، واهتمام المصادر بأخبارهم . ولاريب في أن كثيراً من هذه التطورات قد بدأت قبل مجيئ العباسيين ، ولكنها توسعت بعد ذلك العهد كما أن مظاهر الحضارة المادية ، بما في ذلك الالبسة وألوانها ، لم تزل كلياً بعد مجيئ العباسيين . ولما كان بحثي محدداً بالألبسة العربية في العهود الاسلامية الأولى ، فإني لم أتوسع في بحث ألوان الالبسة في العصر العباسي واكتفيت ببعض الاشارات إليها ، لإظهار الاستمرارية أو للمقارنة فحسب .

لقد ظهر الرسول (ص) بين العرب ، وبدأ ينشر دعوته فيهم ، فكان منهم الصحابة الأولون الذين استجابوا لدعوة الاسلام وتشبعوا بروحه ، وكوّنوا الدولة الاسلامية ووسعوا رقعتها ، وصاروا المثل الأعلى في حياتهم للمسلمين . وكان العرب هم المسيطرين في الدولة ، وقد استوطن المهاجرون منهم الى الاقاليم المفتوحة في عدد من الأمصار التي أنشأوها ، وكوّنوا فيها الغالبية العظمى من السكان ، وبذلك سادت في هذه الأمصار الأزياء الشائعة بين العرب .

ولا يخفى أن أهل الجزيرة كانوا عند ظهور الاسلام متباينين في أذواقهم وألبستهم ومستوياتهم الحضارية ، وقد أشارت المصادر الى بعض التباين بين لباس

١– البيان والتبيين ٣/٢٠٦

أهل الريف والقرى والمدن ، ولباس الأعراب من البدو ، فقد كان من لباس الأعراب البردة (١) ، والبجاد (٢) ويذكر ابن الحائك الهمداني عن صنعاء « أما أهل بواديهم فأهل شعور من الحمام ، ومنهم منحلة وأصحاب لبس الحمرة ومن بعد منها فأصحاب خضاب من ورس وزعفران » (٣) والراجح ان كلام الهمداني ،وهو من أهل القرن الرابع الهجري ، ينطبق على العهود الاسلامية الأولى فيها ، وأن تمايز أذواق أهل المدن عن أهل البدو لم يقتصر على صنعاء وحدها ، بل كان قائماً في أماكن اخرى .

وذكر ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز « كتب أن لاتلبس أمة خماراً ولا يتشبهن بالحرائر » (٤)وكانت الدولة منذ عهد الرسول (ص) تجبى بعض الضرائب في الألبسة ففي المعاهدة التي عقدها الرسول (ص) مع أهل نجران ، فرض عليهم « الفي حلة من حلل الأواقي ، في كل رجب الف حلة ،وفي كل صفر الف حلة ، كل حلة اوقية من الفضة » (٥) وقد استمر الخلفاء من بعده يجبون من النجرانيين الضريبة بالملابس ،حتى القرن الثالث الهجري ،وان كان مقدار الحلل المجباة تناقص على مر الايام . وقرر الرسول على الذميين من اهل اليمن « على كل حالم وحالمة ذكرا وانثى ، حر أو عبد ديناران او قيمة المعافر أو عرضه ثياباً » (٦) .

١- لسان العرب ٥٣/٤ الاغاني ١٣/٢ (وسنشير الى لسان العرب بكلمة لسان)

٢- لسان ٤٣/٤

٣- الاكليل ٨/١٠

٤- ابن سعد ٢٨١/٥

٥- أنظر هذه المعاهدات والمصادر التي اوردتها في كتاب « الوثائق السياسية لمحمد حميد الله . وثيقة ٩٤ ، ١٠٣ .

٦- المصدر السابق : وثيقة ١٠٩ ، ١١٠ وانظر عن ثياب المعافر ابن حنبل ٢٣٠/٥ ، ٢٤٧ ابو داود زكاة ٥ ، النسائي : زكاة ٨ .

وقد فرض خالد بن الوليد على أهل الانبار أن يقدموا الف عباءة قطوانية » (١) ولا ريب في أن هذه الثياب المجباة كانت توزع على المسلمين مع العطاء ، وقد ذكرت المصادر توزيع الكسى على الناس في الحجاز والشام ، فأما في الحجاز فإن محمد بن سلام الجمحي يروى « جاءت عمر حلل من اليمن فأعطى أصحاب رسول الله (ص) وأبو أيوب الانصاري غائب فرفع لنفسه حلة واخذ لنفسه حلة» (٢)

ويروى البلاذري بسند عن الحسن أنه قال « أدركت عثمان وعلي مانقموا منه وما يأتي على الناس يوم إلا وهم ينالون فيه خيراً ، ويقال أُغدوا على أعطياتكم فيأخذونها ويقال أغدوا على كسوتكم فيأخذونها » (٣) ويقول ابن سعد « وأمر عمر فكتب له عيال اهل العوالي فكان يجري عليهم القوت ، ثم كان عثمان فوسع عليهم في القوت والكسوة » (٤) .

ولم يرد ذكر لتوزيع الدولة الألبسة على أهل الحجاز في العصر الاموي ، أما في العصر العباسي ، فيروي مصعب الزبيري أن عبد الله بن مصعب بن ثابت في عهد خلافة المهدي « جلس للناس يعطيهم الأموال ، يعطي الرجل من قريش ثلاثمائة دينار ويكسوه سبعة أثواب » كما يذكر أن الرشيد كان معجباً بأبي بكر ابن عبدالله بن مصعب «وأخرج لأهل المدينة على يديه نصف عطاء وكسوة وقسماً في سنة ١٨١ هـ ، وأخرج على يديه ثلاثة اعطية وكسوة فاخرة في سنة ١٨٦ هـ ... وأخرج على

١- فتوح البلدان ٢٤٥

٢- تهذيب ابن عساكر ٥/٤٠ .

٣- انساب الاشراف ٥/١٠٠ .

٤- ابن سعد ٣-١/٢١٤

يديه في سنة ١٨٨هـ نصف عطاء وكسوة وقسماً »(١) أما في الشام فيذكر عوانة أن الضحاك بن قيس رئيس القيسية في يوم مرج راهط قتل « وقتل معه من الأشراف ثمانون كلهم كان يأخذ القطيفة ، كان لكل رجل منهم في العطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم »(٢) والراجح أن القطيفة لم يقتصر أخذ ها على أشراف القيسية ، بل كان عاماً على الأشراف من جميع القبائل . ويدل نص البلاذرى على أن توزيع القطيفة كان معمولاً به في أواخر خلافة السفيانيين ، ومن المحتمل أن بداية تطبيقه ترجع الى عهد الخلافة الراشدة ، وأن العمل بها استمر في خلافة المروانيين أيضاً ، ومن الطبيعي أن هذه القطيفة كانت توزع بصورة منتظمة وثابتة ، وهي غير الهدايا من الألبسة التي يتردد في المصادر أنه قدمها الخلفاء الأمويون ، وخاصة المتأخرين منهم ، وكذلك الخلفاء العباسيون .

لابد أن الخلفاء لم يكونوا يشترون المنسوجات التي يعطونها أو يهدونها ، ولعل كثيراً منها كان مما يؤخذ من الضرائب العينية على المنسوجات في بلاد الشام . غير أنه لايمكن الجزم بأنها مما كان يصنع في دور الطراز ، فان الطراز وإن كان مذكوراً في بيت لحسان بن ثابت في صدر الاسلام ، وأن الثياب ذات العلم الذي كان يدل في العصر العباسي على صنعه في الطراز ، مذكورمنذ زمن الرسول (ص) (٣) إلا أن المصادر تنص على ان هشام بن عبد الملك « هو اول من اتخذ الطراز » (٤)

إن توزيع الدولة الملابس والمنسوجات لايعني أنها عملت على ترويج استعمال ألوان معينة فلا يوجد في المصادر دليل عل انها كانت تفرض ألواناً معينة على

١- نسب قريش ٢٤٢ .

٢- انساب الاشراف ١٣٦/٥ الطبري ٤٧٧/٢ .

٣- عن هذه الاحاديث انظر فنسنك : المعجم المفهرس مادة (علم) .

٤- الذخائر والتحف ٢١١ وانظر عن الطراز ونشأته دائرة المعارف الاسلامية مادة (طراز) وكذلك ما كتبه سارجنت في مقاله عن المنسوجات الاسلامية المنشور في مجلة Ars Islamica

المنسوجات التي توزعها أو أنها فرضت زياً رسمياً ذا ألوان مميزة حتى على مستخدميها من الجند والشرطة ورجال البلاط ، إلا ما ذكره القاضي الرشيد «كان هشام وبنو مروان يكسون الناس الخز إلا الأصفر والأحمر ، ويكسونهم ما سوى ذلك من الألوان ، ويدخرون الأحمر والأصفر لأنفسهم » (١) فان فرض الدولة لوناً رسمياً يستعمله المتصلون بها لم يبدأ إلا في العصر العباسي حيث اتخذ السواد شعاراً رسمياً ، كما تميز بعض الجماعات ، كالكتاب والفقهاء والتجار والجند والدهاقين بألبسة خاصة ذات ألوان خاصة .

وفي القرآن الكريم آيات تذكر الزينة وتدعو إليها ، فقال تعالى «يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (الاعراف ٣١–٣٢) وقد ذكرت زينة الحياة الدنيا في عدة آيات (الكهف ٧و ٢٨ و ٤٦ الحديد ٢٠ هود ١٥ القصص ٦٠ الاحزاب ٢٨ كما وردت كلمة الزينة ومشتقاتها في حوالي أربعين آية ، والقيد الوحيد الذي فرضه القرآن الكريم هو في منعه التبرج واظهار الزينة للناس .

ومن الطبيعي أن الزينة تشمل عدة مظاهر من أبرزها أصباغ الألبسة وألوانها وقد ذكر القرآن الكريم اختلاف الألوان في (٧) ايات (الروم ٢٢ والنحل ١٣ و٦٩ فاطر ٢٧و ٢٨ الزمر ٢١ » ، وهي تشير الى اختلاف ألوان البشر والمواشي والزروع والجبال .

وقد ذكر القرآن الكريم خمسة ألوان هي الأحمر والأصفر والأخضر والأسود والأبيض .

فأما الاحمر فلم يذكر الا في آية واحدة في وصف الجبال (فاطر ٢٧) وأما الأصفر فقد ذكر في أربع آيات ، إحداها عن لون بقرة بني اسرائيل (البقرة٦٩)

١– الذخائر والتحف ص ٢١١

والثلاث الأخرى في وصف لون النبات (المرسلات ٣٣ الحديد ٢٠ الروم ٥١) .

أما الأسود فقد ورد في ست آيات ، احداها في وصف لون الجبال (فاطر ٢٧) وأخرى في لون الخيط الذي يميز به الفجر (البقرة ١٨) واثنتان عن وصف وجه من كان يبشر بالأنثى (النحل ٥٨ الزخرف ١٧) واثنتان في وصف وجه الكاذبين على الله (الزمر ٦٠) والكافرين بعد الايمان (آل عمران ١٠٦) .

أما اللون الأخضر فقد ذكر في سبع آيات ، أربع منها في وصف لون النبات والشجر (يسن ٨٠ يوسف ٤٣ ، ٤٦ الحج ٦٣) وثلاث في وصف ثياب الجنة من السندس الأخضر (الانسان ٢١ الكهف ٣١ ومتكئهم من الرفرف (الرحمن ٧٦)

أما اللون الأبيض فقد ذكر في إحدى عشرة آية ، خمس منهن عن لون يد موسى عند ما ناظر السحرة (الأعراف ١٠٨ طه ٢٢ الشعراء ٣٣ القصص ١٢ و ٣٢ وواحدة كناية عن العمى (يوسف ٨٤ وواحدة عن لون الجبال (فاطر ٢٧) وواحدة عن لون الخيط الذي يميز به الفجر (البقرة ١٨٧) . وآية واحدة في وصف وجه من انعم الله عليه بالجنة (آل عمران ١٠٦) وأخرى في وصف الكأس الذي يدار على أهل الجنة (الصافات ٤٦) وأخرى في وصف جواري الجنة (الصافات ٤٩) ومن هذا يتبين أن لون الملبوسات الوحيد الذي أشار اليه القرآن هو الأخضر وأنه ليس في القرآن حض على استعمال لون معين أو تفضيله على غيره .

وتظهر الأحاديث النبوية وتراجم الصحابة والتابعين ، وسنذكر كثيراً منها عند الكلام عن كل لون ، أن الرسول (ص) والمسلمين الأولين استعملوا ألبسة ذات ألوان متعددة ، ولم يقتصروا على لون واحد أو ألوان محددة ، كما لم يرد في الأخبار ذكر تحريم استعمال لون معين ، كما أنهم لم يقيدوا استعمال الالوان إلا في الإحرام وعند الحداد ، أما فيما عدا هاتين الحالتين فقد أطلقت الحرية في اختيار ألوان

الملابس التي صار يتحكم فيها الذوق السائد الذي تتحكم فيه التقاليد الموروثة والمؤثرات الحضارية بالدرجة الاولى . وكان الذوق السائد هو الذي يفرض على الصباغين ألوان الأصباغ ، وليس العكس .

ولا ريب في أن المجتمع الاسلامي تعرض الى تطور بطيء بفضل الإختلاط الكبير مع الأعاجم ، وازدياد القوة الشرائية ، وارتفاع مستوى المعيشة ، وقد أثر هذا في اقتباس العرب بعض الملابس والألوان التي كانت شائعة بين الأعاجم . وكان هذا الاقتباس أسرع وأشمل في المدن والأقاليم البعيدة عن قلب الجزيرة العربية حيث كان عدد العرب بالنسبة للاعاجم قليلاً نسبياً ،كما أشرنا الى ذلك من قبل .

أما في الجزيرة العربية وفي الأمصار فقد كان الاقتباس بطيئاً ومحدداً وظلت الألبسة والألوان القديمة هي المفضلة عند العرب الذين كوّنوا غالبية السكان المطلقة فيها ، وكان أثرهم واضحاً على العدد الكبير من الأعاجم وخاصة الموالي الذين الذين استوطنوا الأمصار العربيةخاصة والذين صاروا يلبسون ألبسة العرب الملونة بالألوان التي يفضلها العرب . والواقع أن عدداً غير قليل من الأفراد الذين سنذكر ألوان ملابسهم هم من الموالي ، أي أنهم ليسوا عرباً بدمهم ، ولكن كانت لغتهم عربية ، ودينهم الاسلام ، ومثلهم العليا في الحياة مستمدة من الرسول (ص) والصحابة . ولم تشر المصادر التي ذكرت الملابس وسمّت لابسيها ، الى تمييز ألبسة الموالي وأذواقهم عن غيرهم من العرب ،علماً بأن بعض المصادر كانت تشيرإلى لباس الاعاجم .

لقد ذكرت من قبل أن الدولة لم تفرض قبل مجيء الخلافة العباسية استعمال لون خاص يميز رجالها أو موظفيها وعمالها ، كما لاتوجد إشارة أو دليل على

تمايز الطبقات أو أهل الحرف ، بما في ذلك الكتاب والفقهاء والتجار والدهاقين بألبسة ذات ألوان معينة ، كما هو الحال في العصر العباسي .

وقد قدمت المصادر عن ملابس الرجال وألوانها معلومات أوفر مما قدمته عن ملابس النساء وألوانها ، غير أن هذه المعلومات تكفي للاستنتاج بعدم وجود تباين كبير بين اذواق النساء والرجال في اختيار الألوان وتفضيلها ، رغم أن كتب الفقه والاوساط الأشد تمسكاً بالشريعة تؤكد على قيود أشد على الرجال ، فتذكر كراهية استعمال الرجال لبعض الألوان والألبسة التي لايرون كراهيتها للنساء .

ولاريب في أن أهل الأمصار العربية ، وهم الذين وصلتنا عنهم أكثر الأخبار لم يكونوا في حالة واحدة من الذوق أو مستوى المعيشة أو الثروة ، فقد كان فيهم الفقراء والزهاد ومحبو البساطة في المظاهر ، كما كان فيهم الأغنياء والمترفون والمعنيون باختيار ملابسهم وألوانها . الا أن المصادر الأدبية التي عليها جل اعتمادي ، اهتمت بذكر العلماء والمصلين بالخليفة وبعض « العلية » ودونت ملابسهم وألوانها ، فمعظم المعلومات التي أذكرها في هذا المقال تتعلق بألوان ملابس « طبقة » معينة ولكن يجدر أن نلاحظ أن هذه الطبقة كانت لها مكانة كبيرة في المجتمع ، وكانت أنموذجاً يقدره الآخرون ويعملون على الاحتذاء به ، فملابسهم وألوانها تمثل « المثل العليا » التي يعمل الكثيرون على تقليدها ونشرها بين الناس فهي منتشرة بين أفراد وأوساط اكثر بكثير من العدد القليل الذي صرحت المصادر بذكر اسمائم ثم أن كتب الفقه تهتم بما ينبغي أن يسود عند سواد الناس وعمومهم . فالألوان التي تشير الى إستعمالها كانت هي السائدة بين الغالبية العظمى من الناس في بيئات الفقهاء الذين ألفوا تلك الكتب على الأقل .

إن المعلومات المذكورة في المصادر التي اعتمدت عليها مستمدة بالدرجة الأولى ممن سكن المدينة ومكة والكوفة والبصرة ودمشق . ويلاحظ أن أهل

هذه الأمصار هم من جزيرة العرب ، وأن الاتصال بينهم كان وثيقاً ، بدليل الوحدة الظاهرة في ألوان ملابسهم ، والراجح أن ماذكر عنهم ينطبق على ألوان البسة من لم تذكرهم المصادر من العرب .

لم يبق من نماذج ألبسة العهود الأسلامية الاولى إلا عدد قليل جداً تحتفظ به بعض المتاحف ، ونظراً لأن ما وصلنا قليل جداً ، فلا يمكن الادعاء بأنه يمثل السائد في تلك العصور ولا يصح الارتكاز عليه وحده لدراسة الألبسة والألوان في العهود الأسلامية الأولى (١) .

ولم أرجع في هذه الدراسة الى المصادر المعاصرة غير العربية كالسريانية أيضاً لأن المطبوع منها لم يشر الى الملابس وألوانها فضلا عن أنها لم تهتم كثيراً بدراسة العرب المسلمين وأحوالهم ، بله ملابسهم وألوانها .

لقد كان اعتمادي الاكبر في هذه الدراسة على المصادر الأدبية وخاصة كتب اللغة والحديث والتراجم والتاريخ ، وأقدم مادوّن من هذه المصادر يرجع الى أواخر القرن الثاني الهجري فما بعد ، غير أن الاهتمام الكبير بتتبع أخبار أهل صدر الاسلام ، والعناية الفائقة في تحري الدقة في نقل أخبارهم يبرر الاعتماد على ما أوردوه من معلومات عن الأزمنة التي سبقتهم ، علماً بان كثيراً مما كان سائداً في العهود الأولى إستمر مستعملاً الى الزمن الذي بدأ فيه التدوين .

ولعل أوسع مادة عن الألوان موجودة في كتب المعاجم التي رتبت معلوماتها باحدى طريقتين : أولهما تبعاً للمواضيع والثانية تبعاً لحروف الالفباء .

وأبرز الكتب التي بحثت عن الألوان متبعة الطريقة الاولى هما كتابا « فقه اللغة » للثعالبي و « المخصص » لابن سيدة .

---

١ — يقول الدكتور زكي محمد حسن « لانكاد نعرف اليوم نماذج تستحق الذكر من منتجات ايران وصناعة النسيج في فجر الاسلام » (الفنون الايرانية ٢١٤ وانظر ايضاً الفنون الاسلامية ٢٤٩ فما بعد)

فأما كتاب الثعالبي فإن فيه فصلين أحدهما عن الألوان (٧٠–٧٧) بحث فيه المفردات المستعملة في لون البياض ،والسوا د والحمرة في الانسا ن والحيوان كما عقد فصلاً آخر عن ألوان الثياب (٢٤١–٢٤٣) ومادته ذات قيمة كبيرة ، وهي يسيرة المتناول ، إلا أنها مقتضبة .

وأما كتاب المخصص فهو كتاب ضخم مرتب حسب المواضيع ، وعرض للمفردات والتعابير المتعلقة بكل موضوع ، وقد كتب فصلاً عن النبات الذي يُصطبغ فيه ويُختضب (٢٠٩/١١–٢١٣) وفيه ذكر لعدة ألوان مستعملة في الملابس ، إعتمد فيها على عدد من اللغويين والنباتيين القدماء .

أما المعاجم المرتبة على الالفباء ، فقد اعتمدت منها على « لسان العرب » لابن منظور نظراً لأنه من أوسع المعاجم وأكثرها توثقاً ،وقد نقل في الموا د التي بحثها أقوال عد د من لغويي القرن الثاني والثالث الهجري ، كما نقل عن ابن سيدة وأورد بعض الأحاديث نقلاً عن النهاية لابن الاثير . ومادته دسمة ، الا أن ترتيبه على المعجم قد يُضَيِّع على المتتبع لبعض الألوان ، وقد كان عليه جل اعتمادي في معرفة آراء اللغويين ومعرفتهم بالألوان .

وقد نظم السيد علي بن العِزّ أرجوزة في الألوان ، نشرها مع شرح واف العلامة محمود شكري الآلوسي في المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق .

وفي كتب الحديث معلومات غير قليلة عن ألبسة الرسول (ص) والصحابة وعن الألوان: وقد عقدت بعض هذه الكتب فصولاً خاصة عن لباس الرسول وألوانه ، وعن ألبسة الاحرام . وقد يسّر المعجم المفصل لألفاظ الحديث النبوي ، الذي تم باشراف فنسنك مراجعة هذه الاحاديث و كان عليه جل اعتمادي في دراسة ما يتعلق بالألوان من احاديث الرسول علماً باني رجعت إلى الكتب الأصلية لتدقيق بعض النصوص ، وخاصة المهمة منها في بحثي .

أما كتب الفقه فهي تسجل الصورة الشرعية المقبولة لسلوك المسلمين في مختلف جوانب الحياة ، وقد تطرقت هذه الكتب الى ألوان الألبسة عند إشارتها إلى المباح أو المكروه أو المحرّم . ولهذه الاشارات أهمية كبيرة لأنها تسجل الألوان الشائعة بين الناس ، وتعبر عن رأي الأوساط المتدينة فيها كما تلمح إلى الشائع من الألوان بين الناس .

وقد تميزت المؤلفات الفقهية الأولى التي وصلتنا ،وخاصة « الموطأ » و « المدونة » لمالك بن انس ، و « الجامع الكبير » و « الحجج » لمحمد بن الحسن الشيباني و « الأم » للشافعي و « الكافي » للكليني بأنها تعبر عن معرفة وعلم وخبرات مؤلفيها فيما كان معروفاً في عصر الرسول والصحابة والتابعين ، وفي عصر مؤلفيها ضمن نطاق الصورة العامة الفقهية . ولهذه الكتب الأولى اهمية خاصة في دراستي نظراً لأنها كتبت في الامصار التي اكثر سكانها من العرب والتي يسود فيها ذوق العرب. اما الكتب الفقهية المتأخرة فلم أتعمق في دراستها لأنها تميل إلى نقل المعلومات التي وردت في الكتب القديمة وقلما تشير الى الأحوال السائدة في العصر الذي دونت فيه .

أما كتب التراجم فأهمها لدراستي هو كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد (ت ٢٣٠هـ) وهو مكون من ثمانية أجزاء ضخمة في تراجم الرسول (ص) والصحابة والتابعين والعلماء ممن عاش في المدينة ومكة والكوفة والبصرة خاصة ، وقد إهتم بتسجيل ملبوسات بعض المترجم لهم ، وخاصة البارزين منهم ، وبألوانها . وقد نقل معلوماته عن رواة معتمدين ، واعتمد عليه المتأخرون دون أن يضيفوا كثيراً على ماذكر في هذا الموضوع . ومعلوماته عن الألبسة وألوانها مذكورة في في تراجم لابسيها ، فهي متفرقة في ثنايا هذا الكتاب الضخم .

ويلاحظ أن ابن سعد من علماء الحديث ، وهو متأثر بالمثل المقبولة في أوساطهم ولعل لهذا أثراً في اختياره المادة التي أوردها في كتابه ، فهو يهتم بالدرجة الاولى بالإشارة إلى ماهو مقبول أو مكروه عند هذه الأوساط ، علماً بأن ذلك يعبر عن المثل المقبولة عند السواد الأعظم من أهل تلك الأمصار ، وعما كان سائداً عندهم . وإن المادة التي جمعها إبن سعد بتأثير هذه النظرة التي ذكرتها ، جعلته لايعنى كثيراً بالألبسة والألوان الشائعة بين بعض رجال الحكم والإدارة او الأغنياء والمترفين وأهل الانس ، أو ألبسة الأعاجم في خارج الأمصار أو ألبسة أهل الذمة .

ويكمل المادة التي أوردها إبن سعد ماجاء من معلومات فيبعض كتب الأدب والتاريخ ومن أبرزها كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصبهاني (ت ٣٥٦هـ) الذي جمع مادة ضخمة عن الشعراء ورجال السياسة والإدارة والمتصلين بالخلفاء والمغنين وذكر ملبوسات بعضهم وألوانها معتمداً على مصادر معتبرة . فمادته تشمل ما كان سائداً في أوساط أهملها إبن سعد ،وبذلك تكون مادته مكملة لما أورده ابن سعد .

وفي كتاب (عيون الاخبار) لإبن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) معلومات قيمة رغم قلتها عن ألوان الألبسة عند « العلية » من رجال الإدارة والبلاط .

ولكتاب « تاريخ الرسل والملوك » لمحمد بن جرير الطبرى (ت ٣١٠) أهمية خاصة فهو أوسع كتاب عن الأحداث السياسية الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري وقد أشار في ثنايا بحثه إلى ملبوسات بعض كبار الرجال ، وخاصة الخلفاء والقواد والولاة، وذكر ألوان ألبستهم .

وفي كتابي (التاريخ) لليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) و (مروج الذهب) للمسعودي (ت ٣٤٦هـ) إشارات قليلة ولكنها قيّمة عن الألبسة وألوانها ، وفي كتاب (البدء والتاريخ) للمطهر المقدسي إشارات الى الألوان التي أتخذتها بعض الفرق شعاراً لها . وبعض هذه الإشارات وردت في كتب الفرق .

أما الدراسات الحديثة فأكثرها اختصت بدراسة الالبسة والمنسوجات ، وفيها بعض الإشارات الى الألوان . ومن أقدمها كتاب « المعجم المفصل بأسماء الملابس العربية الذي نشره رينهارت دوزي سنة ١٨٤٣ وترجمه الدكتور أكرم فاضل الى العربية سنة ١٩٧١ . وقد قدم دوزي كتابه بمقدمة ، ثم أتبعه بذكر وصف عدد كبير جداً من الألبسة التي استعملت في البلاد الاسلامية مرتبة على الحروف الهجائية . وقد إهتم بصورة خاصة في الأقسام الغربية من العالم الاسلامي، واعتمد على عدد كبير من المصادر ، وخاصة كتاب السلوك للمقريزي ، وكتاب ألف ليلة وليلة ، وكذلك كتب الرحالة الغربيين ، غير أنه بالنظر لقدم تأليف الكتاب فان دوزي فاتته معلومات كتب كثيرة طبعت فيما بعد . كما أنه لم يهتم كثيراً بالمعلومات المتعلقة بألوان الملابس ، وهي التي نقصر عليها هنا دراستنا ، ففائدته محدودة لهذا المقال .

وقد نشر الاستاذ ماير كتابه عن الملابس المملوكية سنة ١٩٥٢ وقد ترجمه الى العربية صالح الشيبي سنة ١٩٧٢ . وفي هذا الكتاب مادة غنية منظمة تبعاً للابسيها من الخلفاء والسلاطين وكبار الموظفين والعلماء والعامة . ومع الإشارة إلى مادتها وألوانها ، غير أن بحثه مقتصر على الفترة المملوكية المتأخرة عن الفترة التي ندرسها .

ونشر الاستاذ سارجنت في مجلة Ars Islamica مقالات عنوانها (مواد لدراسة المنسوجات الاسلامية) في العصور الوسطى مصنفة تبعاً للمواقع الجغرافية لأماكن إنتاجها ، وقد أورد في دراسته مادة واسعة مستوعبة، غير أنه خصص فصلاً قصيراً عن الصباغين قدم فيه نصوصاً عن الصباغين اليهود وعما ذكرته بعض كتب الحسبة عن الصباغة . وأكثر مادته عن المنسوجات العباسية أما ألوانها فلم يهتم ببحثها .

ومن المعلوم أن الألوان كثيرة ، وأن اللون الواحد يختلف في مدى خفته و كثافته أو مدى صالته وامتزاجه بالالوان الأخرى ، وهذا يقتضي ملاحظة الألوان الأساسية الخالصة ، والمركبة أي الممتزجة مع الألوان الأخرى ، كما يقتضي أيضاً بيان درجة خفة و كثافة كل لون . وقد وردت في اللغة العربية نصوص تفيد في فهم العرب للألوان .

فقد ذكر الثعالبي في الفصول التي خصصها للألوان في كتابه « فقه اللغة » تفاصيل عن كل من اللون الأبيض والأسود ، ومعلومات عن اللون الأحمر ، وإشارة واحدة فقط الى اللون الأخضر . ولعله كان في ذهنه ، وإن لم يصرح بذلك أن هذه الألوان هي الأساسية وذكر الشيخ علي بن العز الحنفي الشهير بالجارح في ارجوزته عن الألوان أنواع الأسود والأحمر والأخضر والأبيض .

وتطرق الجاحظ في كتاب الحيوان الى الألوان فقال « البياض مياع مفسد لسائر الألوان » وأن « البياض ينصبغ ولا يصبغ ، والسواد يصبغ ولا ينصبغ ، وليس كذلك سائر الالوان لأنها كلها تصبغ وتنصبغ » وقال أيضاً « إن الصفرة متى اشتدت صارت حمرة ، ومتى اشتدت الحمرة صارت سواداً وكذلك الخضرة متى اشتدت صارت سواداً » وذكر ان البعض يرى ان « الألوان كلها إنما هي السواد والبياض » (١) .

وبين العلامة محمود شكري الآلوسي في شرحه لأرجوزة الألوان أن البياض هو أساس الألوان ، ونقل بعض آراء ابقراط وابن سينا في ذلك (٢) .

وذكر مؤلف كتاب « مفرج النفس » أن الالوان « تنقسم الى قسمين بسيط ومركب ، فالبسيط عند بعضهم لونان : الابيض والاسود ، وعند بعضهم

١- الحيوان ٥/٥٧-٥٩ .

٢- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ١-٣/٧٧ .

اربعة ، وهي الابيض والاسود والاحمر والاصفر وما يتركب منها وتولد الاخلاط السوداوية وما يحدث عنها من الفكر الردية والهموم المؤذية والأحزان الملازمة . » وتعمى القلوب . والألوان المفرحة على ماقررنا وهي الأ بيض والأحمر والأخضر والاصفر (١) .

وقد أدرك العرب الاختلافات في اللون الواحد ووضعوا كلمات يعبر كل منها عن نوع خاص من اللون ، وقدم بعض اللغويين شروحاً لتوضيح هذه الكلمات وتبيان الفروق بينها . وهذه الكلمات متفرقة تبعاً لمواضعها في المعاجم . غير أن الثعالبي في كتاب « فقه اللغه » والعز في ارجوزته جمع كثيراً منها مصنفة ، وذكرت بعض كتب الاحجار ، واهمها كتاب الجماهر في معرفة الجواهر « للبيروني » أنواع بعض الألوان .

فأما اللون الأبيض فقد ذكر الثعالبي منه (الأبيض اليقق ، اللهق ، الواضح ، الناصع ، الهجان ، الخالص ، ثم ذكر إسم الأبيض من البشر والحيوان والنبات) وأسمه إذا اختلط بالحمرة أو الصفرة أو الغبرة ، واسم البياض إذا كان في خلفية مخالفة .

وذكر علي بن العز في أرجوزته :

أبيض مـــلاح ليـــاح دمرغ ثم فقاعى صراحى(كذا)

ويقـــق ولهـــق وناصـــع (٢)

وذكر البيروني من الأبيض اليقق (٣) والبلوري (٤) .

اما الأسود فقد فصّل قدامة والثعالبي وعبد الرحمن بن عيسى والنويرى في اختلافها

١- نشره بشر فارس في كتاب « سر الزخرفة الاسلامية » ص ٣٩-٤٠ .
٢- مجلة المجمع العلمي العربي ١-٤/١١٢ .
٣- الجماهر في معرفة الجواهر ٥٠ .
٤- كذلك ص ٧٩ .

في الخيل ، وصرح عبد الرحمن بن عيسى بان ما ذكره مستعمل في ديوان العرض (١) .

وذكر الثعالبي في فصل عنوانه « في ترتيب السواد على القياس والتقريب » أنواع السواد فقال « أسود وأسحم ، ثم جون وفاحم ، ثم حالك وحانك ، ثم حلكوك ومحكوك ، ثم خداري ودجوجي ثم غربيب وغدافي » وأورد فصلاً آخر « في لواحق السواد » وهي « أخطب ، أغبس ، أغبر ، قاتم ، أصدأ ، أحوى ، أكهب أربد ، أغثر ، أدغم ، أطمس ، أورق ، أخصف » (٢) .

وقال العز :

أسود حالك أهـــم لوبي محلنكـــك واحلـــولك ونـــوبي

وغيهب وغيهـــم وفاحـــم وحالك ومـــدلهم قاحـــم

كذاك ديجـــوري أو غرابي كحنك او حلك الغراب (٣)

اما البيروني فذكر مع الأسود ألواناً عدها قريبة منه ، فقد ذكر « قالوا في الأسود انه النفطي والكحلي ، وهما من أنواع الأكهب (٤) وذكر « البنفسجي الضارب الى الكهوبة » و « اللعل بنفسجي وأكهب وأخضر وأصفر » (٥) وذكر « الأكهب أجوده الطاوسي ثم الاسمانجوني ثم النيـــل ثم الآب جون وهو أقرب الى البياض ، ومن أنواعه الكحلي والنفطي وان ضربا الى السواد »(٦) . وقد ذكر ابن منظور ما يوضح اللون الأكهب فقال « الكهبة غبرة مشربة سواداً في

---

١ — انظر عن الاسود وبقية الالوان والتعابير المستعملة لها في الدواوين الثعالبي : فقه اللغة ١٢٢ فما بعد

٢ — فقه اللغة ٧٣–٧٥ .

٣ — مجلة المجمع العلمي العربي ١–٣/٧٨ .

٤ — الجماهر ٧٩ .

٥ — الجماهر ٨٦ .

٦ — الجماهر ٧٥ .

ألوان الابل . . . الجوهري الكهبة لون مثل القهبة ، قال ابو عمرو الكهبة لون ليس بخالص من الحمرة وهو في الحمرة خاصة ، وقال يعقوب الكهبة لون الى الغبرة . . . قال الأزهرى . . . ولعله يستعمل في الوان الثياب . الأزهري قال اين الاعرابي وقيل الكهبة لون الجاموس » (١) .

اما الأخضر فلم يذكر الثعالبي أنواعه ، ولكن العز ذكره فقال .

اخضر مدهـــام كـــذاك ناضـــر وحـــاني(٢)

وذكر البيروني اصناف الالوان الخضراء فقال ان الكركند (خلوقي وزيتي وفستقي واسما نجوني) (٣) وان « الكركهن منه الخلوقي والزيتي وبوقلمون . . . يوجد فيه كل لون من الخلوقية والصفرة والخضرة السماوية (٤) » « ومن اصناف الكركند والكركهن الأصفر والفستقي والزيتي والخلوقي » (٥) وأن « الياقوت الاخضر ان خير أخضره الزيتي ثم الفستقي ثم ينحط لونه بالتدريج حتى يبلغ البياض » (٦) اما الأصفر فذكر البيروني « الأصفر المختار منه هو المشبع بالصفرة المقارب بالتشبه بالجلنار من الأحمر ، وبعد المشمشي ، ثم الأترجي ، ثم التبني (٧) وذكر « الأصفر الفاتح والخلوقي والجلنار » (٨) ويقول ابن منظور ان الخلوق « تغلب عليه الحمرة والصفرة »(٩) .

١- لسان ٢/٢٢٤ .
٢- مجلة المجمع العلمي . ١-٣
٣- الجماهر ٥٢ .
٤- الجماهر ٧٤-٧٦ .
٥- الجماهر ٧٤-٧٦ .
٦- الجماهر ٧٨ .
٧- الجماهر ٧٤ .
٨- الجماهر ٧٥ .
٩- لسان ١١/٢٧٩ .

ويذكر ان العقيق اليماني لونه « الصفرة الذهبية المشرقة . . . ومنه ما يشرب خضرته حمرة ، المشمشي والرطبي والتمري والكبدي (١) .

اما الأحمر فلم يذكر الثعالبي أنواعه ، ولكنه ذكر الأسماء التي تسمى بها بعض المواد الحمراء اللون ، وأسماء بعض الالوان التي تخالطها الحمرة . (٢)

وقال العز :

أحمر قاني بحراني عضب ذريحي وأرجواني
أسلغ سلفة وقرف مانع وباحري نكع وناصع
قالقرف نصاع فقاعي زاهر (٣)

غير ان ابن منظور والبيروني ذكرا تفاصيل عن أنواع الألوان الحمراء ، فقد ذكر ابن منظور « الأرجوان هو الشديد الحمرة ، ولا يقال لغير الحمرة أرجوان ، والبهرمان دونه بشيء من الحمرة ، والمفدم المشبع حمرة ، والمضرج دون المشبع ، ثم المورَّد بعده» (٤) ويقول في موضع آخر« المضرج دون المفدم وبعده المورد » (٥)

وقد قدمت بعض كتب الاحجار معلومات عن أنواع الحمرة ، فيقول الجاحظ « وخير الياقوت البهرماني ثم الأحمر المورد ، ثم الاصفر ، ثم الآسمانجوني (٦)

وذكر البيروني في كلامه عن الياقوت تفاصيل عن اللون الاحمر فقال « ولون الياقوت الأحمر يترتب فيما بين طرفين : أحدهما أقصى الغاية المطلوبة فيه والآخر أقصى الرذالة التي تسقط عندها الرغبة فيه : فأجوده الرماني ثم البهرماني

١- الجماهر ١٧٣
٢- فقه اللغة ١٣٤ .
٣- مجلة المجمع العلمي العربي ١-٣/٨١ .
٤- لسان ١٤/٣٢٧ .
٥- لسان ١٥/١٤٦
٦- التبصر بالتجارة ٩

ثم الأرجواني ثم اللحمي ، ثم الجلناري ، ثم الوردي »(١) ثم يضيف بعدها « وقد قيل في الرماني والبهرماني وأنهما صفتان لموصوف واحد ، إلا أن الأول برسم أهل العراق ، والآخر برسم أهل الجبل وخراسان . وشهد لهذا ترتيب الكندي ألوانه ، فانه جعل البهرماني أعلى درجاته . . . وابتدأ الكندي بالوردي آخذاً من جنبة البياض الى لون الورد ، ووضع الخيري فوقه من الوردية الى ان تبلغ مشابه وردة الخيري ، وفوقه الأحمر الصفري في صبغ العصفر الناصع المشرق التابع للزردج ، ثم البهرمان العصفري الخالص الذي لايشوبه شيء من النشاستج الزردج ، يتفاضل من عند الاحمر الى ان ينتهي الى عند الغاية وهي البهرماني .

وقيل في كتاب مجهول ان خير اليواقيت البهرماني ثم المورد ، وقيل في الأرجواني « انه شديد الحمرة ، فان كان دونه فهو بهرماني والبهرمان هو العصفر ، يقال ثوب مبهرم أي معصفر » (٢) .

ان الانواع التي ذكرنا ماكتبته المصادر الرئيسة عنها تنطبق على مظاهر الطبيعة او الاحجار الكريمة ، ولا ينطبق منها على ألوان الألبسة الا أنواع الألوان الحمراء أما بقية الألوان فقد ذكرت الرئيسة منها ، وقلما يذكر من فروع هذه الالوان في الألبسة غير ألوان الاصباغ التي ولدت من تلك الالوان . ومن المعلوم أن كثيراً من الأصباغ كانت نباتية مألوفة في تلك العهود ثم بطل استعمالها ، الامر الذي يتطلب جهداً لمعرفة تلك الالوان . وقد أوردت في بحثي عن كل لون المعلومات المتوفرة عن مادة الصبغ كالزعفران والعصفر والورس . غير أنني أؤكد أن كثيرا من الألوان لم يذكر منشأ صبغها . ولعل في كتب الكيمياء معلومات أوفى عن

١- الجماهر ٣٣ .
٢- الجماهر ٣٤-٣٥ .

الاصباغ ،وأورد هنا انموذجاً اقتبسته من مختار رسائل جابر بن حيان في الموضوع وارجوان يلفت نظر الباحثين لمعاومات أوسع وأدق في هذا الميدان .

ذكر جابر « قاعدة الأصباغ عندهم النوشادر ، واللون الذي يراد كالصفرة من الزرنيخ والنوشادر . والأخضر من مياه الأوراق الخضر والنوشادر المحلول فيها والابيض من مياه الالوان (البيض والنوشادر) المبيض ، وكذلك ان صبغ بغير هذه مما في طبعه أن يصبغ ذلك اللون كأيصال الزرنيخ في الأصفر من الألوان واستعمال الزعفران وما جرى مجراه ، وكذلك في جميع الألوان » (١) .

ويذكر ابن الفقيه في كلامه عن تفليس بارمينية « وبها من الشب المنسوب إليها وهو شب الحمرة المعروف باليماني ، ومنها يحمل الى اليمن وواسط ، ولا ينصبغ الصوف بواسط إلا به ، وهو أقوى من المصري » (٢) ويذكر ابن البيطار « شب ، ديوسقوريدس في الخامسة ، اصنافها كلها او القليل منها توجد في معادن باعيانها بمصر ، وقد يكون في مواضع أخرى » (٣) .

ويختلف اللون الواحد في مدى تشبعه بالصبغ . وقد أورد اللغويون نصوصاً عما يتعلق بالعصفر والزعفران من ذلك ، فينقل ابن سيدة عن ابي حنيفة الدينوري « ثوب مجسد إذا اكثر فيه الزعفران حتى يجف فيقوم قياماً ، ومنه يقال للدم جاسد » (٤) ويقول ابن منظور « والثوب المجسد هو المشبع عصفراً أو زعفراناً والمجسد الاحمر ، يقال على فلان ثوب مشبع من الصبغ وعليه ثوب مفدم ، فاذا قام قياماً من الصبغ قيل قد اجسد ثوب فلان اجساداً فهو مجسد . . . والجسد

١- مختار رسائل جابر بن حيان ٣٦١ .
٢- مختصر كتاب البلدان ١٨٥
٣- جامع الادوية المفردة ٥٣/٣ .
٤- المخصص ٢١١/١١ .

ما اشبع صبغه من الثياب » (١) ويذكر ابن سيدة « وثوب مفروك بالزعفران وغيره إذا صبغ به صبغاً شديداً » (٢) .

ومن هذا يتبين أن الثوب اذا كثف صبغه يقال له مشبع ،أو مجسد ، او مفروك

والوان الثياب تكون إما بسبب نسجها من مواد أولية ملونة ، أو بسبب صباغها . ومن المعلوم ان بعض مواد النسيج ملونة بطبيعتها ، فالقطن قد يكون أبيض أو وبرياً ،والصوف قد يكون ابيض أو عسلياً او مائلاً الى الحمرة أو السواد ، ومن الطبيعي ان النسيج يتلون بلون المادة التي نسج منها .

أما الثوب المصبوغ ، فقد يتم صبغه بعد نسجه أو بعد خياطته ، أو قد يتم بصبغ الخيوط التي ينسج منها . فأما الصنف الاول فقد أشارت اليه كتب الفقه في معرض الحكم على المشاكل القانونية التي قد تنجم بين اصحاب السلعة والصباغين ، كأن يخطيء الصباغ فيصبغه بغير اللون المطلوب ، أو بتشبع خفيف أو بمواد غير المتفق عليها ، أو في عدم المحافظة على النقاء عند الصبغ أو تخفيفه وقد جاء في المدونة « قلت أرأيت إن اشتريت ثوباً صبغته بعصفر أو بسواد أو بزعفران أو بورس أو بمشق أو بخضرة أو بغير ذلك من الصبغ فزاد الثوب الصبغ خيراً أو نقص ، فأصبت به عيباً دلسه لي البائع »(٣) . . .

وبعض الثياب يصبغ غزلها ، ثم تنسج من الغزل المصبوغ ، وقد أشارت الكتب الى بعض أنواع هذه المنسوجات فيقول الشافعي « وأحب ما يلبس اليّ البياض ، فان جاوزه بعصب اليمن والقطري وما أشبه ، مما يصبغ غزله ولا يصبغ بعد ما ينسج ، فحسن » (٤) وقد ألمح مالك إلى تميز صبغ عصب اليمن ، فقد

١- لسان ٩٢/٤ .
٢- المخصص ٢١١/١١ .
٣- المدونة ١٦٩/١٠ .
٤- الأم ١٧٤/١ .

جاء في المدونة « قلت فهل كان مالك يرى عصب اليمن بمنزلة هذا المصبوغ بالدكنة والحمرة والخضرة والصفرة ، ام يجعل عصب اليمن بمنزلة هذه الثياب المصبغة ، واما غليظ عصب اليمن فان مالكاً وسع فيه ولم يره بمنزلة المصبوغ . (١)

فأما العصب فقد تردد ذكره في مختلف المصادر ، وأشار بعضها إلى صبغه ، فيقول ابن منظور « والعصب ضرب من برود اليمن ، سمى عصباً لان غزله يعصب ، أي يدرج ، ثم يصبغ ويحاك ، وليس من برود الرقم . . .ومنه قيل للسحاب كاللطخ عصب ، وفي الحديث : المعتدة لاتابس الثياب المصبغة إلا ثوب عصب. : العصب برود يمنية يعصب غزلها ، أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشياً لبقاء ماعصب منه أبيض لم يأخذه صبغ وقيل هي برود مخططة ، والعصب الفتل ، والعصّاب الغزّال . فيكون النهي للمعتدة عما صبغ بعد النسيج وفي حديث عمر (رض) أنه أراد ان ينهى عن عصب اليمن ، قال نبئت انه يصبغ بالبول . . . » (٢)

ويطلق العصب على عدة منسوجات اشهرها الحبرة فيذكر مالك « العصب هو الحبر وما أشبهه » (٣) ويروي السمهودى أن عبد الرحمن بن عوف « دفن عليه ثوب حبرة من العصب » (٤) وقد جاء في الحديث « كان أحب الثياب الى رسول الله (ص) يلبسها الحبرة » (٥) .

ويذكر وضاح اليمن ما يدل على أن من العصب ايضاً الثياب الجندية فهو يقول :

١- المدونة ١١٣/٥ .

٢- لسان ٩٢/٢ وانظر عن اباحة صبغ العصب في الاحاديث التي وردت في كتب الصحاح : فنسنك . مادة (عصب) وانظر ماكتبناه في مجلة الابحاث « الانسجة في القرنين الاول والثاني » ص ٥٦٤-٥ (سنة ١٩٦٢) .

٣- المدونة ١٨٨/١ .

٤- وفاء الوفا ٨٩/٢ .

٥- البخاري لباس ١٨ الترمذي لباس ٤٥ ، وانظر مقالنا عن الانسجه ٥٦٢-٣ .

وتلبس من بز العراق منـاصفاً   وابراد عصب من مهلهلة الجند(١)

والعصب من المنسوجات الغالية فيروى عن معاذ أنه قال « شر النساء اذا تحلين بالذهب ولبسن ريط الشام وعصب اليمن ، فاتعبن الغني وكلفن الفقير ما لايجد » (٢) .

والعصب لم يكن يصنع الا في اليمن فيقول الاصمعي « أربعة أشياء قد ملأت الدنيا لاتكون الا باليمن ، الورس والكندر والخطر والعصب » (٣) ويقول المقدسي « اليمن معدن العصائب » (٤) ويتبين مما ذكره ابن منظور .

١ـ أن العصب يصبغ غزله قبل حياكته .

٢ أن طريقة صبغه هي ان يدرج (اي يلف ويشد) .

٣ـ أن كل خيط من خيوط نسيجه يكون مبقعاً ، أي أن بعضه مصبوغ وبعضه أبيض .

٤ـ الثوب المنسوج بالعصب يكون ذا ألوان متعددة ، أي كالموشّى وقد يكون مخططاً .

٥ـ ان اصباغه خاصة ، ويقال انه يدخل فيه البول (النوشادر ؟) .

٦ـ انه يقابل برود الرقم .

ويضاف الى خصائصه مما ذكرته النصوص الاخرى .

٧ـ بعض العصب غليظ وبعضه رقيق .

٨ـ العصب انواع ، منه الحبرة ، والجندية .

١ـ الاغاني ٢٣٦/٦ .

٢ـ عيون الاخبار ١١٤/٤ .

٣ـ كذلك ١٠٩/٢ وانظر جامع الادوية المفردة ٨٣/٤، ١٩١ .

٤ـ أحسن التقاسيم ٩٨ .

٩- الثياب القطرية تصبغ على نفس الطريقة .

١٠- العصب من الثياب الغالية الثمن ومن لباس الارستقراطية .

١١- ان اليمن كانت تحتكر صناعة العصب حتى أواخر القرن الرابع على الأقل . غير أن الكليني يذكر ما يدل على ان صناعتها كانت تقلد في البصرة فهو يروى عن يسند عن الحسن بن راشد أنه سأل جعفر بن الصادق عن ثياب تعمل بالبصرة على عمل العصب اليماني من قزوقطن هل يصلح أن يكفن فيها الموتى : قال إذا كان القطن أكثر من القز فلا بأس » (١) .

لم تذكر المصادر أصباغ وألوان العصب ، غير أن غلاء اثمانه واقتصار صنعه على اليمن قد يدل على أن ألوانه المتعددة تظهر منسجمة ترتاح اليها النفوس الأرستقراطية التي تلبسه ، وهذا يتطلب مهارة فائقة في الحياكة ، ولعل هذه المهارة ، وأسرار الاصباغ المستعملة فيه هي التي مكنت أهل اليمن من احتكار صناعته . وقد وردت في الكتب اشارة الى بعض ثياب اليمن التي تصبغ بالبول (٢)

لقد ذكرنا أن وضاح اليمن ذكر في إحدى قصائده « أبراد عصب من مهلهلة الجند » وقد ورد في بيت لعمر بن ابي ربيعة ما يشير الى طريقة تكوين الجندية حيث يقول .

شف عنها محقق جنـــــدى فهي كالشمس من خــلال السحاب

ويقول الاصبهاني الذي روى هذا البيت « الثوب المحقق هو الوشي على صورة الحقق » (٣) .

١- الكافي ٣/١٤٩ .

٢- انظر البخاري : صلاة ٧ ؛ ابن حنبل ٥/١٤٣ .

٣- الاغاني ١/٢٤٠ وانظر لسان ١١/٣٤ .

ويقول ابن منظور « ثوب محقق عليه وشي على صورة الحقق »، كما يقال برد مرجل وثوب محقق ويقول عن الحقق « حقاق الشجر صغارها شبهت بحقاق الابل . . والحقة هذا المنحوت من الخشب والساج وغير ذلك . . قال رؤبة « سوى مساحيهن تقطيط الحقق » .وصف حوافر حمر الوحش ؛ أي أن الحجارة سوت حوافرها كأنما قطعت تقطيط الحقق » (١) .

ولا ريب في أن كثيراً من المنسوجات والثياب ذات ألوان متعددة بأشكال مختلفة ، وهذه الألوان والأشكال قد تكون في أصل المنسوج بسبب تنوع ألوان خيوط النسيج ، أو تد تكون مطبوعة ومنقوشة عليها بعد انجاز نسجها ، ويسمى هذا النوع الاخير الوشي . وقد تردد ذكر الوشي في المصادر التي ذكر بعضها انواعاً من الوشي كما ذكر بعضها اشكال النقوش ، وكلاهما يرتبط بالنقش وليس بنوع القماش . والواقع ان المادة التي بين ايدينا لاتكفي للتمييز بدقة بينهما . وسنذكرها فيمايلي مؤملين أن تتوفر في المستقبل مادة أوفر نتمكن بها من التحقق من الفرق بينهما

يذكر ابن منظور عن الجوهرى ان الوشي من الثياب معروف وعن ابن سيدة أنه يكون من كل لون ، وأن الوشي في اللون خلط لون بلون (٢) وهذا التعريف بالطبع لايستلزم أن يكون الوشي مرادفاً لما يسمى البرودرى اليوم ، فقد يكون الخلط في أصل الحياكة أو في طبع القماش بصبغ على سمات خاصة .

وقد ميز الشافعي بين الثياب الملونة بالوشي وغيره فقال في باب السلف من الثياب حيث يجب أن تحدد أحوالها بدقة « إن كان وشياً نسبه يوسفياً أو نجرانياً أو فارعاً أو باسمه الذي يعرف به ، وان كان غير وشي من العصب وما أشبه وصفه ثوب حبرة » ويقول أيضاً « هكذا هذا في الثياب يقال هذا من وشي صنعاء والوشي الذي

١- لسان ٢٤٠/١١ .

٢- لسان ٢٧١/١٩ .

يقال له اليوسفي » (١) وقد ذكر الجاحظ أصناف الوشي فقال « وخير الوشي الثوب السابري ؛ ،والكوفي ، والابريسمي ، والمذهب المنسوج ، ثم الوشي الاسكندراني البحت، ثم المنسوج بالذهب ثم الوشي الغزلي، ثم الذي لا ابريسم فيه ولا ذهب وهو اليماني لانه يرتفع على هذا السبيل من الغزلي . والابريسمي الكتان لايبلغ في الثمن ما يبلغه اليماني ، لانه ربما بلغ الثوب الغزلي الف دينار (٢)

ويتبين من كلام الجاحظ ان الوشي عرفت به عدة اماكن منها سابور ، والكوفة ، والاسكندرية . والواقع أن المصادر ذكرت وشي العراق فقد ذكر الاصبهاني « ثياب من وشى وخز العراق » (٣) وقال حميد بن ثور .

تخيرت إمـــا أرجوانياً مهـــذبـــاً وإما سجلاط العراق المختّمـــا

وقد عرّفت بعض الكتب السجلاط بأنها « ثياب موشاة كأن وشيه خاتم » (٤)

غير أن أشهر الاقاليم التي عرفت بالوشي هي اليمن ، فبالاضافة الى اشارات الشافعي والجاحظ التي ذكرناها أعلاه يذكر الاصبهاني عن عمر بن ابي ربيعة «عليه حلة موشية يمانية»(٥) ويذكر أن الفرزدق«طلع في حلة أفواف يمانية موشاة » (٦) .

ويلاحظ أن اليمن هي التي اشتهرت بالوشي وهي التي احتكرت العصب ، فيقول الثعالبي « يقال وشي اليمن وعصب اليمن ، ويضرب بها المثل في الحسن وتشبه بالرياض والالفاظ ، ويقال من نفائس الملابس برود اليمن » (٧) . ولعل

١- الام ١٠٨/٣ .
٢- التبصر بالتجارة ٢١ .
٣- الاغاني ٢٤٤/٩ .
٤- لسان ١٨٤/٩ المعرب للجواليقي ٨٢ .
٥- الاغاني ٩٩/١ .
٦- الاغاني ٣٣٨/٩ وانظر ايضاً ٢٥٩/٨ .
٧- ثمار القلوب ٥٣٤ .

اشتهار اليمن بالوشي والعصب ، واتفاقهما بالنقوش ، كان من أسباب الخلط بين الزخارف الناجمة عن التطريز (البرودري) والزخارف التي من الاصباغ ، هذا بالاضافة الى غلاء ثمن كليهما . وان بعض ما تذكر المصادر الأدبية أنه وشي ، هو في الحقيقة اصباغ منوعة للثوب ، ولذلك اوردته في هذا المقال . ويلاحظ أن ابن البيطار يقول « البرود وهي العصب » (١) ويقول الليث « البرد معروف من برود العصب والوشي » (٢) ويقول ايضاً « الفوف ضرب من عصب البرود » (٣) .

لقد ذكر الوشي في بعض النصوص مجرداً وغير مقترن بأي نسيج فيروي المغني ابن سريج « دعاني فتية من بني مروان ، فدخلت اليهم وأنا في ثياب الحجاز الغلاظ الجافية ، وهم في القوهي والوشي يرفلون كأنهم الدنانير الهرقلية » (٤) .

وتردد في المصادر ذكره مقروناً بالحلل، فذكر الاصبهاني انه كان « على الوليد ابن يزيد حلة وشي » (٥) و « على الفرزدق حلة افواف يمانية موشاة » (٦) وأن عمر بن أبي ربيعة « كان يلبس تلك الحلل من الوشي » (٧) .

وذكرت المصادر أيضاً مقطعات الوشي ، فذكر الاصبهاني أنه كان للنصيب مقطعات وشي (٨) وذكر ابن سعد أنه « كان أبو وائل يلبس مقطعات اليمنه » (٩)

١- جامع الادوية المفردة ٤/٨٣، ١٩١ .
٢- لسان ٤/٥٤ .
٣- لسان ١١/١٨٠ .
٤- الاغاني ١٣/٣١٠ .
٥- الاغاني ٣/٣٠٨ .
٦- الاغاني ٩/٣٨٨ .
٧- الاغاني ١/٨٦ .
٨- الاغاني ١/٣٣٨ .
٩- ابن سعد ٦/٦٨ .

وينقل ابن منظور عن ابي الهيثم ان « القطع ضرب من الثياب الموشاة ، والجمع قطوع . والمقطعات برود عليها وشي مقطع » (١) .

وورد في المصادر البسة متعددة موشاة ، فقد ذكر الاصبهاني انه كانت على الوليد بن يزيد قلنسوة وشي مذهبة (٢) وأنه كان عليه جبه وشي ، ورداء ، وخف وشي (٣) ، وأن النصيب دخل على عبد العزيز بن مروان في جبة وشي (٤) .

ويبدو أن اكثر اشكال التلوين شيوعاً هو المخطط ، وهذا يتجلى في البرود ، فيقول ابن منظور « قال ابن سيده : البرد ثوب فيه خطوط ، وخص بعضهم به الوشي . . . والبردة هي الشملة المخططة قال الليث « البرد معروف من برود العصب والوشي » (٥) .

وقد ذكرت المصادر عدة انواع من البرود المخططة منها الحبير وقد عرفه ابن منظور « الحبير من البرود ماكان موشياً مخططاً » (٦) ومنها الأتحمي وهو « ضرب من البرود . . . ويقال تحمت الثوب إذا وشيته ، وروى عن الفراء : «التحمة البرود المخططة بالصفرة » (٧) وفي ديوان الهذليين « الاتحمى برود يمانية فيها خطوط حمر » (٨) ويذكر ابن منظور « البرود المذهب هو ارفع الأتحمى (٩) والبرود التزيدية « بها خطوط حمر » (١٠) والرقم هو « ضرب من البرود . . . والرقم

١ – لسان ١٠/١٥٦ .
٢ – الاغاني ٧/٩١ .
٣ – الاغاني ٦/٢٨١ .
٤ – الاغاني ١/٩٩ .
٥ – لسان ٤/٥٤ .
٦ – لسان ٥/٢٣٠ .
٧ – لسان ١٤/٣٣٠ .
٨ – ديوان الهذليين ٢/١٤٦ .
٩ – لسان ٢/٣٨٠ ، ١٢/٣٣ .
١٠– لسان ٥/١٨٤ المحيط ١/٢٩٩ وانظر ديوان الهذليين ١/١٠ .

ضرب مخطط من الوشي ، وقيل من الخز ، وفي الحديث أتى فاطمة فوجد على بابها ستر موشى فقال مالنا والدنيا والرقم ، يريد النقش والوشي ، والاصل فيه الكتاب ، ورقم الثوب يرقمه خططه » (١) .

ومن المعلوم أن اليمن اشتهرت بالبرود ، فيذكر الجاحظ ان « من خصائص اليمن السيوف والبرود » (٢) ويذكر الثعالبي برود اليمن (٣) ، كما يذكر « ويقال في نفائس الملابس برود اليمن » (٤) .

غير أن صنع البرود انتشرت فيما بعد في اماكن اخرى ، فيذكر الثعالبي « والرى موصوفة كبرود اليمن ، ويقال لها العدنيات تشبيهاً لها ببرود عدن » (٥)

وقد استعمل العرب منسوجات أخرى مخططة ، ومنها الثياب القطرية التي ذكرنا مما يعصب غزله ويصبغ ثم يحاك .

ومن الالبسة المخططة الفوط وهي « أزر مخططة يشتريها الحمالون والخدم ويتزرون بها بالكوفة » (٦) .

ومن ذلك البرجد الذي يذكر عنه ابن منظور انه « كساء من صوف أحمر وقيل البرجد كساء غليظ ، وقيل البرجد كساء مخطط ضخم يصلح للخباء » (٧)

وقد ذكرت المصادر منسوجات وثياباً فيها نقوش وتصاوير . وقد ذكر الثعالبي عدداً من نقوش الثياب فقال .

---

١ – لسان ١٥/١٤٥ .
٢ – التبصر بالتجارة ٢٢ وانظر لطائف المعارف ١٦٦ .
٣ – لطائف المعارف ٢٣ .
٤ – ثمار القلوب ٥٣٤ .
٥ – ثمار القلوب ٥٣٤ .
٦ – لسان ٩/٢٤٨ .
٧ – لسان ٤/٥٦ .

« اذا كان (الثوب) في وشيه ترابيع صغار تشبه عيون الوحش فهو معين ، فاذا كان مخططاً فهو معضّد ومشطب .

فاذا كان فيه طرائق فهو مُسَيَّر .

فاذا كانت خطوطه كالسهام فهو مُسَهَّم .

فاذا كانت تشبه العمد فهو مُعَمَّد .

فاذا كانت فيه نقوش وصور كالأهلة فهو مهلّل .

فاذا كان موشى بأشكال الكعاب فهو مكعّب .

فاذا كان فيه كالفلوس فهو مفلّس .

فاذا كان فيه صور الطيور فهو مُطَيَّر .

فاذا كان فيه صور الخيل فهو مخيل (١) .

وقد نقل ابن منظور ماذكره الثعالبي عن المفلس (٢) والمعين (٣) وقال عن المطير انه ضرب من البرود (٤) ، وذكر تفاصيل أوفي عن نقوش بعض الثياب المذكورة أعلاه .

فأما عن المعضد فقال «ثوب معضد مخطط على اشكال العضد وقال اللحياني هو الذي وشيه في جوانبه ، والمعضد الثوب الذي له علم في موضع العضد من لابسه » (٥) .

وقال عن المشطب « شطبه السعف الاخضر الرطب من جريد النخل ، وفي حديث زرع مسبل شطب ، قال ابو عبيد : الشطبة ماشطب من جريد النخل

١- فقه اللغة ٢٤١ .

٢- لسان ٤٧/٨ .

٣- لسان ١٧٧/١٧ .

٤- لسان ١٨٦/٦

٥- لسان ١٨٤/٤

وهو سعفه،شبهته بتلك الشطبة لنعمته واعتدال شبابه ، وقيل أرادت أنه مهزول كأنه سعفة في دقتها . . وقال ابو سعيد : الشطبة السيف . . . وثوب مشطب فيه طرائق » (١) ويقول عن الطرائق انه « أخدود من الأرض أو ستقة ثوب أو موشى ملزق بعضه ببعض فهو طريقة . . . طرائق نسيجة تنسج من صوف أو شعر عرضها عظم الذراع وأقل،وطولها أربع أذرع أو ثمان أذرع على قدر رؤوس العمد » (٢) .

ويقول ابن منظور عن المسير « ثوب مسير وشيه مثل السيور ، وفي التهذيب اذا كان مخططاً ، وسَيّر الثوب والسهم جعل فيه خطوطاً ، وعقاب مُسَيّرة مخططة .

والسيراء ضرب من البرود ، وقيل هو ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور وقيل برود يخالطها حرير . . وقيل هي ثياب من ثياب اليمن . . .الجوهري : « السيراء . برد فيه خطوط صفر . . قال ابن الاثير هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور . . .حلة مسيرة أي فيها خطوط من إبريسم كالسيور » ويتبين من هذا الكلام أن الثوب المسير هو من البرود اليمانية ، وأن فيه خيوطاً من القز والابريسم صفراء كالسيور . (٣) .

اما المفوف فذكر عنه ابن منظور مايلي : الجوهرى : الفوف الحبة البيضاء في باطن النواة التي تنبت منها النخلة . . والفوف القشرة التي على حبة القلب أو النواة دون لحمة التمرة وكل قشرة فوف .

١- لسان ٢٧٨/١
٢- لسان ٩١/١٢
٣- لسان ٥٧/٦

التهذيب : ابن الاعرابي : الفوفة القشرة الرقيقة تكون على النواة . . . والفوف ضرب من برود اليمن .

وفي حديث عثمان خرج وعليه حلة أفواف ، الأفواف جمع فوف ، وهو القطن وواحدة الفوف فوفة ، وهي في الاصل القشرة التي على النواة ، يقال برد أفواف وحلة أفواف بالأضافة .الليث : الأفواف ضرب من عصب البرود .

ابن الأعرابي : الفوف ثياب رقاق من ثياب اليمن موشاة ، وهو الفوف وبرد مفوف أي رقيق : الجوهري : الفوف قطع القطن . . . وبرد أفواف ومفوف بياض وخطوط بيض . . . وقول ابن احمر «والفوف تنسجه الدبور واثلال ملمقة» الثرى سقر الفوف الزهر ، شبهه بالفوف من الثياب (١) .

ويتبين من كلام ابن منظور أن الأفواف هي من البرود ، أو من العصب ، تنسج من القطن وهي بيضاء ، وفيها خطوط .

أما عن المسهم فذكر ابن منظور .«المسهم البرد المخطط . قال ابن بري : ومنه قول أوس :

فانا رأينا العرض أحوج ساعــة   الى الصون من ريط يمان مسهم

وفي حديث جابر أنه (ص) كان يصلي في برد مسهم ، أى مخطط فيه وشي كالسهم . وبرد مسهم مخطط على شكل السهام . وقال اللحياني انما ذلك لوشي فيه . قال ذو الرمة يصف داراً :

كأنها بعد احوال مضين لهــا   بالاشمين يمان فيه تَسَهّم (٢)

ويظهر من هذا الكلام أن المسهم برد مخطط بخطوط مقطعة كالسهام .

١- لسان ١١/١٨٠-١٨١ .

٢- لسان ١٥/٢٠٠ .

ويذكر ابن منظور عن المكعب « . . . ثوب مكعب مطوي شديد الأدراج في تربيع ، ومنهم من لم يقيده بالتربيع ، يقال كعبت الثوب تكعيباً .

وقال اللحياني برد معب فيه وشي مربع ، والمكعب الموشى ، ومنهم في خصص فقال من الثياب » (١) .

وقد ذكرت المصادر ثياباً فيها تصاوير ، فروى مالك ابن انس ان أبا طلحة الأنصاري نزع غطاء من تحت سهل بن حنيف لأن فيه تصاوير ، وكان الرسول نهى عن استعمال مافيه تصاوير ، فاعترض سهل وقال «ألم يقل رسول الله (ص) إلا ماكان رقماً في ثوب ، قال بلى ولكنه أطيب لنفسي » (٢) ويذكر ابن سعد أن عروة كان يلبس الطليسان المزرر بالديباج فيه وجوه الرجال وهو محرم لايزرره عليه (٣) .

كما ان السجلاط هي « ثياب كتان موشية كأن وشيه الخاتم (٤) » والقسية هي ثياب » مضلعة فيها حرير امثال الاترج» (٥) . ويقول ابن منظور « ثياب مضلعة مخططة على شكل الضلع (٦) .

قال اللحياني هو الموشى ، وقيل المضلع من الثياب المسيّر، وقيل هو المختلف النسيج الرقيق وقال ابن شميل: المضلع الثوب الذي قد نسج بعضه وترك بعضه وقيل برد مضلع اذا كانت خطوطه عريضة كالأضلاع ، وتضليع الثوب جعل وشيه على هيئة الاضلاع . . . وفي الحديث أنه أهدي له (ص) ثوب سيراء مضلع بقزّ ، والمضلع الذي فيه سيور وخطوط من ابريسم او غيره شبه الاضلاع .

١- لسان ١١٣/٢ .

٢- الموطأ ٢٤١/٢

٣- ابن سعد ١٣٤/٥ .

٤- لسان ١٨٣/٩، ٦٤/١٧ المعرب ٨٢ .

٥- ابن حنبل ١٣٤/١ .

٦- لسان ٦٤/١٧ .

وفي حديث على«وقيل له ما القسية ، قال ثياب مضلعة فيها حرير ، أى بها خطوط عريضة كالاضلاع » (١) .

ان المعلومات التي ذكرناها آنفاً تظهر ان كثيراً من المنسوجات والثياب، وخاصة البرود كانت منقوشة باشكال متعددة ، ولكن يغلب عليها ان تكون مخططة بدليل كثرة البرود التي وصفت بانها مخططة ، اما الاشكال الاخرى من النقوش فكانت متعددة ولكنها قليلة ، ولم توضح المصادر بدقة الزخارف المطرزة او التي كانت في اصل الحياكة . ويبدو لي ان اغلب النقوش والخطوط هي في اصل الحياكة .

ثم ان المصادر لم تذكر نوعية الخطوط في الاقمشة ، اي فيما اذا كانت عريضة ام دقيقة افقية ام عمودية ، او شاملة لكل الثوب ام مقصورة على جزء منه ، كما انها قلما تذكر الوان الخطوط او خلفيتها . ويلاحظ ان البرود كانت من البسة الترف الغالية ، والراجح انها لم تكن شائعة بين الفقراء .

اما الصباغون فلم اجد في خطط المدينة ومكة والبصرة والكوفة سوقاً لهم او مكاناً خاصاً بهم فيها ، ولم اجد الا ماذكره البلاذرى من أن سليمان بن عبد الملك احدث الرملة ومصرها « وكان اول مابنى فيها قصره والدار التي تعرف بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً فيها » (٢) .

ويقول الجاحظ « ولا تجد اليهودي الا صباغاً او دباغاً او حجاماً او شعاباً فلما رات العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت ان دين اليهود في الديانات

١- لسان ١٠/٩٧ .

٢- فتوح البلدان ١٤٢

كصناعتهم في الصناعات » (١) ويفهم من هذا النص ان حرفة الصباغةلم تكن محترمة ، وان اليهود كانوا يكثرون من احترافها . وكلام الجاحظ هذا ينطبق على عصره وفي العراق خاصة ، غير انه توجد اشارات في بعض الكتب تدل على ان اليهود كانوا يشتغلون بالصباغة في ازمنة وامكنة اخرى ، فالجاحظ يقول « وزعم ان القرمز حشيشة تكون في اصلها دودة حمراء تنبت في ثلاثة مواضع في ناحية المغرب بارض الاندلس ، وفي رستاق يقال له تارم ، وفي أرض فارس ولا يعرف هذه الحشيشة وأماكنها الا فرقة من اليهود يتولون قلعها كل سنة في ماه اسفنداروز » (٢) .

ويذكر ابن العبرى انه لم يرتفع في العالم الاسلامي يهودي الى اكثر من ان يكون دباغاً او صباغاً . ولعل سيطرة اليهود في الصباغة ترجع الى عهود قديمة وأماكن أعم ، وان من بعض عواملها تنظيماتهم التي تمكنهم من السيطرة على الاصباغ من منابعها المنتجة (٣) .

* * *

صالح احمد العلي

١- الرد على النصارى ضمن ثلاث رسائل للجاحظ ١٧ .

٢- التبصر بالتجارة ١٩ .

٣- تاريخ ابن العبري ١/٤٩ المترجم عن السريانية .

مقدمة

في أدب العراق القديم (*)

الأستاذ طه باقر

حوار أدبي قبل أربعة آلاف عام :

elima ina eli Tillàni labirüti italalk
amur gulgullete arbüti û pànüti
ayyü bél limutti - ma ayyü bèl usàti

(اعلُ فوق الاطلال القديمة وتمشَّ عليها وانظر الى جماجم المتأخرين والماضين ، فأيهم الاشرار وأيهم الصالحون ؟)

* * *

هذه الابيات التي اوردنا نصها بلفظها في اللغة البابلية بالحروف اللاتينية وترجمتها العربية جزء من قصيدة وضعت على هيئة حوار (dialogue) تهكمي فلسفي بين سيد وعبده عاشا قبل « هوميروس » وغيره من شعراء العالم القديم المشهورين بعشرات القرون في احدى تلك المدن القديمة التي شيدت في سهول وادي الرافدين وازدهرت في آدابها وفنونها ومعارفها قبل أن تظهر الى الوجود أثينة وروما بقرون كثيرة . ومع أن تلك المدن القديمة لم يبق منها الآن سوى رسومها الممثلة بهذه الالوف الكثيرة من الاطلال الدارسة المنتشرة في ربوع العراق ، بيد أنها تحدت فناء الزمن وتسامت على قول الشاعر الامريكي

(*) من بحث يعده المؤلف للنشر

« لونكك فيلو » (Longfellow) لانها تركت وراءها اكثر من « آثار اقدام لها على رمال الزمن » . اجل إنها خلفت من بعدها تراث « الكلمة المدونة » والكلمة المدونة كانت ولا تزال جوهر الانسانية وفكرها الذي يميزها عن المملكة الحيوانية . واذا كانت « الكلمة » ، وهي سر الوجود واصل الوجود ، قد كانت منذ البدء ، وجدت منذ ان وجد الانسان وميزته عن سائر المخلوقات فان معجزة تدوين الكلمة قد تحققت في وادى الرافدين لاول مرة في مسيرة الانسان المضنية عبر العصور المتطاولة ؛ وعندئذ انتقلت البشرية من ظلام « أميتها » التي استغرقت نحو تسعة وتسعين بالمائة من عمر الانسان على هذه الارض قبل نحو مليوني عام ، وسرعان ما تطورت الكلمة المدونة في حضارة وادي الرافدين فصارت أدباً وتأريخاً وعلماً . وعندئذ شرعت طاقات الفكر الانساني وابداعه تتفتح وتزدهر ، والتجارب والخبرات البشرية تتراكم وتتوارثها الاجيال عن طريق الكلمة المدونة التي لولا ظهورها في حضارة وادي الرافدين لما ازدهرت أثينة وروما وغيرهما من مراكز الحضارات البشرية في علومها وآدابها وفلسفتها .

وشاءت الصدفة الحسنة ان لا يجد كتبة العراق القديم أيسر وأسهل من « الطين » يدونون فيه الكلمة اي الفكر . فالطين ، بخلاف سائر مواد الكتابة التي استعملتها الحضارات الأخرى ، لا يفنى . إنه « طين العراق الخالد » الذي حفظ لنا اولى تجارب رائدة في تاريخ البشرية حققها العراقيون القدامى يوم انتقلوا الى طور الحضارة والمدنية ، وهي التجربة المثيرة في تأريخ تطور الانسان المديد والتي ماتزال البشرية تعيشها وتعانيها بخيرها وشرها .

ميزات أدب العراق القديم وخصائصه العامة :

قبل أن نتناول بالوصف أشهر القطع الأدبية التي وصلت الينا من أدباء العراق القديم ، نمهد لذلك بايراد بعض الملاحظات التوضيحية عن خصائصه وميزاته العامة لفهم التراث الأدبي من حضارة وادي الرافدين :

١- قدم أدب العراق القديم :

ونبدأ من هذه الخصائص العامة بالبرهنة على أن أدب حضارة وادي الرافدين اقدم أدب ابتدعه الانسان على ما اجمع عليه الباحثون في تأريخ الحضارات القديمة فكان اولى المحاولات في تأريخ الانسانية للتعبير عن الحياة وقيمها ومعانيها باسلوب الفن الادبي . ولكي لايكون هذا الرأي من قبيل ارسال القول على عواهنه ينبغي الا نكتفي بمجرد الاستشهاد باجماع الباحثين ، بل ندلل على ذلك بانتهاج الاسلوب التأريخي العلمي بان نقارن مابين زمن ادب وادي الرافدين وبين ازمان آداب الحضارات القديمة الأخرى . وموجز ما يقال في الامر إنه على الرغم من ان الزمن الذي دونت فيه اشهر النصوص الادبية في حضارة وادي الرافدين لايتجاوز اواخر الألف الثالث واوائل الألف الثاني ق.م الا ان تلك النصوص الادبية قد تم ابداعها وانتاجها في ازمان اقدم من عهود تدوينها وقد تناقلتها الاجيال المتعاقبة بالرواية الشفهية فوقع فيها الكثير من التطور الى ان بدأ القوم يدونونها في الواح الطين باشكالها النهائية الأخيرة التي جاءت فيها الينا منذ مطلع الألف الثاني ق.م .

فاذا قارنا قدم هذا الادب ، سواء كان ذلك من ناحية زمن ابداعه ام زمن تدوينه ، باقدم آداب انتجتها الحضارات القديمة وجدناه يسبق جميع ما انتجه

الفكر البشري بعشرات القرون . فبالمقارنة مع حضارة مصر القديمة مثلا لما ياأتنا شيءٌ من ادبها من عصر ازدهارها في العصر المسمى في تأريخ حضارة وادي النيل بعصر الاهرام (مطلع الألف الثالث ق.م) . وخلف الكنعانيون ، وكانوا من أشهر واكبر الاقوام السامية التي استوطنت الاقسام الساحلية من بلاد الشام ، نتاجاً أدبياً مهماً يرقى زمنه الى منتصف الألف الثاني ق.م كما اظهرت ذلك الاكتشافات الآثارية الحديثة في المستوطن الكنعاني القديم المسمى « اوغاريت » (راس الشمرا) الآن بالقرب من اللاذقية (١) ، أي أن زمن هذا الادب الكنعاني متأخر بالنسبة الى ادب حضارة وادي الرافدين بما لايقل عن خمسة قرون . ونأخذ الادب العبراني على سبيل المقارنة حيث لايتعدى زمن اقدم نتاج له ، ممثلا باسفار التوراة ، القرن السادس ق.م ، أي انه متأخر عن عهد أدب العراق القديم بعشرات القرون . ونسوق للمقارنة أيضاً اقدم أدب انتجته الحضارة الاغريقية ، ممثلا بالاوديسة والالياذة المنسوبتين الى هوميروس اللتين لايتجاوز زمن تدوينهما القرن السابع او الثامن ق.م على اكثر تقدير . ومثل هذا يقال عن اقدم أدب خلفته الهند القديمة ، وهي نصوص الـ « ركث فيـــدا » (rigvida) وأدب ايران القديم الذي تمثله الـ « افستا » (أبستاق avesta) .

وسيتضح من الامثلة التي سنوردها عن النصوص الادبية انه على الرغم من سبق هذا الأدب جميع الآداب العالمية المشهورة التي عددناها ، فانه لمما يثير الدهشة

---

(١) حول النتائج الباهرة التي اظهرتها التنقيبات الأثرية الفرنسية في (اوغاريت) منذ عام ١٩٢٨ راجع ايجاز ذلك في كتابي « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة . (الجزء الثاني ١٩٥٦) الى ص ٢٦ فما بعد ، وكذلك :

C. Schaeffer, Ugaritica , 111, (1956 ' acta Oriontalia, (1955)

Viralleaud , palais Royale d'Ugarit , (1957) ;

وعن نصوص الادب الكنعاني :

Pritchand (ed.), Ancient Near Eastern Texts , (1969)

لدى الباحث الحديث ان يجد ذلك الأدب الموغل في القدم يتميز بالمقومات الاساسية التي تميز الآداب العالمية الشهيرة ، سواء كان ذلك من ناحية الاسلوب وطرق التعبير أم من ناحية الموضوع والمحتوى والصور الفنية المعبرة ، والاصالة والجرأة وخطورة الموضوعات التي تناولها .

٢ـ وبالاضافة الى ميزة القدم التي بيناها فان ادب حضارة وادي الرافدين يتميز على الآداب القديمة بخاصية أخرى مهمة ، تلك هي ان معظم تلك الآداب القديمة قد طرأ عليه الكثير من التحوير والتبديل والحذف او الاضافة على أيدي النساخ والجامعين والشراح ، في حين ان الادب السومري والبابلي قد جاء الينا بهيئته الاصلية غير محور كما دون باقلام الكتبة على الواح الطين قبل نحو ٤٠٠٠ عام (١) وهي الالواح المدونة بالخط الذي اطلق عليه مصطلح الخط المسماري (Cuneiform) .

ومن الطريف ذكره بهذا الصدد انه مع هذا القدم الموغل في الزمن فان ادباء العراق القديم عدوا أنفسهم حديثي العهد في الحضارة وأنهم ورثة ماض مجيد متقادم العهد ، تخيلوه على هيئة « عصر ذهبي » كان السلام والخير يسودان الأرض فيه « فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء ولا حيوانات مفترسة تنازع الانسان البقاء . وكان البشر بلسان واحد يمجدون الاله انليل » ، كما جاء ذلك في احدى الاساطير السومرية (٢) . ولا يخفى ان هذه الفكرة التي تصور عهداً متخيلا كان البشر فيه أسعد من عصرهم الراهن قد انتشرت في كثير من الاقوام على هيئة « الماضي الذهبي » ولم تتمكن فكرة « التقدم » من الانتشار إلا في العصور الحديثة ، وما يزال الكثير من اهل العصر الحاضر من يتصور وجود ذلك « الماضي الذهبي »

---

(١) انظر : S.N. Kramer, Sunmerian Mythology,(1944)

وعن الخط المسماري واصله وحل رموزه راجع كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة الجزء الأول » الطبعة الثالثة (١٩٧٣) .

(٢) راجع : S.N. Kramer, IBID.

٣- نسبة النصوص الادبية في مجاميع الواح الطين المكتشفة :-

اذا كانت مصادرنا عن أدب العراق القديم النصوص الاصلية المدونة بالخط المسماري في الواح الطين . فما مقدار الالواح المنقوشة بالنصوص الادبية بالنسبة الى عدد ماجاء الينا من الواح الطين التي اكتشفت في بقايا المدن القديمة ؟ وما المقصود في مصطلح النصوص أو الالواح الادبية ؟ وللاجابة على هذا السؤال بوجه الايجاز نقول : إن ما استخرج من الواح الطين المختلفة النصوص الى هذا اليوم يبلغ مئات الالوف ، وقد يناهز المليون لوح مما هو موزع الآن في المتاحف العالمية الشهيرة .على ان هذا العدد ، على كثرته ، لايؤلف في الواقع الا نسبة غير كبيرة مما مايزال مطمورا في الاطلال القديمة المنتشرة في شتى ربوع العراق وفي بعض الاقطار المجاورة التي اقتبست حضاراتها القديمة الخط المسماري في تدوين لغاتها ومعه الكثير من التراث الأدبي والفني من حضارة وادي الرافدين . أما تخمين نسبة الالواح المدونة بالنصوص الادبية الى عدد ما ذكرناه من مجموع ما جاء الينا من الواح الطين المختلفة فهي نسبة قليلة لا يتجاوز عددها بضعة الآف ، لعله ما بين ثلاثة الى اربعة الاف لوح . ولكن لايمكن التكهن عما سيكشف عنه المستقبل من نصوص ادبية أخرى قد تغير أوتضيف الى معرفتنا الراهنة بادب العراق القديم اشياء كثيرة . ولكن مع ذلك يمكن القول بوجه عام ان ما كشف عنه وتم درسه ونشره من نصوص أدبية لحد الآن يعبر عن المعدل العام او الصورة العامة لنصوص هذا الادب من حيث المواضيع التي تناولها وخصائصه ومقوماته العامة المميزة .

ومع انه يمكن اجمال ما نقصده بالالواح الادبية بانها النصوص الكتابية التي لاتتعلق بتدوين شؤون الحياة الاعتيادية كالمعاملات التجارية والقانونية والرسائل والشؤون الادارية ، وان كل ماعدا مثل هذه النصوص الاعتيادية يدخل في صنف

النصوص الادبية ـ نقول مع ذلك إن هذا تعريف مبهم او سالب فينبغي لنا ان نضيف الى ذلك ان اعتبارنا لهذا الصنف من الواح الطين على انه نصوص أدبية يستند الى المفاهيم المتعارف عليها في الادب ، من ناحية اسلوب التأليف اللغوي كوسيلة للتعبير الفني بنقل التجارب والصور والخبرات والاحاسيس الى القارئ او السامع الى غير ذلك من الخصائص التي يتصف بها النتاج الادبي في جميع العصور . وفي الوسع ايجاز ذلك في ثلاثة أمور :

أ ـ الموضوع او الفكرة التي تعبر عنها القطعة الادبية .

ب ـ الاسلوب الادبي الفني ، سواء كان شعراً أم نثراً ، المتصف بطراز خاص من النظم والتأليف المؤثر في مشاعر القارئ او السامع .

جـ ـ اختيار المواقف والحوادث المؤثرة بالنسبة الى مفاهيم الحضارة التي انتجت الأدب المبحوث فيه. وسيتضح مما سنذكره من النصوص الأدبية من حضارة وادي الرافدين انطباق هذه المقاييس الأدبية المتعارف عليها .

٤ ـ الازدواج اللغوي في أدب حضارة وادي الرافدين :ـ

ومن الملاحظات المهمة التي يجدر ذكرها في هذه المقدمة لفهم أدب العراق القديم أمر يتعلق باللغة التي دون بها هذا الادب . فمن الحقائق التأريخية المعروفة عن حضارة وادي الرافدين انها كانت من الناحية اللغوية مزدوجة اللغة او ثنائية اللغة (bilingual) (*) حيث اللغتان المشهورتان : اللغة السومرية واللغة الاكدية (اي البابلية ، وهي الفرع الشرقي من عائلة اللغات السامية) (*) فاللغة الأولى ، أي السومرية ، كانت لغة السومريين الذين لانعرف عن أصلهم ومهدهم أشياء مؤكدة سوى انهم ليسوا من السامين ولغتهم ليست من عائلة اللغات

(*) راجع لمجاز هذا الموضوع المهم في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) وفيه الاشارات الى الدراسات والبحوث المختلفة عن الموضوع .

السامية ولا من عائلة اللغات « الهندية — الاوربية » . وكانت السومرية ، منذ ظهور التدوين اي الكتابة في اواخر الألف الرابع ق.م ، اللغة السائدة في التدوين على الرغم من وجود الساميين في بلاد وادي الرافدين جنباً الى جنب مع السومريين منذ بداية الاستيطان البشري في السهل الرسوبي في مطلع الألف الخامس ق.م وكان الطابع الثقافي المميز في الادوار الأولى القديمة من حضارة وادي الرافدين الثقافة السومرية بلغتها وأدبها ومعارفها المختلفة . ولكن سرعان مابرز كيان الساميين ولغتهم في التدوين بشكلها الاكدي في عهد السلالة الأكدية السامية (٢٣٧٠ — ٢٢٣٠ ق.م) التي اسسها سرجون الأكدي الشهير . وتزايد اتساع التدوين بها والتكلم بها حتى طغت عـلى اللغة السومرية منذ مطلع الألف الثاني ق.م ؛ وساد الساميون في الحياة السياسية ايضاً . ولكن مع زوال السومريين من الحياة السياسية منذ الألف الثاني ظلت لغتهم ، مثل اللاتينية في اوربة ، لغة ثقافية اساسية ، كما بقيت الثقافة السومرية حية ، واستمر التدوين باللغة السومرية جنباً الى جنب مع اللغة الأكدية (بفرعيها الاساسيين البابلية والاشورية) الى آخر عهود حضارة وادي الرافدين .

واستتبع عن هذا الازدواج اللغوي في حضارة وادي الرافدين نتائج ثقافية ولغوية وكتابية كثيرة لامجال لذكرها ، فيكفي أن نقول من ناحية موضوعنا إنه لايمكن فهم النصوص الادبية في هذه الحضارة مالم يؤخذ في الحساب هذا الازدواج اللغوي ، سواء كان ذلك من ناحية ترجمة الكثير من القطع الادبية السومرية الى اللغة البابلية ، ام من ناحية تأثر النتاج الأدبي البابلي باصول سومرية أم من حيث استعمال الكثير من المصطلحات الكتابية السومرية في القطع الأدبية البابلية ، وتأثر هذه القطع بالاساليب اللغوية الأدبية السومرية . وان هذا يصدق بوجه عام على جميع النصوص الكتابية الأخرى التي خلفتها حضارة وادي الرافدين .

٥ ـ تحملنا الحقيقة السالفة على ذكر ملاحظة اخرى تتعلق بمدى تفهمنا نحن أبناء الأزمان الحديثة للنصوص الادبية التي جاءتنا من حضارة وادي الرافدين عن طريق ترجمتها من جانب المختصين الى اللغات الحديثة . فمما يقال بهذا الصدد إنه على الرغم من ان فهم الباحثين المختصين باللغتين السومرية والبابلية لنصوص هذا الادب مستند الى اسس علمية لا يرقى اليها الشك من بعد حل رموز الخط المسماري وان هؤلاء المختصين متفقون على ترجمة النصوص الادبية باستثناء اختلافات واجتهادات كثير منها غير جوهري ـ نقول مع كل ذلك ومهما بلغت ترجمة هؤلاء الباحثين من دقة الاداء فانها لاتستطيع ان تنقل لنا الروح الاصلية والمناخ الفكري والعاطفي المميز لتلك النصوص ، شأنها في ذلك شأن الآداب العالمية الأخرى اذا ما نقلت من لغاتها الأصلية الى لغة أخرى ، لاسيما في حالة نتاج أدبي مثل ادب حضارة وادي الرافدين تبعدنا عنه آلاف السنين . ولعله يمكن القول بهذا الصدد إن نقل النصوص الادبية البابلية الى اللغة العربية يخفف جانباً كبيراً من تلك العقبة . فاللغة العربية اليق اللغات في التعبير الدقيق عن هذا النصوص لانها أخت اللغة البابلية ؛ فكلتاهما من عائلة لغوية واحدة هي عائلة اللغات السامية المتشابهة في تراكيبها اللغوية ومعاني مفرداتها ولفظها ، ناهيك عن التشابه القومي ما بين العرب وبين الاقوام السامية .

٦ ـ تراث أدب العراق القديم في الحضارات الأخرى :

بالاضافة الى ميزة القدم التي نوهنا بها عن ادب العراق القديم وانه يسبق اقدم أدب عرفه الانسان ، فان لهذا الادب أهمية خاصة في تأريخ تطور الحضارات البشرية والفكر الانساني بوجه خاص ، تلك هي إجماع مؤرخي الحضارة على

عظم التراث الذي خلفه ذلك الأدب في الحضارات القديمة الأخرى والثقافات المعاصرة . فهو على ذلك لايقتصر على كونه أدباً قديماً مثل دوره في تطور الفكر البشري ومات ، بل انه لايزال حياً عن طريق التأثيرات التي خلفها في آداب الحضارات التالية .

واذا كان يتعذر الاستشهاد بالعناصر الحضارية الكثيرة التي انتقلت من حضارة العراق القديم الى الحضارات الأخرى – ولعل القارئ سيقف على طائفة من هذه هذه التأثيرات في اثناء تصفحه النصوص الادبية التي سنعرضها – نقول اذا تعذر ذلك فنكتفي من الموضوع بذكر الاسس المعتمدة في منهج البحث التأريخي فيما يتعلق باقتباسات الحضارات بعضها من بعض ، وقد استطاع الباحثون بانتهاجها البرهنة على الحقيقة التي ذكرناها ؛ ويمكن ايجازها في الاسس الثلاثة الآتية :

أ– إثبات السبق الزمني لادب حضارة وادي الرافدين ، وقد سبق ان برهنا على ذلك .

ب– اثبات وجود الاتصالات التأريخية وتحديد الطرق التي انتقل فيها الكثير من العناصر والمقومات من حضارة وادي الرافدين الى الحضارات الأخرى . وتأتي في مقدمة طرق الاتصال هذه الاتصالات التجارية والحروب والفتوح والاسفار . فقد ثبتت الاتصالات التأريخية ما بين العراق القديم وبين اقطار كثيرة في الشرق الادنى وحتى اقطار نائية مثل سواحل الهند . إذ تشير الاخبار التأريخية والادلة الآثارية الى امتداد فتوح سرجون الاكدي (٢٣٧٠–٢٣١٦ ق.م) واحفاده ولاسيما حفيده « نرام – سين » (٢٢٩١–٢٢٥٥ ق.م) الى اقاليم نائية مثل بلاد الاناضول وكريت وقبرص واقطار أخرى في حوض البحر المتوسط . وازدادت هذه الفتوح اتساعاً في العصور التي

تلت العهد الاكدي ولاسيما الفتوح الاشورية الواسعة التي نتج عنها اتصالات بعيدة بين اقوام حضارة وادي الرافدين وبين الاقوام القديمة ومنها بعض فروع القبائل اليونانية في سواحل الاناضول الغربية . وكشفت التحريات الآثارية الحديثة عن بقايا مستوطنات واسعة اقامها الآشوريون في عصرهم القديم (مطلع الألف الثاني ق.م) في الاناضول حيث المركز التجاري الشهير في المدينة القديمة المسماة «كانيش » (وتعرف بقاياها الآن باسم كول تبه بالقرب من قيصرية)(١) وقد عثرنا حديثاً في «لارنكا» في قبرص على مواد اثرية من حضارة وادي الرافدين من بينها اختام اسطوانية يرجع عهد البعض منها الى العصر الاكدي (اواخر الألف الثالث ق.م) (٢)

ج- اما الأساس الثالث فهو اثبات مواطن شبه اساسية في الاحداث والافكار والابطال من أدب حضارة وادي الرافدين في اساطير الامم القديمة وآدابها ، ونترك التبسط في هذا الجانب من الموضوع الى القارئ من بعد وقوفه على النصوص الادبية التي سنعرضها وسيجد فيها الكثير من اوجه الشبه هذه .

٧- والى هذا فان لأدب العراق القديم أهمية وخطورة خاصتين في فهم مقومات حضارة وادي الرافدين واوجهها المختلفة والطابع المميز لها . فان النصوص الأدبية التي وصلت الينا من هذه الحضارة مثل ملحمة جلجامش وقصص الخليقة والاساطير الخاصة باصل الوجود والأشياء وغيرها من القطع الأدبية التي سنتناولها تعد عند الباحثين منجماً زاخراً يقفون منه على اسس هذه الحضارة واتجاهاتها وعقائدها

---

(١) راجع عن تأريخ هذا المستوطن التجاري الآشوري وما وجد فيه من سجلات تجارية وشرائع بالخط المسماري واللغة الاشورية القديمة في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول (الطبعة الثالثة ١٩٧٣) الفصل الخاص بالآشوريين .

(٢) انظر : CH.. Gordon, Before The Bible, (1962)

الاساسية » فهي اصدق ماينقل الينا احوال اقدم المجتمعات الانسانية وعقائده ونظرته الى اصل الاشياء والآلهة ونظام الحكم ، كما تصور لنا البيئة البشرية والطبيعية التي نمت فيها تلك الحضارة . فان الدارس لنتاج العراقيين القدماء الادبي يستطيع أن يقف على طبيعة تفكيرهم في الكون والحياة ، ذلك الفكر الذي كان نتاجهم الأدبي مظهراً من مظاهره ووجهاً من اوجهه . وسنرى ان النزعة الغالبة على ذلك التفكير الاتجاه الاسطوري الشعري . ومما يقال بوجه عام عن هذا الموضوع إنه باستثناء مواضيع قليلة لايسعنا ان نسمي ماخلفوه فكراً فلسفياً بالمعنى الدقيق لهذا النمط من التفكير الذي يستند الى الاستدلال والنقد والاستنتاج المنطقي والتأمل والنظر في الاشياء نظراً موضوعياً . ومع أنهم عالجوا في اساطيرهم وانواع كتاباتهم الأخرى قضايامهمة لاتقل شأنا وخطورةعما كان كماقلنا يشغل الفلسفةاليونانية والفكر الحديث، بيد أن تفكيرهم في مثل هذه القضايا كان كما قلنا تفكيراً خيالياًاسطورياً وشعرياً . واذا كانت الاساطير والقصص معروفة في الآداب الحديثة الا ان ادباء وادي الرافدين القدامى لم ينظروا الى اساطيرهم على أنها متعة أدبية فنية بل كانوا يعتبرون ان ما فيها من أراء حقائق معتبرة في تفسير الوجود والاشياء . وعلى هذا فينبغي لنا ان ننظر الى اساطيرهم على انها تعبر عن حقائق الكون بحسب أرائهم بالاضافة الى كونها نتاجاً أدبياً . . إنها كانت تفسر لهم نفس القضايا الاساسية التي عالجتها الفلسفة اليونانية باسلوب او منهج موضوعي مستند الى الاستدلال المنطقي . واذا ما وجدنا فيما سنذكره من القطع الأدبية تناقضاً في الآراء والمعتقدات عن اصل الكون والاشياء فان ذلك متوقع في التفكير الاسطوري الشعري (mythopoetic) لان التناقض لايبدو إلا للفكر الموضوعي المنطقي الذي يجاوزه ويسمو عليه خيال الشاعر الفنان ، ذلك الخيال الذي يكون فيه الحد مابين الاحلام وبين اليقظة

مختلطاً غير واضح المعالم . والواقع إن الرؤى لم تكن أقل نصيباً من الحقيقة من اليقظة ، فكان القوم يحصلون على التوجيه والارشاد الالهي عن طريق اتصالهم بالآلهة في الاحـــلام .

واذا ما حاولنا العثور في اساليب تفكيرهم على ما نسميه بقانون « العلّية » (Law of Causality) الذي هو أساس منهج العلوم الحديثــة فاننا لانجد له آثاراً واضحة . انهم كانوا ينظرون الى علل الاشياء والحوادث من وجهة « من يحدثها » وليس « كيف تحدث » ؟ او « لماذا تحدث ؟ » فمــثلا اذا لم ترتفع مياه دجلة كان السبب في ذلك ان النهر أبى أن يرتفع » لغضبه أو لغضب الآلهة التي تحكمــه على البشر . وكان حكمهم على الاشــياء والحوادث يستند بالدرجة الأولى الى مبدأ التمثيل والقياس (analogy) اكثر من اســتناده الى الاســتنتاج والاستدلال (Inductive and deductive) ويظهر هذا واضحاً في السحر وطرق العرافة والكهانة وتصنيفهم للاشياء على اساس التشابه الظاهري ، مثــل تصورهم للسماء على هيئة الأرض والارض على هيئة السماء ؛ حتى انهم اعتبروا السماء وكأنها دولة أو مملكــة تحكم فيها الآلهــة بمراتب ودرجات متفاوتة ويجتمعون في مجالس للشورى ويتخذون فيها القرارات الخطيرة على غرار المجتمع البشري في بلاد وادي الرافدين . كما ان مبدأ التشبيه (Anthropomorphism) الذي تتصف به آلهتهم مشتق من هذا النمط من التفكير (١) .

ومن انماط التفكير الأخرى التي يستنتجها القارئ من بعض القطع الادبية التي سنوردها مايصح أن نسميه مبدأ « الاسم » الذي بموجبه «لايمكن «لأي شيئ أن يوجد مالم يكن له اسم ، فتسمية الشيئ مرادفة لوجوده او إيجاده . ويظهر هذا واضحاً في اسطورة الخليقة البابليــة التي عبرت عــن حــالة الكــون

---

(١) مبدأ التشبيه تعزى بموجبه الى الآلهة صفات البشر المادية والروحية .

قبل وجودالسماءوالارض بالقول! « في البدءلم تسمَّ السماء في العُلا ولم تذكر الارض باسم في الاسفل » . والجدير بالذكر بهذا الصدد أن حضارة وادي الرافدين لم تفرد بهذا الامر ، اذ نجده عند العبرانيين في رواية التكوين في التوراة (١) ، وكان الاسم في تفكير حضارة وادي النيل جوهر الشيئ وسر وجوده وقوته ، فكان للآلهة اسماء سرية تكمن فيها قدرتهم وقوتهم فلا يبوحون بها ، وامتدت الفكرة عند سكان مصر القديمة الى اسماء الاشخاص من البشر ، فكانوا يسمون الفرد باسمين ، اسم سرّي واسم آخر هو مايدعى به بين الناس . وسنرى من اسطورة الخليقة البابلية كيف ان الآلهة اجتمعت في مجلس الشورى وانتخبت الاله « مردوخ » (كبير آلهة بابل) ملكاً عليها ليحارب قوى العماء والدمار الممثلة بالآلهة العتيقة ، ولكي تمكنه من ذلك تنازلت له عن اسمائها ، فصار هذا الاله يحوز على « خمسين اسماً » كل منها يمثل سر القوة والقدرة التي يملكها كل اله ، وفي بعض الحالات كان البشر يستطيعون ان يحوزوا على مافي اسماء الآلهة من قوة ومناعة بمجرد كتابة اسم الاله . واتسعوا في هذا المبدأ بحيث انهم صاروا يرمزون الى الاسماء بالعدد . فمثلا يخبرنا الملك الآشوري سرجون الثاني (٧٢١—٧٠٥ ق.م) عن قصره في المدينة التي ابتناها وسماها باسمه « دور — شركين » (خرسباد الآن) بقوله : « بنيت جدار سورها بمقدار ١٦٢٨٣ ذراعاً وهو رقم إسمي (٢) ولما كان الاسم جوهر الشيئ وسر وجوده نشأت عندهم فكرة تسمية الأشخاص والاشياء المحببة باسماء تنطوي على اليمن والفأل الحسن (٣) ونجد ذلك عامّاً تقريباً في اسماء الاعلام التي يغلب عليها ان تكون اسماء مركبة تؤلف جملة كاملة

---

(١) سفر التكوين ٢ : ٥—٥

(٢) لعل هذا اصل المبدأ الخاص باعطاء الحروف قيما عددية

(٣) قارن المثل اللاتيني : Momen est Omen

تتضمن اسماء الآلهة . وبالنسبة الى اسماء الاشياء مثل المباني نذكر بعض الامثلة من اسماء الكثير من محلات مدينة بابل وشوارعها ومبانيها مثل اسم شارع الموكب الذي ورد ذكره في النصوص المسمارية بهيئة ! « أي – يعبر – شابو »
(ai-ibur-shabu) ومعناه: « عسى انلايعبر العدو ». واسم بوابة عشتار الشهيرة :
« عشتار – شاكبت – تبيشا » (Ishtar-shabibat-tebisha) اي: « عشتار قاهرة اعدائها »

وخلاصة مايقال بهذا الصدد إن المعتقدات الدينية قد أثرت في أدب العراق القديم بوجه خاص وفي انواع الفنون الأخرى بوجه عام ، شأنها في ذلك شأن الحضارات القديمة الأخرى ، سواء كان ذلك في اشتراك الآلهة باحداث الملاحم البطولية والقصص والاساطير ام في المواضيع والاغراض الدينية المتنوعة كالتراتيل والادعية والصلوات التي كانت تؤلف قسماً مهماً من النتاج الأدبي الشعري ، إذ انها كانت تنظم شعراً ! أما النثر ولاسيما النثر الأدبي فقد استخدموه في اغراض ادبية أخرى مثل تدوين الحوادث التأريخية والرسائل الرسمية الملكية وتدوين أعمال الملوك وحملاتهم الحربية والشرائع والحكم والامثال والمواعظ .

٨ – الاعادة والتكرار واستباق نتائج الاحداث :

ومن الميزات العامة التي سيلاحظها القارئ لاشهر القطع الأدبية ، مثل ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة ، ظاهرة التكرار والاعادة مما يبعث السأم والملل عند القارئ الحديث . فمثلا اذا ارسل أحد الآلهة رسولا ليبلغ أمراً ما الى اله آخر فان الرسول يعيد جميع الابيات التي قالها الاله المرسل مهما بلغ عددها . ومن الطريف ذكره بصدد هذه الميزة ان الباحثين المحدثين قد افادوا منها كثيراً في الاستعانة بها لاكمال مواطن كثيرة قد انخرمت وضاعت عن النصوص الاصلية في الواح الطين

ومهما كان الامر فان أدب العراق القديم لاينفرد بهذه الظاهرة بل يضاهيه فيها الكثير من آداب الامم القديمةمثل الالياذة والاوديسة . وقد استند بعض الباحثين الى هذه الظاهرة في مثل هذه الآداب العالمية فارجع اصلها الى الانشاد والرواية الشفوية ، حيث كان المنشد يستعين بالتكرار والاعادة ليستعيد الى ذاكرته ما سينشده من أبيات تالية .

ومن الخصائص الأخرى التي يلاحظها الفاحص لنصوص ادب وادي الرافدين – والمثال على ذلك واضح في ملحمة جلجامش – ما يصح أن نطلق عليه استباق الاحداث او « استباق النتائج » ((anticipaton)) اي استباق ما ستتمخض عنه الرواية او القصة والتنويه بالنهاية والحل . ففي ملحمة جلجامش مثلاً تبدأ الرواية بديباجة في التعريف ببطل الرواية والتغني بامجاده ، وتنوه ايضاً بمجمل موضوع الرواية وخاتمتها . ونجد ما يضاهي هذا في الملاحم العالمية المشهورة مثل الالياذة والاوديسة والملحمة الجرمانية المسماة « اغاني النيبيلونك » (١) والمرجح أن يكون تفسير هذا في تحريك السامع وتشويقه الى احداث الرواية ،ولعله يمكن تشبيه هذا الاسلوب من الفن القصصي القديم باساليب العرض السينمائي الحديث ، حيث يبدأ بعض الافلام بلقطة من خاتمة الرواية او من اهم احداثها ثم تبدأ حوادث الرواية بالتسلسل وتنتهي بالمشهد الذي بدأت به . واستنادا الى هذه الظاهرة فان حقيقة كون بداية ملحمة جلجامش او ديباجتها مضاهية لخاتمتها دليل على ان النصوص التي وصلت الينا منها تمثل الملحمة كاملة تقريباً .

Niebeliungenlied

(١) ملحمة جرمانية مشهورة في آداب القزون الوسطى وتدور احداثها ، مثل ملحمة جلجامش ، على مغامرات البطل « سيغفريد » في ارض الظلام مع ملوكها البورغنديين وقتلهم اياه ثم ثأر زوجته له . . . الخ

٩ – الفهارس والسجلات والمكتبات :–

لعلنا لانبالغ اذا قلنا إن حضارة وادي الرافدين فاقت معظم الحضارات القديمة في كثرة التدوين الذي شمل جميع شئون الحياة الخاصة والعامة تقريباً . وتميز بعض عصورها بضخامة ماجاء الينا من الواح الطين التي لعلها تجاوز المليون لوح كما ذكرنا مما كشف عنه لحد الآن من العهود المختلفة مثل عصر سلالة اور الثالثة (٢١١٢–٢٠٠٤ ق.م) ، لعله في حدود ٣٠٠٠٠ الى ٤٠٠٠٠ لوح والعصر البابلي القديم (٢٠٠٠–١٥٠٠ ق.م) في حدود ٥٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠ لوح والعصر الآشوري الحديث ماييناهز ٨٠٠٠٠ لوح ثم العصور المتأخرة مثل العصر البابلي الحديث (منتصف القرن السادس ق.م) والعصر الفارسي الاخميني (٥٣٩ – ٣٣١ ق.م) والعصر السلوقي والفرثي (٣١١ق.م – ٢٢٦ م) .

وبالنسبة الى التدوين بدأت غزارة النصوص الادبية منذ العصر البابلي القديم وسنرى من تلخيص بعض القطع الأدبية كثرة النسخ التي خلفها كتبة العراق القديم في الازمان المختلفة ابتداء من العصر البابلي القديم المار الذكر . ولعل ابلغ مثال نسوقه في تأريخ التدوين والولع بجمع النصوص المختلفة لشتى صنوف المعارف التي اشتهرت بها حضارة وادي الرافدين خزانة كتب الملك الآشوري الشهير « آشور بانيبال » (٦٦٨–٦٢٦ ق.م) في نينوى حيث كشفت التنقيبات القديمة فيها (منتصف القرن التاسع عشر) عن مجاميع ضخمة من الواح الطين التي حوى الكثير منها كنوزاً من ادب حضارة وادي الرافدين وهي نسخ من نصوص اقدم عهداً ، وقد نظمت في المكتبة الملكية في مجموعات حسب موضوعاتها كما سنوضح ذلك بعد قليل .

ويجدر أن نشير بهذا الصدد الى ان احد الباحثين اكتشف في السنوات القليلة الماضية بعض النصوص التي تدل على وعي أدبي في فهرسة القطع الادبية ، فقد وجد من بين الواح الطين التي عثر عليها في مدينة « نفر » في اثناء التحريات القديمة فيها لوحان احدهما موجود الآن في متحف اللوفر (باريس) والآخر في متحف جامعة فيلادلفيا ، وهما يتضمنان عناوين مؤلفات أدبية سومرية . ويحتوي لوح فيلادلفيا على ٦٢ عنواناً ولوح اللوفر على ٦٨ عنواناً ، واذا اخرجنا ٤٣ عنواناً مشتركاً في اللوحين فيكون عدد العناوين المسجلة فيهما ٨٧ عنواناً لنصوص ادبية امكن تعيين ٢٨ تأليفاً منها حيث وجد اصله الكامل في الالواح المكتشفة سابقاً (١) .

١٠– أثر مادة الكتابة في اسلوب التدوين :

وكان لمادة الكتابة ، وهي الطين الذي كان المادة الرئيسية في التدوين،أثر كبير في اشكال المدونات المختلفة وفي مقدمتها النصوص الادبية وطريقة جمعها وفهرستها وتسلسلها . فعلى ماهو معروف لايمكن تدوين نصوص مطولة على لوح واحد من الطين مهما بلغ كبره حيث لايمكن استعمال لوح يتجاوز حجم الآجرة على اكثر تقدير . اما في حالة النصوص والعقود التجارية والرسائل وغيرها من شؤون الحياة الاعتيادية فكان يكفي لوح واحد لاستيعابها . وحلت مشكلة تدوين النصوص الادبية والتأريخية المطولة بطريقتين :

١– تدوين النص المطول في عدة الواح ترتب على هيئة سلسلة متتابعة ويذيل

---

(١) درس هذين اللوحين ونشرهما الاستاذ « كرامر » انظر :

S.N. Kramar, The Oldest Literary Catalogue" in Bulletin of The American Oriental Society, No.88 (1942 ; Sumerian Mythvlogy, (1944),p. 14

كل اوح منها بعنوان السلسلة العام مع رقم تسلسله وبداية السطر الذي يبدأ به اللوح التالي .
وكانت كل مجموعة من هذه السلاسل من النصوص الأدبية تحفظ في رفوف او في اوعية (جرار) من الفخار ويعلق فيها عنوان المجموعة الذي يسجل على لوح صغير من الطين . وهكذا وصلت الينا ملحمة جلجامش الشهيرة مدونة على اثني عشر لوحاً، واسطورة الخليقة على سبعة الواح . وجرت عادتهم في عناوين مثل هذه المجاميع الأدبية ان تعنون كل مجموعة باول عبارة او شطر من الشعر فيها . فمثلا جعلوا عنوان ملحمة جلجامش : « شا نَقْبَا إمورو » (sha naqba imuru) اي : « هو الذي رأى كل شيئ، من سلسلة جلجامش (إشكار جلجامش) ، مكتبة قصر آشور بانيبال» . وعنوان مجموعة اسطورة الخليقة : « إينّما إيليش » او «حينّما عيلش» (enuma elish) اي « حينما في العلا » ؛ وعنوان شريعة حمرابي الشهيرة « إينو (حينو) آنُـم صِيرُ مْ » ((inu Anum serum))اي : « حنما آنو المبجل » .

ولعله من المفيد ان تتمم هذه الملاحظات عن عناوين المؤلفات الأدبية بذكر ماجاء الينا من عناوين بعض القطع الأدبية السومرية المشهورة ، حيث درج المؤلفون والنساخ كما ذكرنا على تذييل مثل هذه القطع بعناوينها الخاصة ، فصنف من أدب المناظرة او المفاخرة الذي سنذكر نماذج منه عنوانه بالسومرية : « أدمَن- دوكا»(ADAMAN-DU-GA) وصنف من المؤلفات الادبية اطلق عليه عنوان « اندو لوكا » (ANDULUGAL) وهو ضرب من التراتيل والمدائح التي كانت تنظم لمدح الملوك والحكام . وهناك صنف من الاشعار الغنائية والترانيم اطلق عليها بالسومرية مصطلح « شِرْ » او « سِرْ » (SIR) المضاهية للكلمة السامية « شير » و « شيرو » والعربية « شعر » ،ولكن لايعلم بوجه التأكيد ايهما أصل للأخرى ، وذكرت جملة انواع من هذه الترانيم المصدرة بكلمة « شِرْ » ولكن

لاتعرف ماهيتها مثل « شير– نمنار » (SIR NAMNAR) و « شير–خامن » (SIR HAMUN) و « سـرنام كالا » (SIR - NAM-GALa) اي اغاني كهنة الـ « كالا » ونوع من الاغاني يعنى حرفيا « ترانيم الرعاة للالهة إناتا » (SIR-NAM-SIPAD-INANNA) وانواع اخرى من الاغاني والترانيم تصدر بالكلمة السومرية « أدب »(ADAB) والكلمة « تيكي» ولا يعرف معناها بوجه التأكيد ولعل الأساس في تصنيفها أنها كانت تنشد على الآت موسيقية ذات عدد خاص من الاوتار وصنف آخر يسمى بالسومرية « بلباله »(BALBALE) وهو نوع خاص من الاغاني ايضاً ، وقد ذيلت بها بعض القطع الأدبية من نوع الحوار (dialogue) وصنف آخر يرجح أن يكون أدب الرثاء والندب اطلق عليه بالسومرية « بلاگ » (BALAG) (١) ،جاءت الينا قصائد سومرية قليلة في الرثاء وبوجه خاص رثاء تدمير المدن ومراكز العمران مثل رثاء سـقوط مدينة « اور » قد.

إن هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه في طريقة حفظ النصوص الادبية له صلة وثيقة باصل نظام المكتبات وحفظ السجلات (الارشيفات) حيث كانت المجموعات المختلفة من الواح الطين والمفهرسة على الوجه الذي ذكرناه تودع في حجرات خاصة من المعابد والقصور والبيوت وقد كان بعضها يحتوى على عشرات الالوف من الوثائق والسجلات مثل مكتبة « آشور بانيبال » في نينوى التي سبقت

---

(١) بالاضافة الى المراجع السابقة التي استشهدنا بها انظر المصدرين الآتيين :

1. Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete,(1956), 20ff .
2. Hallow, "The Cultic Setting of Sumerian poetry " in Rencontre Assyriologique Internationale, xv111 (1969), 1971, 166ff,

الاشارة اليها مراراً ، وغيرها من دور الالواح او دور الكتب البابلية والآشورية في كبريات المدن القديمة . وكان بعضها مثل مدينة « نفر » مركزاً كبيراً للتعليم والاستنساخ والجمع حيث مدارس الكتبة المتمرسين في مختلف اصناف المعرفة .

٢ـ اما الاسلوب الثاني في تدوين النصوص الادبية المطولة على الطين ولا سيما النصوص التأريخية مثل حوليات الملوك واعمالهم العمرانية والعسكرية فكان يتم باستعمال مناشير (prism) واساطين (Cylinder) من الطين كبيرة الحجوم نوعاً ما . ومع ان استعمال الاساطين بوجه خاص كان معروفاً في بلاد بابل في العهد السومري المتأخر (مثل عصر جودية اواخر الألف الثالث ق.م) الا ان استعمال المناشير واستعمال الاساطين بكثرة ظهر عند البابليين والآشوريين في ادوارهم الأخيرة منذ القرن الثاني عشر ق.م بوجه التقريب وكانت مثل هذه المناشير والاساطين تستوعب نصوصاً مطولة بحيث انها تضاهي حجم كتاب صغير او كراس كبير.

ويجدر ان نلاحظ بمناسبة ذكر الكتاب ان اصل « الكتاب » لايمكن أن يرجع الى هذه الطرق من التدوين التي اتبعت في حضارة وادي الرافدين ، فان مادة الكتابة فيها ، أي الطين ، لايمكن ان يؤلف منها كتاب ، ولعله يمكن حصر اصل الكتاب في تأريخ الحضارات البشرية في احتمالين : الاحتمال الأول ان الكتاب نشأ من استعمال لفات ورق البردي الذي اختصت باستعماله حضارة وادي النيل ، إذ المعروف مما جاء الينا من هذا النوع من الورق ان لفات البردي كانت تستوعب نصوصاً مطولة من الكتابة ، ولعل مما يؤيد هذا الاحتمال اصل تسمية « كتاب » في اللغات الأوربية وهي التسمية المشتقة من الاغريقية

« بيليون » (biblion) ومنها تســـمية المكتبـــة « ببليوتيك » (bibliotheca) وهي كلمة مأخوذة من اسم المدينة الفينيقية « ببلوس » (جبيل) ، لان الاغريق كانوا يستوردون ورق البردي المصري عن طريق تلك المدينة .

اما الاحتمال الثاني عن اصل نشوء الكتاب فانه يرجع ، بالاضافة ورق البردي ، الى ما كان يستعمله الاشوريون من الواح الخشب او العاج الرقيقة والكتابة عليها بعد طلي سطوحها بالشمع ، وكانوا يوصلون جملة الواح منها بمفاصل من اسلاك النحاس فيكون كل لوح بمثابة صفحة كتاب ومجموع الالواح بين دفتين يؤلف الكتاب ، وقد وجد حديثاً في اثناء التنقيبات البريطانية في مدينة « نمرود » (كالح القديمة بالقرب من الموصل) نماذج من هذه الالواح ومما لاشك فيه ان الوفاً من هذه الالواح قد بليت بمرور الزمن فلم تصل الينا (١) والمعروف ايضاً ان الكتبة الآشوريين استخدموا بالاضافة الى هذه الالواح الرقوق الجلدية (parchment) كما تشير الى ذلك الصورة الممثلة في المنحوتات الآشورية .

١١ــ اسماء المؤلفين والادباء والشعراء :

ننهي هذه الملاحظات العامة عن أدب حضارة وادي الرافدين باثارة تساؤل مهم كثيراً ما يتوارد الى اذهان قراء القطع الادبية المشهورة التي وصلت الينا من هذه الحضارة ، الا وهو مـــن كان اولئك الادباء والشعراء الذين خلفوا لنا تلك الروائع الأدبية ؟ والاجابة على هذا التساؤل بوجه الايجاز هو اننا اذا استثنينا بعض الحضارات القديمة وبوجه خاص الحضارتين اليونانية والرومانية ، فان القاعدة العامة في تلك الحضارات ومنها حضارة وادي الرافدين ان يندر ذكر

(١) راجع عن هذه الالواح :

Wiseman "Assyrian Writing Boards" in IRAQ, 17 (1955), 3ff.

اسماء المؤلفين بوجه عام ومنها اسـماء مبدعي القطع الأدبية (١) ، وانه اذا جاء الينا بعض النصوص الادبية وهي مذيلة باسماء اشخاص فالغالب فيهم أن يكونوا نساخا او جامعين ، وقد يكون البعض منهم ،ولا سيما في حالة النسخ القديمة، مؤلفي القطع الأدبية او واضعيها او منقحيها بشكلها النهائي . ولعله يمكن تفسير هذه الظاهرة من اغفال اسماء المؤلفين والادباء بان القسم الاعظم من النتاج الأدبي في حضارة وادي الرافدين نشأ ونما على هيئة تراث قومي شاركت في انتاجه اجيال كثيرة من الشعراء ولم يتفرد بانتاجه اديب واحد على غرار مانعرفه في الآداب الحديثة ، ولعل شأنه في ذلك شأن الملاحم القومية المشهورة والقصص الشعبية مثل الف ليلة وليلة والالياذة والاوديسة اللتين تنسبهما المآثر اليونانية الى هوميروس .

وهناك بعض الحالات القليلة التي يرجح فيها ان يكون الاشخاص المذكورة اسماؤهم في ذيل بعض القطع الأدبية مؤلفي هـذه القطع نذكر منهـم الاسماء الآتية :

١ــ احد جامعي ملحمة جلجامش الذي ورد اسمه في احدى نسخ الملحمة على هيئـة « سـين – ليقي – اونني » (Sin-leqe-uninni) (٢) والمرجح أن الصيغة النهائية التي جاءت الينا فيها الملحمة تعزى الى هذا المؤلف من حدود ١٢٥٠ ق.م .

---

(١) انظر حول الموضوع :
Lambert, "Ancestors, Authors and Canonicity " in Journal of Cuneiform Siudies, x1 , (1957), 1ff.

(٢) انظر المصدر السابق (JCS x1 (1957,pl.11,l.10) حيث جاء إسمه في نسخنه في لوح من العهد السلوقي وجد في الوركاء (انظر تقرير التنقيبات عام ١٩٦٢ ص ٤٣) وعبارة : « طبق سين – ليقي – اونني » الكاهن من صنف « مشمشو (ماش–ماش) .

٢– مؤلف اسطورة اله الطاعون « إيرّا » وقد جاء اسمه بهيئة « كبتي – إيلاني – مردوخ » ، ويذكر هذا الشخص ان الاله « مردوخ » نفسه ظهر له في الحلم واملى عليه القصيدة ولما استيقظ دونّها بدون ان يضيف اليها او ينقص منها شيئاً .

٣– مؤلف ثالث يقترن اسمه بقطعة أدبية مشهورة سيأتي شرحها تصنف بما يصطلح عليـــه « العــدل الالهي » (Theodicy) ، وهي على هيئة حوار طريف مابين متشكك في العدالة الالهية وبين عبد صالح ، وقد ذكر اسمه بطريقة الصناعة الادبية اللفظية التي يطلق عليها مصطلح (acrostic) او (alleteration) وفحواها اننا اخذنا المقاطع الأولى من كل بيت من ابيات القصيدة وجمعناها بعضها الى بعض فانّها تؤلف اســم منشئ القصيدة مع مهنته ودعاء الى احد الآلهة نصها ؛ « انا ساكل – كينام – اوبب (Saggil-kinam-ubbib) الكاهن المعوّذ ، خادم الاله والملك » .

٤– ناسخ او مؤلف احدى قصص الطوفان البابلية المعنونة « اترا – حاسس» الذي ذكر بهيئة « كو – آي » ، من زمن احد ملوك سلالة بابل الأولى المسمى « عمّي – صادوقاً ».

• • •

الشعر والنثر الادبي

على ضوء ما اوردناه من ملاحظات تمهيدية عن ادب حضارة وادي الرافدين نتناول الآن الموضوعات الاساسية عن هذا الادب فنتكلم عن:

١ـ الشعر والنثر الادبي .

٢ـ المواضيع التي تناولها ذلك الأدب سواء كان شعراً أم نثراً وتعداد اشهر النصوص الأدبية التي وصلت الينا .

١ـ الشعر :

ستكون ملاحظاتنا عن الشعر في حضارة وادي الرافدين (١) منصبة بالدرجة الأولى على الشعر البابلي ، اي الشعر الذي نظمه شعراء العراق القديم باللغة البابلية (السامية) لأن معرفتنا باللغة البابلية وشعرها اكمل واوفى من معرفتنا بالشعر السومري ذلك لأن الباحثين مازالوا غير متأكدين من لفظ الكثير من الكلمات السومرية على الرغم من معرفتنا بمعاني الكثير منها ، ولذلك فلا يمكن الوقوف على اوزان

(١) لايسعنا الخوض في ماقيل من نظريات وآراء عن الشعر عندالانسان فيكفي التنويه بان الشعر كان على مايرجح اول مازاوله الانسان من الفنون الأدبية ، وان منشأه من الانشاد والغناء الشعبي . فالغناء على ما يذهب اليه معظم الباحثين ، أصل الشعر في جميع الآداب العالمية . ولعل مما يؤيد ذلك بالنسبة الى اللغات السامية ان كلمة شعر المستعملة فيها بما يطابق اللفظ العربي تقريباً ، تعني في اصل ما وضعت له الغناء والانشاد مثل « شيرو » البابلية و « شير » العبرانية و « شور » الارامية وكلها فقدت حرف العين ، ومن ذلك المصطلح العبراني « شير هشريم » (نشيد الانشاد المنسوب الى سليمان في التوراة) ،ومن قبيل هذا ماجاء في المآثر العربية عن اصل العروض والوزن في الشعر العربي انه من الغناء وحداء الابل ، والمصطلح الادبي المألوف في رواية الشعر :« وانشد فلان ». هذا ولا يعلم بوجه التأكيد علاقة الكلمة البابلية « شيرو » بالكلمة السومرية التي مرت بنا اي « سر » او » شر » (SIR) التي تعنى الغناء وقد سبق ان ذكرنا انها تصدر بها جملة قصائد شعرية سومرية من نوع الاغاني والترانيم ، فهل هي أصل الكلمة البابلية ثم الكلمات المضاهية في اللغات السامية الأخرى أم انها مأخوذة من الكلمة البابلية السامية التي هي الاصل .

الشعر السومري بحسب معرفتنا الراهنة . ويختلف الحال بالنسبة الى اللغة البابلية وشعرها بالنظر الى مانوهنا به سابقاً من وشائج القربى القوية ما بين اللغة البابلية وبين لغات سامية أخرى معروفة ومحكية في عصرنا الراهن ، وفي مقدمتها العربية والارامية والعبرانية . وسنقف على اوجه الشبه الكثيرة بين مبادئ الشعر البابلي والشعر العربي مثل الوزن وفن التأليف والنظم .

واذا تجاوزنا مناقشة ماهو الشعر وماهي اسسه ومقوماته ولا سيما في الاتجاهات الأدبية الحديثة ، فاننا نسير في تحديد مفهوم الشعر في النصوص الأدبية التي خلفتها حضارة وادي الرافدين على الأسس والمبادئ المأثورة (الكلاسيكية) المتبعة في دراسة الآداب العالمية وتصنيفها الى شعر ونثر أدبي ، ولاسيما المبادئ الاساسية الآتية : —

١ــ وجود الايقاع الخاص اي العروض والوزن (meter. rhythm).

٢ــ اتباع نظام خاص في تأليف هذا الكلام الموزون من حيث تقسيمه الى وحدات صغيرة وضم هذه الوحدات في مجموعات اكبر منها ، كالشطر والبيت والبيتين والاربعة ابيات والقصيدة . . .

٣ــ انتقاء مفردات لغوية خاصة بلاغية ، اي ما يسمى بالالفاظ الشعرية مــن ناحية الجرس اللفظي والمعنى بالنسبة الى مقاييس اللغة التي ينظم فيها الشعر . ويدخل ضمن هذا تركيب خاص في الكلام يختلف عن الاستعمالات المتبعة في النثر.

٤ــ الموضوع او المحتوى الذي يتناوله الشعر والتعبير عن ذلك بتعابير مؤثرة في السامع او القارئ .

٥ـ اما المبدأ الخامس وهو القافية (Rhyme) فلم يلتزم به في شعر حضارة وادي الرافدين ، فكان هذا الشعر ، سواء كان سومرياً أم بابلياً ، موزوناً ولكنه غير مقفى . والقافية ، على ماهو معروف ، ليست من الشروط الاساسية للشعر ؛ فهناك انماط من الاشعار العالمية القديمة والحديثة لم تلتزم القافية ، مثل الشعر اليوناني والعبراني واللاتيني ، وما يسمى في الادب الانجليزي بالشعر المرسل (Blank Verse) مثل الكثير من شعر شكسبير.

العروض في الشعر البابلي :ـ

يعتمد العروض ، أي الوزن ، في الشعر البابلي ، مثل اشعار بعض الامم الأخرى كالشعر العربي واليوناني واللاتيني وغيرها ، على مبدأ تجزئة الكلمات الى مقاطع (Syllables) التي تتناوب مابين المقاطع الطويلة والمقاطع القصيرة اي بحسب مصطلحات عروض الشعر العربي « الاوتاد » و « الاسباب » التي اساسها الحركة والسكون(*) ، وفي بعض الاشعار الأخرى النبرات او التشديد والتخفيف (accented, unaccanted) . وبجمع عدة مقاطع يتألف مايصطلح عليه في الشعر العربي « التفعـيلات » اي ما يضاهي (foot) في الشعر الانجليزي، ثم جمع عدة تفعيلات يتكون منها شطرا البيت . وعلى هذا الشكل جاء

(١) يعرف العروضيون السبب بان قوامه حرفان : ـ
أ ـ السبب الخفيف ، حرفان متحرك وساكن مثل « من » « عن » الخ .
ب ـ السبب الثقيل : حرفان متحركان ، « مثل « بك » « لك » الخ
اما الوتد فقوامه ثلاثة احرف :ـ
أ ـ الوتد المفروق ، حرف ساكن بين حرفين متحركين مثل » أين » « كيف » الخ
ب ـ الوتد المجموع : حرفان متحركان يليهما ساكن مثل « إلى » « على » الخ .

الينا الشعر البابلي مدوناً على الواح الطين . وقد يترك الكتبة فواصل مابين شطري البيت ، اي مابين الصدر والعجز ، وما بين الوحدات الشعرية الاكبر في بعض الاحايين .

اما عدد بحور الشعر البابلي (١) ومضاهاة هذه البحور لاوزان الشعر العربي فانه موضوع بحث خاص وطريف وجدير بالدرس من جانب العروضيين العرب ويكفي في هذه المقدمة التمهيدية ايراد بعض الابيات من القصائد البابلية الشهيرة . وقد سبق ان بدأنا هذه المقدمة بثلاثة أبيات من قصيدة المحاورة ما بين السيد وعبده . ونضيف الى ذلك نماذج اخرى نثبتها بلفظها البابلي بالحروف اللاتينية والعربية وترجمتها العربية :

١ ـ البيتان الاولان من قصيدة اسطورة الخليقة :

enuma elish la nabu shamamu
shaplish ammatum shuma la zakrat

وبالحروف العربية مع محاولة ارجاع الاصوات الحلقية المفقودة من البابلية والمرادفة للعربية :

---

(١) عن اوزان الشعر البابلي ولا سيما في ملحمة جلجامش واسطورة الخليقة راجع البحوث الآتية :-
De Liage Bohl, "La metrique de l'Epopee babyloienne" in Rencontre Assyriologique Internationle", v11, (1958)

وعن الشعر السومري والبابلي بوجه عام وقدم هذا الشعر :

Falkenstein und Von Soden, Sumerische und Akkadische Hymnen und Gebete, (1956).
Hallow, "The Cultic Setting of The Sumerian poetry" in Rencontre Assyrilogique. . . " xv11, (1969) 116ff.
Hallow, "On The Antiquity of Sumerian Literature" in JAOS, (1963), 167ff.

حينّما عيلش لا نَبوُ شَمَامو

شَابِلْيش أمتَّـم شومُـَا لازكرة

وترجمتها : حينما في العلا لم ينبأ عن السماء (لم تسّم باسم) وفي الاســفل لم تذكر الارض باسم .

٢ــ ونأخذ مثالا آخر من ملحمة جلجامش ، وهي الابيات المتضمنة خطاب صاحبة الحانة الى جلجامش مبينة له عبث مايسعى اليه من نيل الخلود :

sabitum ana shshum izakkara ana Gilgamesh
Gilgamesh esh Tadal
baltam sha Tasahhura la Tutta
inuma ilani ibnu awilitam
matam ishkunu ana awilitin
baltam ina qatishunis issabtu
atta Gilgamesh lu mali karashka
urri u mushi hiddadu atta

وتأدية اصواتها بالحروف العربية ــ

سابيتُـم أنا شاشُـمْ إزّ كرًا أنا جلجامش

جلجامش إيش تدال

بَلطَـمْ شاتسخورا لاتُتّـا

حينُما إيلاني إبنو اويليتَمْ

ماتَـم إشكونوا أنا اويليتِـمْ

بَلطَـم إنا قاتيشيونو إضّبطوا

أتَـا جلجامش لو مَـلئى ْكرَ شـْكا

اورّى و موشى خـَدَّادو أتـّا

وترجمتها :

قالت صاحبة الحانة سابيتُـم(١) لجلجامش

ياجلجامش أي شيئ ٌتسعى اليه ؟

الحياة التي تنشد لن تجدها

فحينما خلقت الآلهة البشرية

قدرت الموت على البشرية

وضبطت الحياة بايديها

فانت ياجلجامش ليكن كرشك مملوءاً

وافرح نهار مساء

٣ـ ونورد نموذجاً ثالثاً من خطاب جلجامش الى الصياد حين أمره أن ينطلق الى « انكيدو » ويصطحب معه بغياً لاغرائه واستدراجه من البادية الى مدينة الوركاء حيث يحكم جلجامش :

alik sayyadi itti-ka harimtu shamhat urima
enuma bulam ishaqu ana mashqe
shi lishhut lubushi-sha-ma lipta quzub-sha
immar-shi-ma itihha ann shashi
inakkirsuh bul-shu sha irbu eli seri-shu

وفي الحروف العربية

ألـَك صيـّادي إتـّيكا خارمـْتمُ شمخة أوُرما

(١) سابينو (سابيم) ، بائعة الخمر ، من مادة « سبأ » ، « والعربية » سباء بائع الخمر .

حِينما بولمْ إشاقو أنا مَشْقى

شيي لِشخطْ لبوشيشاما لِفْتحَ قُضُبْنا

إمّا رشَيما إطخّا أنا شاشي

إنكرٌ شو بُو لُشو شا إرْ بّوُ علي صِيريشُو (صَحْرِ يشو)

وترجمتها :

انطلق ياصيادي واصطحب معك بغياً مومساً (١)

حينما (يأتي) ليسقي الحيوانات من المسقى (مورد الماء)

لتخلع لباسها وتكشف (تفتح) عن عورتها (قضيبها)

فاذا ما رآها وقع عليها (طاح عليها)

وعندئذ ستنكره حيواناته التي ربيت في صحرائه

ونختتم هذه الملاحظات الموجزة عن الشعر البابلي بذكر بعض الامور الأخرى الموضحة مما يتعلق باسلوب تأليف الشعر واجزائه . فبعد تأليف البيت الواحد بجمع عدة تفعيلات ، كما ذكرنا، كان الناظمون يجمعون جملةأبيات لتأليف وحدات شعرية اكبر، بعضها من بيتين (دوبيت Couplet) أو اربعة ابيات (الرباعيات) Quartet وبعضها من اكثر من اربعة أبيات مثل الدور او الموشح . Stanza

والغالب أنهم كانوا يراعون في هذا الجمع والتأليف وحدة المعنى ، مثل توضيح فكرة خاصة او تكميلها او توكيدها . فقد يكون معنى البيت الثاني في الدوبيت مكملا او موضحاً لمعنى البيت الأول او رجعاً وصدى لمعناه كما في البيتين التاليين

(١) تترجم كلمة « شمخة » في الغالب مومس ، وقد ارتأيت في ترجمتها في الطبعة الثانية من ملحمة جلجامش (وزارة الاعلام ١٩٧١) بانها اسم علم للبغي كما ذهب الى ذلك احد الباحثين انظر .
C. Gordon, Before The Bible, (1962),

من ملحمة جلجامش : (١)

« صرخت عشتار كالمرأة في الولادة »

« انتحبت سيدة الآلهة بصوت شجي »

وقد يكون من المفيد ان نورد هذين البيتين بلفظهما البابلي في الحروف اللاتينية والعربية :—

Isishshi Ishtar kima aliddi
unamba belit- " Ilani Tabat rigma

« إسيشيّ عشتارِ كما آليدّي
أونمبْا بَعْلة إيلاني طابت رِكمَا »

او ان يكون البيت الثاني مغايراً ومفارقاً لمعنى البيت الأول تمهيداً لتدرج موضوع القصيدة العام ، والمثال على ذلك البيتان الأولان من اسطورة الخليقة اللذان استشهدنا بهما في شرح عروض الشعر البابلي اي :

« حينما في العلا لم ينبأ عن السماء

« وفي الاسفل لم تذكر الارض باسم »

وللمثال على وحدة معنى الابيات الأربعة اي الرباعيات نقتبس الرباعية التالية من اسطورة الخليقة ، وهي الابيات التي جاءت على لسان الالهة « أبسو » ، زوج الالهة « تيامة » في تبرير عزمه على القضاء على ابنائه من جيل الآلهة الحديثة إذ يقول :—

امرضتني اعمالهم
فلا استريح نهاراً ولا استطيع النوم في المساء

(١) في هذا الاسلوب من النظم والتأليف اثر واضح من الشعر السومري ، وهو موضوع لامجال للخوض فيه في هذه المقدمة التمهيدية ، على ان القارئ سيقف على هذا الامر من الامثلة المترجمة التي سنوردها لبعض القطع الشعرية السومرية .

لاقضين عليهم واضع حداً لاعمالهم

لكي يعم السكون فنستطيع النوم »

وبلفظها البابلي :

imtaras alkat-sunu elia
urra la shupshuhak mushi la sallak
lushhaliq-ma alkat-sunu lu shappik
qulu lishshakin i nislal ninu

وبالحروف العربية

« إمترص ألكات—سونو عليا

أورًّا لا شيشوخاك، موشى لا صَّلاك

لُشْخالِقْ— ما ألكْاتْ — سونو لو شَپّكْ

قولو لِشّاكنْ إي نِصْلاَل نِينُو (نحنُ)

لغة الشعر والتعبير الشعري

بالاضافة الى ماسبق ان اوجزناه من الخصائص الاساسية التي تميز الشعر البابلي كالعروض وطريقة التأليف والجمع والتعبير اللغوي الخاص ، فان هذا الشعر يشارك الاشعار العالمية الأخرى في الخاصية الأخيرة ، أي اختيار الالفاظ الشعرية المعبرة . ولكل لغة مفرداتها والفاظها واستعمالاتها الشعرية المتعارف عليها بين ابناء تلك اللغة . كما ان الكلام الشعري ، على ماهو معروف في الشعر العربي والاشعار، الأخرى يتميز في نمط تركيبه عن الاساليب المتبعة في النثر ، ومن ذلك التحرر نوعا ما من الالتزام بقواعد التركيب في لغة النثر والتحلل من الكثير من قيوده ، كالتقديم والتأخير في أجزاء الكلام لاحداث الانطباع او التأثير الشعري الخاص ولضرورة الوزن ، حيث كما قيل «يجوز في الشعر مالا يجوز في النثر»

وهنا قد يتساءل القارئ كيف نستطيع أن نميز التراكيب والمفردات الشعرية في أدب العراق القديم وقد مضى على النتاج الادبي الذي جاء الينا من القوم الوف كثيرة من السنين تبعدنا عن تفهم اذواق ذلك العصر اللغوية الأدبية ؟

إن هذا التساؤل يمكن ان يثار أيضاً بالنسبة الى اشعار الكثير من الامم القديمة الأخرى والاجابة عليه بالايجاز ان التعرف التام على تلك الحضارة والالمام باسرار اساليبها اللغوية واتباع منهج المقارنة بين الاساليب النثرية وبين الاساليب الشعرية كل هذا يمكن الباحث المختص من ان يتميز ما بين الاسلوبين الشعري والنثري الاعتيادي المستخدم في النصوص الكتابية الأخرى مما جاء الينا من مدونات حضارة وادي الرافدين . ولعل اوضح مثال نختاره لتوضيح هذا الامر الاستشهاد بنصوص وثيقة تأريخية مشهورة في تأريخ العالم ، هي شريعة حمورابي (١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م) ، والسبب في هذا الاختيار اننا نجد الاسلوبين الشعري والنثري و هما مستعملان في الوثيقة نفسها . فكما هو معروف تنقسم هذه الشريعة الى ثلاثة اجزاء متميزة هي :

١– مقدمة الشريعة (Prologue)

٢– مواد الاحكام القانونية .

٣– خاتمة الشريعة (Epilogue) .

ففي الجزء الثاني ، أي القسم المخصص لمواد الاحكام، نقف على اسلوب الصياغة النثرية من حيث الالتزام بقواعد تأليف الكلام وفق قواعد اللغة الاكدية في عصرها البابلي القديم (الألف الثاني ق.م) . ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة ان العرف الجامعي جرى على تدريس مبادئ اللغة البابلية للمبتدئين بتدريسهم هذه الشريعة من الناحية اللغوية حيث الانتظام والاطراد في التزام قواعد هذه اللغة.

وبالمقابلة مع الاسلوب اللغوي الخاص بقسم مواد الاحكام من الشريعة ، نجد لغة القسمين الآخرين اي المقدمة والخاتمة تختلف اختلافاً بيناً عن لغة القسم الأول لأنهما دونا بالاساليب الشعرية سواء كان ذلك في انتقاء الالفاظ الشعرية – وبعضها الفاظ قديمة – أم في فن التأليف وتركيب الجمل من تقديم وتأخير أم من ناحيــة المعنى العام والتعبير الشعري المؤثر . وبعبارة أخرى ان مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها قد دونتا باسلوب النثر الادبي او الشعري الذي لايلتزم بالوزن والعروض ، كما لايتقيــد بما ذكرناه من اســاليب النظم او التأليف الشعري في وحدات كالبيت والبيتين والاربعة أبيات .

وبالاضافة الى ما استشهدنا به من مقدمة شريعة حمورابي وخاتمتها بكونهما نثراً شعرياً، خلف لنا أدباء العراق القديم نصوصاً أخرى في النثر الشعري او النثر الادبي تفوق في روعة اسلوبها وتعبيراتها المؤثرة ووصفها التصويري الكثير من القطع الشعرية الصرفة ، ومن قبيل هذه النصوص بعض ما يسمى بالنصوص الملكيــة (Royal Inscriptions) ، ولا ســيما حوليات الملوك واخبار حملاتهم الحربية . فقد حوى الكثير منها قطعاً ادبية اجمع النقاد على انها ، كما بينا ، من اروع ما خلفته الآداب القديمة في براعة الوصف والتعبير ، مثل وصف الاماكن والمشاهد الطبيعية كالجبال والغابات والاهوار والبوادي والصحاري والتصوير البارع لاحتدام القتال والمعارك واشتراك الآلهة في القتال في بعض تلك المعارك ، على غرار مانجده في الملاحم البطولية من الادب اليوناني . ولايسعنا في هذه المقدمة الموجزة ايراد تراجم لبعض هــذه القطع الأدبية فنكتفي على ســبيل الاســتشهاد بذكر وصــف احــدى المعــارك الواردة في كتابات الملك الآشوري « سنحاريب » (القرن السابع ق.م) ، وهو وصف يفوق في

روعته وبراعته شعر اسطورة الخليقة في وصف النزال ما بين الاله « مردوخ » والالهة « تيامة » . ونستشهد ايضاً بالوصف المؤثر الوارد في اخبار مايسمى بالحملة الثامنة للملك الآشوري سرجون (٧٢١–٧٠٥ ق.م) على بلاد ارمينية واذربيجان ووصف البوادي والصحاري ورهبتها وحيواناتها الوارد في اخبار حملات الملك الملك الآشوري اسرحدون (٦٨٠–٦٦٩ ق.م) على بعض القبائل العربية(١)

وقد اعتاد الملوك الآشوريون ان يصحبوا في حملاتهم الحربية ، بالاضافة الى المهندسين والآت الحرب والعربات الحربية الضخمة ، عدداً من الكتاب لتسجيل سير المعارك ، وان اولئك الكتاب الادباء المجهولة اسماؤهم الذين خلفوا لنا تلك القطع الا دبية الرائعة مما سميناه بالنثر الادبي او الشعري . وقد صور بعض هؤلاء الكتاب في المنحوتات الآشورية المشهورة التي مثلت الحملات الحربية وانتصارات الجيوش الآشورية . هذا ولم يتفرد الكتبة الآشوريون في براعة وصف المعارك والقتال ، فان زملاءهم من الكتبة البابليين خلفوا لنا ايضاً نماذج من النثر الشعري في تصوير زحف الجيوش واهوال السير واحتدام المعارك ، نذكر على سبيل المثال الحملة التي دونها الملك البابلي ، نبوخذ نصر الاول (١١٢٤–١١٠٣ق.م) في غزوه بلاد عيلام ، وقد دونت احداثها في ما يسمى احجار الحدود (كدورو)

(١) عن ترجمة الحوليات والحملات الحربية الآشورية راجع المصادر الاساسية التالية :–

1. pritchard (ed.), Ancient Near Eastern Texts (3rd,ed.1969)
2. Thureau-Dangin. Une relation de la huiutie me Campagne de Sargen .
3. Luckenbill, The Annals of Sennacherib
4. ———, Ancient Records of Assyria and Babylonia (1927)
5. C.Thompson, The Annals of Esarhaddon and Ashurbanipal

(kudurru) (١) ، وقد تضمن النص بالاضافة الى القطائع والامتيازات التي منحها هذا الملك الى أحد قواده المسمى « رِتّي – مردوخ » وصفاً ادبياً ممتعاً نقتبس منه العبارات التالية : «من دير (٢) ، مدينة الاله « آنو » المقدسة قفز مسافة ثلاثين « بيرو » (ساعة مضاعفة) وسار في الطريق في شهر تموز. لقد احترقت النصال وتوهجت كأنها النار . وتوهجت احجار الطريق كأنها الافران الحامية . جفت الآبار وترنح حتى الابطال الشباب . ورغم ذلك سار في الطريق قدماً الملك المختار ، المصطفى ، المسند من الآلهة . اجل ! حث الخطى نبوخذ نصر الذي لايضارعه أحد . . . »

* * *

---

(١) انظر :–

King, Babylonian Bondary Stones, (1912), No. 1v p.29ff

(٢) مدينة « دير » وتدعى ايضاً « دور – إيلو » مدينة شهيرة في تأريخ العراق القديم ، تقع بقاياها بالقرب من بدرة على الحدود العراقية – الايرانية (الحدود البابلية – العيلامية القديمة) ، وتعرف خرائبها باسم تلول العفر .

الموضوعات التي تناولها أدب العراق القديم
وأشهر نصوص هذا الأدب

سبق أن نوهنا بأن أدب حضارة وادي الرافدين، سومرياً كان أم بابلياً، وبكلا نوعيه الشعر والنثر الادبي، قد تناول موضوعات عديدة كانت تشغل تفكير القوم في حياتهم العامة والخاصة مثل نظرتهم الى الكون والحياة وأصل الوجود والاشياء وآرائهم فيها ، والمجتمع الانساني ومشاكله وسلوك الفرد والقيم الاجتماعية ، وحياتهم الروحية والعاطفية ، ومشكلة الموت وما بعد الموت والخلود ، وقضية الخير والشر ، والعدل الالهي (Theodicy) مع وجود الشر ، الى غير ذلك من الموضوعات التي لاتقتصر أهميتها على أنها خير ما يصور لنا حضارة وادي الرافدين بجميع اوجهها ومقوماتها وفي ادوار ازدهارها وحيويتها وركودها وازماتها ، بل هي كذلك على قدر عظيم من الأهمية في تأريخ تطور الانسان ، لانها كما ذكرنا ، كانت أولى واقدم محاولات من نوعها في تأريخ النوع الانساني عبرت عن الخبرات الانسانية الأولى من بعد انتقال الانسان الى طور الحضارة والمدنية في وادي الرافدين ووادي النيل في مطلع الألف الثالث ق.م .

ولكن رغم ان هذا النتاج الادبي كان ، كما قلنا ، اقدم واول محاولة في تأريخ الآداب العالمية ، فان مما يعجب له بل يبعث الدهشة في القارئ الحديث ان يجد هذا الادب قد انتج قطعاً أدبية تتسم بالصفات المميزة للادب الاصيل المبدع مهما كانت المعايير التي تقاس بها ؛ وسيقف القارئ بنفسه على هذه الميزات من

النصوص الادبية التي سنعددها . ولكن قبل أن نبدأ بهذا الوصف ولكي يدرك القارئ المدى الواسع التي اشتملت عليه تلك الموضوعات نصنفها بحسب الابواب الرئيسة التالية :-

١- الخليقة واصل الوجود والاشياء :

ويأتي في مقدمة هذا الموضوع أصل الكون والآلهة والاشياء وخلق الانسان واصل العمران ، ويدخل معظم هذه الموضوعات في علم الاساطير (Mythology) تحت المصطلحين : أ- اصل الكون (Cosmogony) ب - اصل الآلهة (Theogony)

٢- الملاحم واعمال الابطال والآلهة واشباه الآلهة ، أي ما يصطلح عليه « أدب البطولة والملاحم ». (Epic literature)

٣- قصص الطوفان (Flood or Deluge Legends)

٤- اساطير ما بعد الموت او عالم الارواح او العالم الاسفل (Netherworld, Eschatology)

٥- أدب الحكمة (Wisdom Literature) ، ويدخل في هذا الباب الحكم والامثال وموضوع الخير والشر وعدل الآلهة (Theodicy)

٦- أدب المفاخرة والمناظرة (Disputation) ، والحوار (Dialogue)

٧- أدب السخرية والفكاهة (satire) وقصص الحيوان (fables)

٨- ادب الرثاء ، ولا سيما رثاء تدمير المدن ومراكز العمران (Lamentation)

٩- أدب الغزل والحب

١٠- الصلوات والتراتيل والادعية والترانيم . (prayers, Hymns)

أساطير الخليقة وأصل الاشياء

١– اسطورة الخليقة البابلية :

جاءنا عن موضوع الخليقة وأصل الوجود والأشياء وخلق الانسان نصوص أدبية متعددة ومتنوعة ، بعضها باللغة السومرية وبعضها باللغة الأكدية ، ومن ادوار مختلفة في حضارة وادي الرافدين ، ولاسيما منذ مطلع الألف الثاني ق.م من العهد الذي اطلقنا عليه العصر البابلي القديم والذي تميز بما ظهر فيه من نشاط أدبي واسع في حقل التدوين والتأليف والترجمة من السومرية الى البابلية (١) . وكان موضوع الخليقة وأصل الاشياء في رأس القضايا التي شغلت تفكير القوم فعالجوها بالاسلوب « الاسطوري – الشعري » (Methopoetic) ونشأ عن ذلك آراء وعقائد متعددة ومختلفة .

ومما يقال عن اساطير الخليقة المدونة باللغة السومرية (٢) انها قصيرة والكثير منها ناقص غير كامل ، ولكن البابليين (الساميين) الذين اسهموا بنصيب وافر في بناء حضارة وادي الرافدين واخذوا الشيئ الكثير من التراث السومري (خلفوا لنا اطول واشهر قطعة أدبية عن هذا الموضوع وهي الاسـطورة التي عرفت بين الباحثين باسم قصة او اسطورة الخليقة البابلية ، وتعرف أيضاً بعنوانها البابلي « حينما في

---

(١) عن خصائص هذا العصر الحضارية المهمة راجع ايجاز ذلك في كتابي : « مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة » الجزء الأول ، الطبعة الثالثة (١٩٧٣) .

(٢) سيرد ذكر المصادر الاساسية عن ترجمات هذه النصوص في اثناء كلامنا على النصوص المختلفة ، ويجدر ان نشير الى التراجم العربية في مجلة « سومر » المجلد الخامس (١٩٤٩) والمجلد السادس (١٩٤٩) والمجلد السابع (١٩٥٠، ١٩٥١) .

العلا » وباللغة البابلية « إينما إيليش » او « حينما عليش » (enuma elish) وقد يسميها بعض الباحثين «رقم الخليقة السبعة » (The Seven Tablets of Creation) لانها جاءت الينا مدونة بالشعر البابلي على سبعة الواح من الطين ، يحتوي كل لوح منها مابين ١١٥ و ١٧٠ سطراً او بيتاً من الشعر ، ومجموع ابياتها نحو الف بيت وقد عثر على معظم الواحها في مكتبة الملك الآشوري « آشور بانيبال » في نينوى ، كما وجدت اجزاء منها في مدينة « آشور » (قلعة الشرقاط)، ووجد لها نسخ أخرى اقدم في المدن القديمة من بلاد بابل من العصرين البابلي القديم والبابلي الحديث . ويرقى زمن آخر تدوين لها الى اواخر العصر البابلي القديم واوائل العصر الكشي لعله مابين ١٤٠٠ و ١٥٠٠ ق.م . وتستند الاسطورة البابلية الى اصول سومرية اقدم عهداً . اما موضوعها الاساسي فانه يدور على تمجيد « مردوخ » إله بابل ، وتبرير تعاظم شأنه منذ آن صارت مدينة بابل عاصمة امبراطورية حمورابي الواسعة (١٧٩٢—١٧٥٠ ق.م) .

لقد نظمت الاسطورة شعراً ، كما قلنا ، ولكنها من الناحية الشعرية دون مستوى ملحمة جلجامش ، بل ان بعض القطع من النثر الادبي تفوقها في براعة التعبير وروعة التصوير ، وقد ضربنا مثلا لذلك بوصف بعض المعارك في اخبار الحملات الحربية الآشورية . ويرجح أن القصيدة كانت تتلى او ترتل بالحان خاصة إبان عيد رأس السنة البابلية (آكيتو) (Akitu) الذي كان يحتفل به اوائل شهر نيسان ، كما يحتمل انها كلها أو بعض مشاهدها كانت تمثل على هيئة مسرحية او دراما ولا سيما الاحداث التي تدور على تغلب الاله « مردوخ » على قوى الشر والعماء الممثلة بالآلهة العتيقة ، واحلال النظام في الكون ثم خلق الانسان ونشوء العمران .

وستتضح من الملخص الذي سنورده هنا عنها أهميتها البالغة في تأريخ حضارة وادي الرافدين من حيث عقائد القوم في اصل الوجود والآلهة وخلق الانسان، بالاضافة الى أنها تصور جوانب مهمة عن احوال المجتمع من النواحي السياسية والاجتماعية ونظريتهم في اصـــل نظام الحكم والملكية، واحوال البيئة الجغرافية وفوق هذا فللاسطورة اوجه أخرى من الأهمية عن العقائد الخاصة بالخليقة واصل الاشياء في الحضارات الأخرى القديمة. فقد اجمع الباحثون على وجود اوجه شبه اساسية واقتباسات كثيرة منها في عقائد الامم الأخرى ولا سيما العبرانيين كما جاء في التوراة، وهناك مواطن شبه لايشك فيها في اساطير اليونان المتعلقة بأصل الكون والاشياء والآلهة.

ملخص الاسطورة:

لما كان يتعذر ايراد ترجمة كاملة للاسطورة في هذه الدراسة التمهيدية العامة عن أدب العــراق القديم، ولانني ساقدم دراســات أخرى تتضمن ترجمات كاملة لاشهر النصوص الادبية كما فعلت في ملحمة جلجامش فاننا سنقتصر فيما يلي على ترجمة اجزاء مختارة منها وعرض الاجزاء الأخرى تلخيصاً (١):

(١) اول من ترجم بعض اجزائها الباحث القديم «جورج سمث» في عام ١٨٧٦ بعنوان: «رواية التكوين الكلدانية»:

G. Smith, The Chaldean Account of Genesis (1876)

واعقب ذلك ترجمة الباحث الالماني «بيتر ينسن»

Peter Jensen, Die Kosmologie der Babylonier

ثم تعاقبت الدراسات والترجمات الأخرى نذكر من اشهرها:

Delitszch, Das Babylonishe Weltschöfungs Epos (1896)

ثم ترجمة انجليزية مع الفاظها البابلية ونصوصها المسمارية (المنشورة في CT,XIII

L. W. King, The Seven Tablets of Creation (1902)
S. Langdon, The Babylonian Epic of Creation (1923)
Deimel, Enuma Elish (936)
Labat, La poem babylonian de la Creation, (1936)
A. Heidel, The Babylonian Genesis (1942, 1951)
Speiser in Ancient Near Eastern Texts, (1950,1955,1969)

والى العربية في مجلة «سومر» (١٩٤٩).

« حينما في العلا لم يُنْبأ عن السماء
« وفي الدنى (الاسفل) لم تذكر الارض باسم
« وحين كانت مياه أبسو »(الموجود الأول) ، والدهم
« والأم تيامة » والدة جميعهم ، واحدة مختلطة
« ولم يكن قد وجد أيٌّ مرعى ولا يرى اي شيئٌ حتى هور قصب
« حينما لم يظهر الى الوجود أي من الآلهة
« ولم تذكر اسماؤهم ، ولا خصصت وظائفهم واقدارهم
« ثم وجد الآلهة في وسطهما (اي وسط أبسو وتيامة) :
« جاء الى الوجود « لَخْمُو » و « لخامو » ، ودعيا باسميهما
« وقبل ان يبلغا اشدهما ويطولا قامة
« جاء الى الوجود « أنشار » و « كيشار » ، وفاقاهما بسطة في الجسم
« ثم تعاقبت السنون وتلتها الايام
. . فجاء الى الوجود « آنو » ، بكرهم ووريثهم ومنافسهم
« أجل صار آنو « بكر أنشار » ، يضارع أباه
« ثم ولد « آنو » نودمند (إيا) شبيهه
« صار « نودمد » سيد آبائه
« كان واسع الفهم ، شديد الحول والقوة
« اجل اصبح اشد حولا من جده « أنشار »
« ولم يكن له مثيل آخر بين اخوته الآلهة
« كان الاخوة الاقداس يتجمعون معاً
« ويقلقون « تيامة » ، و يهاجمون حاميهم (أبو)

« اجل صاروا يعكرون بطن « تيامة » وهم في حركة وصخب في المسكن المقدس
« لم يستطيع « أبسو » ان يقلل من ضجيجهم
« أما « تيامة » فانها سكتت ولم تحرك ساكناً ازاء صنيعهم
« مع أن اعمالهم كانت مؤلمة ، وصنيعهم شائناً
« وعندئذ استدعى « أبسو » ابو الآلهة العظام،وزيره ممو » وقال له « يا ممو »
ياوزيري المطيب كبدي ، هلم نذهب الى تيامة »
« فذهبا الى « تيامة » وقعدا قدامها ، وتشاوروا في أمر الآلهة ، أبنائهم .
فتح أبسو فاه وقال لتيامة بصوت عال :
« لقد امرضتني اعمالهم
« فلا استطيع الراحة في النهار ولا النوم في المساء
لاقضين عليهم وأضع حداً لاعمالهم
لكي يعم السكون فنستطيع النوم »
ولما ان سمعت « تيامة » ذلك ، غضبت وصرخت بزوجها .
ادركت في قلبها ما يبيت من شر وخاطبت « أبسو » :
علام نخرب ما او جدنا نحن بانفسنا ؟
حقاً إن صنيعهم يسبب الالم والمرض ، ولكن لنصبر على ذلك ونتحمله عن طيب خاطر . (١)

ولكن «أبسو» وقد سانده وزيره «ممو » لم ينثن عن عزمه في القضاء على أبنائه من جيل الآلهة الحديثة ، ولما علم هؤلاء الآلهة بما بيّته لهم ابوهم من شر ودمار اضطربوا وجزعوا ، واخذ يتراكضون على غير هدى ؛ ثم هدأوا اخيراً واستكانوا

(١) تنتهي هنا الترجمة سطراً بسطر ، ويبدأ من هذا الموضع التلخيص والايجاز .

وجلسوا صامتين يائسين لايدرون مايفعلون للنجاة من الهلاك المحدق بهم . ثم انبرى من بينهم الاله « إيا » المتبحر في المعرفة والحكمة . فخط دائرة سحرية حول اخوته الآلهة ليحميهم من الهجوم والفتك ، وألف تعويذة سحرية قوية التأثير تلاها على « أبسو » فحل به في سبات عميق وشل عن الحركة، فانتزع منه تاج الالوهية وجلالها ومجدها واستحوذ عليه ، ثم قتله وسجن وزيره « ممو » وابتنى في الـ « أبسو »(١) بيتا له وسكن فيه هو وزوجته «دام – كِنّا » ؛ وفي حجرة الاقدار والمصائر ولد ابنهما « مردوخ » ، وربي على الرضاعة من اثداء الالهات وسرعان ما شب واكتسب « جلال » الالوهية الصاعق المخيف ، وقوي عود جسمه وصار ثاقب النظر براق العينين حديدهما ، هائل الاعضاء والجوارح ، يعسر ادراكه على البشر ولا يمكن النظر اليه، له « اربع عيون واربع آذان ، ينبعث اللهب حين تتحرك شفتاه واستطالت آذانه الاربع واتسعت عيونه الاربع ، فصار يرى كل شيء ، اكتسى بنور الالوهية واكتسب الجلال الذي يبعث الرعب » .

اما تيامة فانها لم تنس مقتل زوجها « أبسو »، وحرضها على الثأر له بعض الآلهة العتيقة ، يتزعمهم « كنكو » ؛ فاستجابت « تيامة » للتحريض وعبأت جموعها واعلت من منزلة « كنكو » وجعلته زوجها ، وولدت مخلوقات غريبة مخيفة مثل الافاعي والتنانين الهائلة ؛ وعهدت الى « كنكو » قيادة جموعها وزودته بالواح الاقدار والمصائر . ولم يفطن الآلهة الحديثة الى مابيتته لهم امهم « تيامة » من شر إلا حين اوشكت على الهجوم . ولما ادرك الاله « إيا » الهلاك المحدق بجيل الآلهة الحديث تملكه اليأس والرعب ، ولما ان زال اضطرابه قصد جده « انشار » وابلغه ما عزمت عليه « تيامة » ؛ فحرض « انشار » حفيده « إيا » على

(١) اعتقدوا في « أبسو » انه كان الها وفي الوقت نفسه المياه الأولى ومياه العمق، ولذلك سمى معبد الاله « إيا » بيت العمق أي « إي – أبسو » .

أن يتصدى لنزالهما ،ولكن البطل « إيا » الذي قضى على « ابسو » جبن واحجم عن التقدم ؛ ثم طلب « انشار » من الاله « آنو » ان يكون رسول مصالحة وسلام الى « تيامة »، فذهب ولكن لم تنجح محاولته السلمية معها وعاد يملكه الرعب ، وعندئذ عم الخوف والوجوم جميع الآلهة ، وعقد الصمت لسان « انشار » ؛ وجلس معه الآلهة وهم صامتون خائفون وبينما كان آلهة السماء في هذه الازمة العصيبة عنت لانشار فكرة سعيدة اذ تذكر مايتصف به احد احفاده وهو « مردوخ » من بسالة ومهارة ،فاستدعى « ايا » ابنه « مردوخ » واعلمه بخطة الآلهة . فقبل مردوخ الاضطلاع بهذا الدور الجسيم ، ولكنه طلب جزاء ذلك ان يتبوأ السلطة العليا المطلقة على جميع الآلهة ، فوافق على ذلك ابو الآلهة « انشـــار » ؛ولكن لما كان منح « مردوخ » تلك الســلطة خارج صـــلاحيته اقتضى الامر دعوة الآلهة الى عقد مجلس الشورى ، فاستدعى الآلهة للاجتماع ولما انتظم عقدهم قبّل أحـــدهم الآخر ، وقبـــل أن يتشاوروا في الامر جلسوا الى وليمة عامرة ، اكلوا فيها وشربوا فذهب عنهم خوفهم وانشرحت صدورهم بتأثير الخمر الجيد الذي احتسوه . وبعد ان فرغوا من الوليمة اقاموا منصة لمردوخ ؛ فجلس عليها الأله الشاب قدام آبائه واجداده ليتسلم منهم السلطة إذ اجمعوا على نقل سلطاتهم وزعامتهم اليه ، وفوضوه تقدير المصائر والاقدار واعلوا سلطانه وجعلوه يضاهي سلطان « آنو » وارادته لاترد ولاتبدل ، وتوّجوه ملكاً عليهم وعلى جميع الكون ولكي يطمئن الآلهة الى ان «مردوخ» حصل على هذه السلطة المطلقة وضعوا في وسطهم رداء ، ولما ان فاه مردوخ بكلمة منه اختفى الرداء ،

وبكلمة أخرى نطق بها عاد الرداء ،(١) ولما ان تحقق الآلهة من اكتساب مردوخ القدرة المطلقة هتفوا قائلين : « حقاً إن مردوخ ملك » ! وقدموا له الخضوع والولاء بصفته ملكهم ، وقلدوه شارات الملوكية: الصولجان والتاج والجلباب ؛ وقلدوه السلاح الذي لا يقهر ، وحرضوه على قتال « تيامة » فأخذ الاهبة للنزال الرهيب وصنع لذلك قوساً وسهماً وكنانة وامسك هرواة بيده اليمنى وساق العاصفة والبرق امامه ، واحاط جسمه بنور وهاج ، وهيأ شبكته ، فحملتها له الرياح الاربع واهاج عواصف الامطار ، وركب مركبته « العاصفة الرهيبة » تجرها اربعة مخلوقات مخيفة هي : « المدمر » و « القاسي » و « المحطم » و « الطائر » . وكان يلبس درعاً من الزرد . ولما ان اقترب من جموع « تيامة » بقيادة «كنكو» صعقت من جلال الوهيته المرعب ومنظره الرهيب واسلحته الفتاكة فهربت ، ولكن تيامة ثبتت امامه واخذت تقذفه بالسباب والشتائم ولما ان تقدمت لمبارزته نشر شبكته واصطادها بها ، ولما فتحت فاها لا بتلاعه ساق في فمها الريح الشريرة فمنعها من اطباق شفتيها ، وسلط عليها الرياح الأخرى فانفتح جسمها وعندئذ بادرها بسهم رشقه في فمها الفاغر ، فاصاب قلبها (٢) وقضى عليها ووقف على جثتها منتصرا . ولما ان رأى بقيةاتباعها من الآلهة نتيجة المعركة هموا بالهرب ولكن مردوخ

---

(١) من الباحثين من يرى أن سبب وضع الرداء كان لامتحان قوة « مردوخ » السحرية ، ولكن توجد اعتبارات فنية أدبية بالاضافة الى الناحية السحرية . فقد ادخل ناظم القصيدة نوعاً من الصناعة اللفظية ولاسيما الجناس اللفظي المشتمل عليه اسم « مردوخ » الذي يكتب بمقطعين من العلامات المسمارية ، يعنى المقطع الأول وهو « مار» او « أمار » ، بالاضافة الى « ابن » ، وضع ، خلق افنى . ويعنى المقطع الثاني « دوك » رداء او لبس رداء .

(٢) حول اوجه الشبه بين قتال مردوخ لتيامة وبين ماورد في التوارة (سفر حبقوق ، الاصحاح الثالث) انظر البحث الآتي .
W.A. Irwin, "The Mythological background of Habakkuli chap.3" in Journal of Near Eastern studies, xv, (1956), 47ff

لم يدع احداً يفلت منهم حيث اسرهم وسجنهم وانتزع من قائد جموعها « كنكو » لوح الاقدار وختمه بختمه وعلقه في صدره ، ثم عاد الى جثة « تيامة » ففلق رأسها بهراوته الضخمة وقطع اوردة دمها ، وجعل الريح الشمالية تحمل دمها الى الجهات الجنوبية النائية ، ثم شطر جثتها الضخمة شطرين خلق منهما الكون ، إذ جعل من نصفها الاعلى السماء ، ومن نصفها الاسفل خلق الارض ، وعين للآلهة العظام « آنو » و « انليل » و « إيا » الاجزاء التي يحكمونها من الكون .

ولما ان تم ذلك لمردخ ارتآى ان يوجد مخلوقا سمي الانسان من اجل أن « يخدم الآلهة » ، واعلن عن عزمه لابيه « إيا » ، فحبذ له ذلك واشار عليه ان يضحي أحد الآلهة لذلك الغرض ، فقرر الآلهة في مجمعهم أن يكون ذلك الاله « كنكو » لانه هو الذي حرض « تيامة » على محاربة الآلهة وقاد جموعها فامسك به مردوخ واوثقه وجاء به الى « إيا» ، فذبحه ومن دمه «خلق الانسان» (١) ، وفرض « إيا » على هذا الانسان « خدمة الآلهة » ليريحها من العناء والتعب . وقسم مردوخ من بعد ذلك مجموعة آلهة الا «انوناكي» المائة الى مجموعتين مجموعة للسماء ومجموعة للارض وعرفاناً بفضل مردوخ وبطولته في تخليص الآلهة من الهلاك عمل آلهة الانوناكي طوال عام واحد في تشييد بيت يليق بمقامه فاقاموا معبده العظيم « إي ـ ساكلا » مع برجه في مدينة بابل من بعد أن أسسوها ، وخصصوا في المعبد مزارات لأنليل و « إيا » . وبعد ان تم ذلك اجتمع الآلهة في حفل ووليمة عزفت فيها الموسيقى وقدمت الجعة ، ورتل بمديح مردوخ وتمجيده ، وتنازلوا له عن اسمائهم والقابهم فصار له خمسون اسماً . وتنتهي القصيدة باللوح السابع الذي قلنا إنه كان يرتل تمجيداً لمردوخ في عيد رأس السنة البابلية .

---

(١) في اساطير أخرى عن خلق الانسان في حضارة وادي الرافدين ان الخلق كان من الطين ومن دم أحد الآلهة لكي تدب في الطين الحياة ، وسيرد ذكر هذه الاساطير .

ويجدر أن نذكر في ختام هذا الملخص لاسطورة الخليقة البابلية ان روايتين موجزتين وردتا عنها في الكتابات اليونانيــة ، احداهما للفيلسوف السوري – اليوناني الملقب بالدمشقي (Damacius) المولود في دمشــق في حــدود ٤٨٠ ميلادية (وكان آخر فلاسفة الافلاطونية الحديثة) . وان روايته خلاصة موجزة للاسطورة البابلية وقد عنونها : «مشاكل المبادئ او العناصر الأولى وحلها» :
(Diffuculties and Solution of First principles)

والرواية الأخرى للمؤرخ البابلي « بيروسس » (Berossus) ، كاهن الاله مردوخ في بابل الذي دون تأريخاً لبلاد بابل باليونانية في حدود سنة ٢٧٥ق.م (في العهد السلوقي) ، وقد ضاع مؤلفه ولكن مقتبسات مهمة منه وردت في كتابات بعض الكتاب الكلاسيكيين ، ومنها موجز لاسطورة الخليقة البابلية وردت في كتابات الراهب اليوناني في القسطنطينية « سنكيلوس » (Syncellus Synkellos) (من اهل القرن الثامن الميلادي) ، وقد اقتبسها بدوره من كتاب يونانيين سابقين لاسيما من كتاب تأريخ الكنيسة للمؤرخ «يوسيبيوس» (Eusebius) (من اهل قيصرية ، مابين القرنين الثالث والرابع الميلاديين) ، وقد اقتبسها هذا عن المؤرخ «اسكندر بوليهستر » (Alexander Polyhistor) (القرن الأخير ق.م)[1] .

بعض الملاحظات والاستنتاجات :

نترك للقارئ ماقد يستنتجه من آراء من اسطورة الخليقة التي لخصناها ؛ فهناك جملة مجالات للوصول الى آراء مختلفة تنطوي عليها الاسطورة وما قد يطبقونه من نظريات وتفسيرات تختلف باختلاف المدارس المتنوعة في تفسير الاساطير .

---

(١) انظر :
A.Heidel, The Babylonian Genesis, (1942,1951), 75ff.

مما لايتسع المجال لايرادها ، فنكتفي بالملاحظات الشخصية التالية :-

١- يوجد تشابه وتناظر واضحان مابين اسطورة الخليقة البابلية وبين رواية التوراة عن الخلق والتكوين (سفر التكوين ، الاصحاح الأول : ١-٢ والاصحاح الثالث) ، فكلا المصدرين يشير الى ان الكون لم يكن فيه في البدء من شئ سوى العماء أو (Chaos) المؤلف من المياه الأولى . وتتشابه الكلمتان المستعملتان لهذاالعماء أوالمادة الأولى في كلا المصدرين(١)

وكانت المادة الأولى في الاسطورة البابلية مؤلفة من عنصرين : (١) الماء العذب (أبسو ، وهو العنصر المذكر) (٢) والماء الملح (تيامة العنصر المؤنث) ، وقد جسم العراقيون القدماء هذين العنصرين وجعلوهما إلها (أبسو) والهة (تيامة) ، وكانت مياههما واحدة مختلطة، ومنهما ولدت الآلهة الأخرى وجاءت جميع الأشياء . فتكون المادة الأولى عند البابليين ذات طبيعة ثنائية : اذ كانت مادة والها في الوقت نفسه ، اى ان المادة كانت ازلية وجدت منذ البدء ولم تخلق . وهنا نجد اختلافاً جوهرياً مابين العقيدة البابلية وبين عقائد الاديان السماوية ، ولاسيما ماجاء في التوراة والقرآن الكريم ،حيث وجود الخالق ازلي سبق وجودهالمادة وهو اوجد المادة .

٢- في وسعنا أن نستشف من وراء الغلاف الاسطوري لرواية الخلق البابلية احوال العراق القديم الجغرافية في بداية ظهور اولى الحضارات في السهول الرسوبية منه في المراحل الأولى من استيطانها . فالمياه الأولى والصراع والاحتراب مابين جيل الآلهة الحديثة بزعامة « مردوخ » وبين جيل الآلهة العتيقة الممثلة بابوي الآلهة الأولين « أبسو » و « تيامة» (اللذين قلنا إنهما يمثلان المياه الأولى) وتغلب مردوخ

(١) في الاسطورة البابلية « تيامة » او « تهامة » وفي التوراة « تيهوم » .

عليهما ثم احلال النظام في الكون بدلا من العماء والفوضى ، وخلق الكون والانسان واقامة العمران – كل هذا وغيره يصور لنا صراع العراقيين الأوائل مع بيئتهم الطبيعية والسيطرة عليها وبناء الحضارة . فان السهول الرسوبية التي نشأت فيها أولى الحضارات إن لم تكن مغمورة بمياه البحر بحسب النظرية القديمة والا فبمياه الاهوار والاحراش الناجمة عن فياضانات الانهار ، ثم استطاع الانسان بمرور الازمان ان يسيطر على هذه الاحوال الطبيعية بما اقامه من سدود ونظام للري .

٣– وعلى ضوء المبدأ السائد في العقائد الدينية عند العراقيين القدماء من ان مجتمع الآلهة صورة للمجتمع البشري حسب المبدأ المعروف بالتشبيه (Anthropomorphism) في عزو صفات البشر المادية والروحية الى الآلهة ، يستطيع القارئ ان يصل الى استنتاج مهم آخر ، هو ان هذه الاسطورة تصور لنا أيضاً بالاسلوب الاسطوري الاحوال السياسية والاجتماعية في العراق القديم في اولى مراحل تكوينه الحضاري حيث كان نوع من نظام الحكم يصح أن نطلق عليه مصطلح « الديمقراطية البدائية » (Primitive democracy) ؛ إذ تصور الاسطورة الكون على هيئة دولة يحكم فيها الآلهة حكماً شورياً كانت القرارات فيه تتخذ في مجالس شورى بطريق الاقتراع ، كما حدث في تنصيب مردوخ ملكاً على الآلهة عن طريق الانتخاب ، ولعل هذا اصل الحكم ونظام الملوكية . والطريف ذكره بهذا الصدد ان الالهات ، مثل « عشتار » ، كن يصوتن في مجالس شورى الآلهة . وان نظام الحكم لم يكن من اصل النظام الكوني ، بل ظهر بصورة طارئة ابان تلك الازمة التي حلت بالآلهة ، وهي الحرب مابين الآلهة الحديثة وبين الآلهة العتيقة ونشوء ضرورة القيادة الحربية .

وثمت امر مهم آخر نستنتجه من هذه الاسطورة ، ذلك هو العنف والصراع اللذان رافقا عملية الخلق والتكوين – وهذا انعكاس من العنف الذي تتميز به البيئة الطبيعية التي ظهرت فيها حضارة وادي الرافدين . على ان المتتبع لاساطير الخليقة في حضارة وادي النيل يقف على عكس هذه الصورة حيث تمت عملية الخليقة بهدوء وسلام .

٤– هذا ولا يسعنا الاسترسال في ذكر التفسيرات الأخرى المختلفة التي ارتآها الباحثون المختلفون ، فنكتفي في ختام هذه الملاحظات بالتنويه بان احد هـذه التفاسير يسـتند الى المذهب « الفرويدي » في التحليل النفسي في تعليل النزاع والاقتتال ما بين جيل الأبناء من الآلهة وجيل الآباء منهم بالعقدة المشهورة التي يطلق عليها فرويد « عقـدة اوديب » ومع أننا لسنا متحمسين لهذا التفسير الا ان موضوع قضاء الأبناء من الآلهة على آبائهم يتكرر وروده في اساطير كثير من الحضارات القديمة ، مثل الحضارة اليونانية حيث قضى « كرونوس » على ابيه « اورانوس »، وتغلب « زوس » على أبيه « كرونوس » على ماهو معروف في الاساطير اليونانية .

* * *

وسنحاول في الاعداد المقبلة من هذه المجلة عرض نماذج أخرى من النصوص الأدبية التي وصلت الينا من العراق القديم .

طـه باقـر

عبد الرحمن بن مسلم الباهلي

فاتح شطر خُوارِزْم (١)

-١-

اللواء الركن محمود شيت خطاب

نسبه وأهله :

هو عبد الرحمن بن مُسْلِم بن عمرو بن الُحصَيْن الباهلي . أبوه مسلم بن عمرو ، يكنى : أبا صالح .

وعبد الرحمن هذا هو أخو قُتَيْبَة بن مسلم الباهلي القائد المشهور الذي فتح ما وراء النهر (٢) .

---

(١) خوارزم : اسم إقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر ، تحيط به المفاوز من كل جانب حدها متصل بحد الغزية فيما يلي الشمال والمغرب ، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر ، وهي على جانبي نهر جيحون ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٦٨) ومعجم البلدان (٤٧٤/٣).

(٢) ما وراء النهر : ما وراء نهر جيحون . فما كان في شرقيه يقال له : ما وراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٠/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٧) وتقوم البلدان (٤٨٣ - ٥١٥) وأحسن التقاسيم (٣١٠) .

جهاده :

١- كان عبد الرحمن من أقوى وأخلص أعوان أخيه قتيبة بن مسلم الباهلي ومن أبرز قادته الذين عاونوه في تحمل أعباء واجباته قائداً فاتحاً وإدارياً .

وقد شهد عبد الرحمن تحت لواء قتيبة غزواته كافة قائداً مرؤوساً تحت إمرة قتيبة مرات ، وقائداً مستقلاً مرات اخرى .

٢- في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٦م) ، سار قتيبة إلى (رامثينة)(١) فصالحه أهلها . وانصرف قتيبة إلى (مرو)(٢) ، وفي طريق عودته زحف اليه الترك ومعهم (الصُّغْد) (٣) وأهل (فَرْغانة)(٤) في ما ئتي الف بقيادة ملك الترك (كور بغانيون)(٥) ابن اخت ملك الصين ، فهددوا السّاقة(٦) التي كانت بقيادة عبد الرحمن . وكان بين السّاقة وقتيبة الذي كان على رأس (القسم الأكبر)(٧) من الجيش ميل واحد فلما قربوا من السّاقة أرسل عبدالرحمن رسولاً الى قتيبة يخبره بزحف الترك ولكن الترك هاجموا السّاقة في اثناء ذلك وقاتلوه . وأتى الرسول قتيبة ، فرجع

---

(١) رامثينة : مدينة من أعمال بخاري ، وورد اسمها في ابن الأثير (٥٣٣/٤) : رامثنة .

(٢) مرو : أشهر مدن خراسان وأكبرها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٢/٨) .

(٣) الصغد : اسم كورة كبيرة ، قصبتها سمرقند ، والصغد : اسم سكان تلك الكورة أيضاً . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٢/٥) والمسالك والممالك للاصطخري (١٧٩) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٤٣) .
وتكتب أحياناً : السغد ، انظر مثلا كتاب : البلدان (٢٨٨) .

(٤) فرغانة مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لبلاد الترك ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٤/٦) والبلدان (٣٢٢) .

(٥) في ابن الأثير (٥٣٣/٤) ورد اسم ملك الترك : كورنعابون .

(٦) الساقة : جماعة من الفرسان والمشاة لحماية مؤخرة القسم الأكبر من القوات العسكرية المتحركة نحو هدفها .

(٧) القسم الأكبر : الجيش المتحرك نحو هدفه ناقصاً قطع الحماية (المقدمة ـ الساقة ـ المجنبات) .

بالناس وانتهى إلى السّاقة وهي مشتبكة بالقتال — وقد كاد الترك يسحقونها سحقاً ، فلما رأى الناس قتيبة طابت أنفسهم فصبروا وقاتلوا إلى الظهر حتى انهزم التّرك (١) .

٣— وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٨م) استأذن (نيزك) ملك (طخارستان)(٢) قتيبة بالرجوع إلى بلاده ، وحين وصلها أظهر الخلع . وكتب إلى الملوك يدعوهم إلى خلع قتيبة ، ثم كتب الى ملك (كابل)(٣) يستظهر به وبعث اليه بِثَقَله (٤) وماله ، وسأله أن يأذن له أن يأتيه فأجاب إلى ذلك .

وبلغ قتيبة خلعه قبل الشتاء وقد تفرق الجند ، فبعث أخاه عبد الرحمن في اثني عشر ألفاً الى (البَرُوقان) (٥) وقال له : « أقم بها ، فاذا انقضى الشتاء ، سر نحو (طخارستان) ، واعلم أني قريب منك » .

وفي آخر الشتاء كتب قتيبة إلى (نَيْسَابور) (٦) وغيرها من البلاد ليقدم

(١) أنظر التفاصيل في الطبري (٢٢٣/٥) وابن الأثير (٥٣٣/٤) . وفي ابن خلدون (٥٩/٣) : «ان التّرك اعترضوا مقدمة قتيبة » لاساقته ! ! » .

وهذا خطأ عسكرياً ، لأن قوات قتيبة كانت في عودتها لا في تقدمها ، وضرب المقدمة في هذه الحالة معناه الاصطدام بالقوة المتحركة كلها وقبول معركة ميدان تصادفيه ، وهذا ليس في مصلحة المهاجم .

بينما مهاجمة الساقة بينما تكون القوة الباقية متحركة قد يقضى على الساقة كما يجبر المسلمين على تنظيم خطة جديدة لحماية الساقة ويضطرهم على التّراجع لحمايتها وسندها ، مما قد يؤدي إلى إرباك صفوفهم .

(٢) طخارستان: ولاية واسعة كبيرة تشمل على عدة بلاد ، وهي من نواحي خراسان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١/٦) والمسالك والممالك للاصطخري (١٥٦) .

(٣) كابل : اسم تشتمل على الناحية ومدينتها ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠١/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٤٣) .

(٤) الثقل : المتاع ، والشيء النفيس الخطير .

(٥) البروقان : قرية من نواحي بلخ ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٧/٢) .

(٦) نيسابور : مدينة عظيمة في خراسان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٦/٨) .

عليه الجنود ، فقدموا قبل أوانهم ، فسار نحو (الطالقان) (١) وكان ملكها قد خلع وطابق (نيزك) على الخلع ، فأوقع قتيبة بأهل (الطالقان) وقتل من أهلها مقتلة عظيمة (٢) .

٤– وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م) سار قتيبة الى(نيزك) وتقدم يتبع عبد الرحمن الى شعب (خُلم) (٣) .

واستطاع قتيبة مباغتة رجال (نيزك) وطردهم من شعب (خُلْم) ، فمضى قُدماً إلى (نيزك) .

وقدّم أخاه عبد الرحمن ، فارتحل (نيزك) من منزله في (بَغْلان) (٤) ومضى حتى نزل (الكُرْز) (٥) وعبد الرحمن يتبعه ، فنزل عبد الرحمن حذاء (الكرز) وليس له مسلك إلا من وجه واحد – وهو صعب لاتطيقه الدواب ، فحصرْ قتيبة شهرين حتى قلّ ما في يد (نيزك) من الطعام وانتشر في عسكره مرض الجدري .

وأخيراً قدم (نيزك) على قتيبة تائباً ، فقتله قتيبة ، وبذلك عادت تلك البلاد الى الطاعة . (٦)

---

(١) الطالقان : بلد بخراسان بين مرو الروذ وبلخ ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٢) .

(٢) أنظر التفاصيل في الطبري (٥/٢٣٠ – ٢٤١) وابن الأثير (٤/٥٤٤ – ٥٤٥) .

(٣) خلم : بلدة بنواحي بلخ على عشرة فراسخ من بلخ،أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٥٩).

(٤) بغلان : بلدة بنواحي بلخ ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٢٤٦) .

(٥) الكرز : وهي كرزبان كما جاء في معجم البلدان (٧/٢٣٧) : بلدة في الجبل قرب الطالقان .

(٦) أنظر التفاصيل في الطبري (٥/٢٣٠ – ٢٤١) وابن الأثير (٤/٥٤٤ – ٥٤٥) .

٥- وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية أيضاً (٧٠٩م) ، سيّر قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى (الصُّغْد) وملكها (طرخون) ، فقبض عبد الرحمن من (طرخون) ماكان صالحه عليه قتيبة ورجع (١) .

٦- وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) صالح قتيبة ملك (خوَارزم) فقد سار هذا الملك إلى مدينة (الفيْل) (٢) من وراء النهر ، وهي أحصن بلاده ، فصالح قتيبة على عشرة آلاف رأس (٣) وعين ومتاع ، على أن يعينه على (خام جرد) (٤) ، فقبل ذلك . وقيل : صالحه على مائة ألف رأس (٥) .

وبعث قتيبة أخاه عبد الرحمن إلى بلاد ملك (خام جرد) في (خوارزم) الذي كان يغازي ملك (خوارزم) ، فقاتل عبد الرحمن (خام جرد) وقتله وغلب على أرضه (٦) .

٧- وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) أيضاً ، دعا قتيبة أخاه عبد الرحمن بعد صلح (خوارزم) وقال له : « سر في الفرسان والرماة ، وقدم الأثقال إلى (مرو) » ، فوجه عبد الرحمن الأثقال إلى (مرو) ومضى يتبع الأثقال يريد (مرو) أيضاً ، فأمضى اليوم كله ، فلما أمسى كتب

---

(١) أنظر التفاصيل في الطبري (٢٤١/٥ - ٢٤٣) .
(٢) الفيل : كانت مدينة ولاية خوارزم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤١٤/٦) .
(٣) عدد من يعطي الجزية للمسلمين .
(٤) خام جرد : أحد ملوك أو رؤساء منطقة كائنة في خوارزم، كان يغازي (خوارزمشاه)، أنظر التفاصيل في الطبري (٢٤٦/٥ - ٢٤٨) وابن الأثير (٥٧١/٤) .
(٥) قوله : «على مئة ألف رأس » ، يريد : أن هذا العدد من البشر تؤخذ الجزية منهم ، وإلا فمن المستبعد استرقاق مثل هذا العدد الضخم من الناس ، إذ ماذا يصنع بهم قتيبة بن مسلم ، وأي طعام يكفيهم ، انظر هامش ابن خلدون (٦٣/٣) .
(٦) أنظر التفاصيل في الطبري (٢٤٦/٥ - ٢٤٨) وابن الأثير (٥٧١/٤) وابن خلدون (٦٣/٣) .

اليه قتيبة : « إذا اصبحت فوجه الأثقال إلى (مرو) ، وسر بالفرسان والرماة نحو (الصُّغْد) ، واكتم الاخبار فاني بالأثر » .

وبلغ قتيبة (الصُّغْد) بعد عبد الرحمن بثلاث ليال أو اربع ، وبعد قتال عنيف وحصار طويل ، صالحهم قتيبة ودخل (سمرقند) (١) ، وهكذا فتح قتيبة (خوارزم) و (سمرقند) في عام واحد (٢) .

الانسان :

حين هم قتيبة بن مسلم الباهلي بخلع سليمان بن عبد الملك ، استشار إخوته ، فقال عبد الرحمن : « اقطع بعثاً ، فوجه فيه كل من تخافه ، ووجه قوماً إلى (مرو) ، وسر حتى تنزل (سمرقند) ، ثم قل لمن معك: من أحبّ المقام ، فله المواساة ، ومن أراد الانصراف ، فغير مستكره ولا متبوع بسوء ، فلا يقيم معك إلا مناصح » .

وقال عبد الله أخو قتيبة : « إخلعه مكانك ، وادع الناس الى خلعه ، فليس يختلف عليك رجلان » .

وأخذ قتيبة برأي عبد الله ، ودعا الناس الى خلع سليمان بن عبد الملك ، فلم يجبه أحد . (٣)

واجتمع إلى قتيبة أهل بيته وخواصه وثقاته وبنو عمه ، فأمر فنودي في الناس قبيلة قبيلة ، فأجابوه بالجفوة .

---

(١) سمرقند : بلد معروف مشهور بما وراء النهر ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧١/٥) .
(٢) الطبري (٢٤٨/٥ - ٢٥٥) وابن الأثير (٥٧١/٩ - ٥٧٢) وابن خلدون (٦٣/٣) .
(٣) أنظر التفاصيل في الطبري (٢٣٧/٥ - ٢٧٥) وابن الأثير (١٢/٥ - ١٨) والبلاذري (٥٩٤ - ٥٩٦) وخزانة الأدب للبغدادي (٦٥٧/٣ - ٦٥٨) وسرح العيون (١٠٠) وابن خلدون (٦٨/٣) .

وتألبت القبائل العربية ، وتألبت العجم والتركمان والصغد وغيرهم على قتيبة ، وتخلى عنه الناس .

وتهايج الطرفان ، فأقبل عبد الرحمن نحو أعداء قتيبة ، فرماه أهل السوق والغوغاء ، فقتلوه .

ودارت المعركة بين الجانبين ، وجاء الناس حتى بلغوا فسطاط قتيبة ، فقطعوا أطنابه .

وجرح قتيبة جراحات كثيرة ، ثم نزل رجل فاحتز رأسه .(١)

ترى ! هل كان قتيبة يلاقي هذا المصير المفجع المروّع ، لو أخذ برأى عبد الرحمن ، ففرّق أعداءه والمشتبه بولائهم له ، وجمع حوله المخلصين من أهله وأصحابه ورجاله ، ثم خلع سليمان بن عبد الملك وهو بين قوم يأمن جانبهم ، وحينذاك يعالج أعداءه واحداً بعد واحد متفرقين ؟!

لقد قتل عبد الرحمن في (فرغانة) (٢) مع أخيه قتيبة وقسم من إخوته وقسم من أهله (٣) ، وذلك سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٥م) ، وبذلك انتهت حياة أحد القادة الفاتحين .

كان عبد الرحمن ذكياً حصيفاً ، إدارياً حازماً ، كريماً مضيافاً ، صادقاً وفياً ، وكان مؤمناً حقاً ، هدى الله على يديه عدداً ضخماً من الناس الى الأسلام .

القائـد :

كان قتيبة بن مسلم يولي أخاه عبد الرحمن قيادة (المقدمة) في مسير الاقتراب إلى العدو .

---

(١) أنظر قصة مقتل قتيبة في الطبري (/٢٧٣٥-٢٨٥) وابن الأثير (١٢/٤-٢٠) وابن خلدون (٦٨/٣-٦٩) والبلاذري (٥٩٤ - ٥٩٦) .

(٢) البداية والنهاية (١٩٨/٩) والمعارف (٤١٦ و ٤٣٣) ووفيات الأعيان (٢٥٠/٣) .

(٣) الطبري (٢٨/٥) وابن الأثير (١٧/٥) .

وكان يوليه (الساقة) عند التراجع والانسحاب .

ان قيادة (المقدمة) و (الساقة) على حد سواء ، توجب على القائد ألا يظهر العدو على عورات القوات التي يحميها من جهة وألا يخفى عليه من عورات القوات المعادية شيئ ، وهذا لا يتم إلا بتحلي القائد بمزايا الحذر واليقظة والكتمان والذكاء الخارق وسرعة الحركة ثم باذكاء العيون والجواسيس (١) والاستطلاع الشخصي .

وبالاضافة الى كل ذلك ، تحتاج قيادة المقدمة والساقة إلى تحلي القائد بقابلية إعطاء القرارات السريعة الصائبة وبالنشاط الجم والعمل الدائب المستمر بدون كلل ولا ملل والشجاعة والاقدام والقابلية البدنية والتدريب المتميز على استعمال السلاح والفروسية .

إن عبدالرحمن ــ قائداً للمقدمة ــ في مسير الاقتراب ، وللساقة في التراجع والانسحاب كان أقرب مايكون الى العدو في الحالتين ، وهذا دليل على شجاعته النادرة وإقدامه الفذ .

لقد كان عبد الرحمن قائداً كتوماً حذراً يقظاً ، يتقدم وهو مفتوح العينين على هدى وبصيرة ، لما يحصل عليه من معلومات عسكرية دقيقة عن عدوه : تحركاته ، تشيكلاته ، أساليب قتاله ، مزايا قادته وقواته ، نقاط الضعف فيهم ، تسليحه ، تنظيمه ، تدريبه ، معنوياته ، قضاياه الأدارية ، طبيعة الأرض التي يتقدم فيها ويقاتل عليها .

وكان صائب القرار سريعه ، فيه أناة الواثق بنفسه ، ولم يكن متهوراً يلقي برجاله الذين بقيادته وبالقوات التي تحيمها الى التهلكة والدمار .

---

(١) أنظر مختصر سياسة الحروب للهرثمي (١٩) .

وكان بعيداً عن الغرور ، لايستخف بعدوه ، يدخل في حسابه أسوأالاحتمالات

كل هذه المزايا ، جعلته موفقاً في قيادة المقدمات والسّاقة ، فلم يترك مجالاً لعدوه أن يباغت قواته التي بأمرته المباشرة أو قوات قتيبة التي تحميها تلك المقدمات والسّاقات .

وكان يتحمل كامل المسئولية ولا يتنصل منها ، مستعداً لاتخاذ القرارات المناسبة في المكان والزمان المناسبين .

وكان يثق بنفسه وبرجاله ويثق رجاله به ، وكان يبادلهم حباً بحب وتقديراً بتقدير .

وكان ميمون النقيبة ، كامل العقل ، طويل التجربة ، بعيد الصوت ، بصيراً بتدبير الحروب ومواضعها ومواضع الفرص والحيل والمكايدة ، حسن التعبية لأصحابه في أحوال التعبية ، عالماً بالوقت المناسب لتسييرهم أوان المسير وإنزالهم أوان النزول ، حريصاً على إدخال الأمن على رجاله والخوف على عدوه ، متشبثاً بأسباب إدخال السلامة لنفسه ولأصحابه من العدو ، حسن السيرة ، عفيفاً ، صارماً ، يهتم بالسيطرة والضبط ، له ماض ناصع مجيد .

وكان يحسن استخدام مبدأ (المباغتة) في عملياته العسكرية لقد كان عبد الرحمن قائداً متميزاً .

عبدالرحمن في التاريخ :

يذكر التاريخ لعبد الرحمن أنه كان السّاعد الأيمن لأخيه قتيبة في حروبه وفي واجباته الادارية .

ويذكر له ، أنه فتح منطقة واسعة من بلاد (خوارزم) ونشر الاسلام في ربوعها .

ويذكر له ، أنه كان من ابرز العاملين في مجال توطيد أركان الفتح الاسلامي في (خراسان) و (خوارزم) ومناطق ما وراء النهر .

ويذكر له أنه نشر الاسلام بين العجم والتركمان والصُّغْد وكثير من القوميات في المناطق الشاسعة التي عمل على فتحها .

رضي الله عن القائد الفاتح ، عبد الرحمن بن مسلم الباهلي .

* * *

صالح بن مسلم الباهلي

فاتح كاشان (١) وأورشت(٢) وأخسيكث (٣)

بما وراء النهر (٤)

— ٢ —

نسبه وأهلـه :

هو صالح بن مُسْلِم بن عمرو بن الحُصَيْن الباهلي . أبوه مسلم بن عمرو ، ويكنى : أبا صالح مما يدل على أن صالحاً أكبر إخوته سناً . وصالح هذا هو أخو قتيبة بن مسلم الباهلي القائد المشهور فاتح ماوراء النهر (٥) .

جهاده :

١– كان صالح السّاعد الايمن لأخيه قتيبة بن مسلم ، شهد معه معاركة التي خاضها كافة في القضاء على فتنة الخوارج وفي معارك الفتوح .

---

(١) كاشان : مدينة بما وراء النهر ، على بابها وادي أخسيكث ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٠٧/٧) .

(٢) أورشت : وهي من فرغانة ، أنظر البلاذري (٥٩٠) ، ولم أجد لها ذكراً في معجم البلدان .

(٣) أخسيكث : اسم مدينة بما وراء النهر ، وهي قصبة ناحية فرغانة تقع على شاطىء نهر الشاش ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٠/١) وتقويم البلدان (٥٠٠) ، وهي مدينة فرغانة القديمة أنظر ابن الأثير (٥٢٤/٤) ، وقد وردت في ابن الأثير : أخشيكت .

(٤) ما وراء النهر : ما وراء نهر جيحون فما كان في شرقيه يقال له : ما وراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٠/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ - ٥١٥) وأحسن التقاسيم (٣١٠) .

(٥) أنظر تفاصيل عن عائلته في ترجمة أخيه قتيبة بن مسلم الباهلي .

وكان مع قتيبة حين تولى (خـُراسان) للحجاج بن يوسف الثقفي ، وفي سنة ست وثمانين الهجرية (٧٠٤م) ،انصرف قتيبة إلى(مرو) (١) بعد استعادة (طخارستان) (٢) ،فاستخلف على الجند أخاه صالحاً ، ففتح صالح بعد رجوع قتيبة إلى (مرو)مساحات شاسعةمن منطقة (فـَرْغانـَة) (٣) (كاشان) و (أورشت) و (أخـْسِيـْكـَث) بما وراء النهر (٤) .

٢- وفي سنة إحدى وتسعين الهجرية (٧٠٩م) ، سار قتيبة إلى (شـُومان) (٥) لتأديب ملكها الذي طرد عامل المسلمين من (شومان) ؛ فلما أتاه أرسل أخاه صالحاً الى ملكها ، وكان صالح صديقاً للملك ، فأمره بالطاعة وضمن له رضا قتيبة إن رجع الى الصلح ، ولكن الملك أبى وقال « تخوفني من قتيبة ، وأنا أمنع الملوك حصناً » ؟ فأتاه قتيبة وقد تحصن ببلده ، فوضع عليه المجانيق ورمى الحصن فهشمه .

وخاف الملك أن يظهر عليه قتيبة ، فجمع ما في الحصن من مال وجوهر ورمى به في بئر بالقلعة لاتدرك ، ثم فتح باب القلعة وخرج إلى المسلمين فقاتلهم حتى قـُتِل . (٦)

---

(١) مرو : أشهر مدن خراسان وقصبتها ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٣٢ - ٣٨) .

(٢) طخارستان : ولاية واسعة كبيرة تشتمل عـلى عدة بلاد ، وهي من نواحي خراسان ، وهي طخارستان العليا شرقي بلخ وغربي نهر جيحون وطخارستان السفلى غربي جيحون أيضاً : لا أنها أبعد من بلخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٥٦) .

(٣) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بمـا وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٦٤) والبلدان (٣٢٢) وتقويم البلدان (٥٠٢) وأحسن التقاسيم (٢٦٢) .

(٤) انظر التفاصيل في البلاذري (٥٩٠) وابن الأثير (٤/٥٢٤) وابن خلدون (٣/٥٩) .

(٥) شومان : بلدة بالصغانيان من وراء جيحون ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣١٠) وتقويم البلدان (٥٠٤) .

(٦) أنظر التفاصيل في الطبري (٥/٢٤١ - ٢٤٣) وابن الأثير (٤/٥٥٣) .

٣- وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١م) قصد قتيبة بن مسلم الباهلي (الصُّغْد)(١) بعد أن صالح (خوارزْمشاه) وقبض صلح (خوارزم)(٢)، فأمَدّ ملكا (الشَّاش) (٣) (وفَرْغَانة) (٤) أهل (الصُّغْد) وأرسلا اليهم: «أرسلوا مَن يشغلهم، حتى نبيت عسكرهم، وانتخبوا من أولاد الملوك وأهل النجدة من أبناء المرازبة والأساورة والأبطال، وأمروهم أن يأتوا عسكر قتيبة ويبيتوه لأنه مشغول عنهم بحصار (سَمَرْقند) (٥).

وبلغ قتيبة بن مسْلم الخبر، فانتخب من عسكره اربعمائة رجل، وقيل ستمائة رجل من اهل النجدة والشجاعة وأعلمهم الخبر، وأمرهم بالمسير إلى عدوهم. وسار هؤلاء الرجال وعليهم أخوه صالح، ونزلوا على فرسخين من معسكر أعدائهم على طريق القوم.

وارسل صالح عيونه، فأخبروه أن العدو سيصل اليهم ليلاً. وفرق صالح

---

(١) الصغد: كورة كبيرة قصبتها سمرقند، وقيل هما صغدان: صغد سمرقند وصغد بخارى، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٢) والمسالك والممالك للاصطخري (١٧٩)، وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٤٣). وتكتب عند بعضهم: السغد، أنظر مثلا كتاب البلدان (٢٨٨). وانظر أيضاً ما جاء عن الصغد في أحسن التقاسيم (٣٦٦).

(٢) خوارزم: اسم اقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر، تحيط به المفاوز من كل جانب. حدها متصل بحد الغزية فيمايلي الشمال والمغرب، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر، وهي على جانبي جيحون، أنظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٦٨) ومعجم البلدان (٣/٤٧٤).

(٣) الشاش: مدينة بما وراء النهر متاخمة لبلاد الترك، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٢١٢).

(٤) فرغانة: مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٦٤) والبلدان (٣٢٢).

(٥) سمرقند: بلد معروف مشهور بما وراء النهر، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/١٧١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٧٧).

خيله ثلاث فرق : جعل كمينين في موضعين ، وأقام هو وبعض فرسانه على قارعة الطريق .

وطرقهم العدو ليلاً وهم لايعلمون بمكان صالح وهم آمنون في أنفسهم من أن يلقاهم أحد دون معسكر قتيبة البعيد ، فلم يعلموا بصالح حتى غشوه فشدوا على رجاله ، حتى إذا اختلفت الرماح بينهم خرج الكمينان اللذان جعلهما صالح في موضعين مختلفين حسب الخطة المرسومة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً .

واستطاع فرسان صالح أن يتغلبوا على عدوهم ، فلم يفلت منهم إلاّ الشريد ، وأسروا بعض الأسرى ، وغنموا خيلهم وسلاحهم .

وعلم (الصُّغد) باندحار القوة التي جاءت مدداً لهم ، فأثّر ذلك في معنوياتهم تأثيراً سيئاً وفتّ في عضدهم ، مما اضطرهم على الصلح (١) .

لقد كان صالح أحد أخوة قتيبة الذين عاونوه في تحمل أعباء جهاده بكل صدق وأمانة وإخلاص .

الانسان :

كان صالح مع قتيبة حين خلع سليمان بن عبد الملك ،وبقي معه حين تألبت عليه القبائل العربية وتألبت عليه العجم وتخلى عنه الناس .

وارسله قتيبة إلى حشود الناس الناقمة عليه ، فرماه رجل وأصاب رأسه ،فحمل الى قتيبة ورأسه مائل ، فوضع في مصلاه ، وجلس عنده قتيبة ساعة حتى مات وكان مقتله في (فرغانة) (٢) ، وقتل معه بعض إخوته وبعض أهله (٣) ، وذلك

(١) انظر التفاصيل في الطبري (٢٤٨/٥ - ٢٥٥) وابن الأثير (٥٧٢/٤) .
(٢) البداية والنهاية (١٩٨/٩) والمعارف (٤١٦ و٤٣٣) ووفيات الأعيان (٢٥٠/٣) .
(٣) الطبري (٢٨١/٥) وابن الأثير (١٧/٥) وابن خلدون (٦٩/٣) والبداية والنهاية (١٧٦/٩) ووفيات الأعيان (٢٥٠/٣) .

سنة ست وتسعين الهجرية(١)(٧١٥م) . وبذلك انتهت حياة بطل من ابطال المسلمين لقد كان صالح ذكياً ألمعي الذكاء . إدارياً حازماً ، كريماً مضيافاً وفياً صادقاً ، وقد هدى الله على يديه عدداً عظيماً من سكان ما وراء النهر الى الاسلام .

القائـد :

كان صالح على جانب عظيم من الجرأة والشجاعة والاقدام ، لذلك كان اخوه قتيبة يبعثه لمعالجة المواقف الصعبة التي تحتاج الى الشجاعة الخارقة والاقدام والجرأة .

فقد كان قتيبة يستخلفه على الجند في مواطن الخطر ، ويؤمره على الكمائن عند تهديد قواته الضّاربة ، ويرسله إلى الحشود الهادرة المزمجرة الغاضبة في أحرج الظروف ، وكل ذلك يحتاج الى الشجاعة والجرأة والاقدام .

وكان ماهراً في إعداد الخطط الدقيقة البارعة ، ويصدر لتنفيذها الأوامر الصريحة الحازمة ، كما فعل في إعداد خطة الكمائن الثلاثة ، وإخفاء تلك الكمائن في مواضع تعبوية مستورة ، لتجتمع تلك الكمائن الثلاثة مكونة قوة ضاربة في المكان والزمان الحازمين .

وكان من أولئك القادة الذين يستأثرون بالخطر ويؤثرون رجالهم بالامن ،كما فعل في بقائه على الكمين المتمركز في قارعة الطريق .

وكان من القادة الذين يقودون رجالهم من (الأمام) ، يقول لهم : اتبعوني ، ولايقود رجاله من (الخلف) ، يقول لهم : تقدّموا ، ثم يبقى في موضع أمين .

وكان حريصاً على استحصال المعلومات الدقيقة المفصلة عن عدوه ، ليعد الخطط اللازمة للقضاء على ذلك العدو .

---

(١) وفيات الأعيان (٣/٢٥٠) والبداية والنهاية (٩/١٦٧) .

وكان يطبق مبدأ (المباغتة) أهم مبادئ الحرب على الاطلاق في الزمان والمكان والأسلوب .

كل هذه المزايا القيادية جعلته موضع ثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حد سواء .

إنه كان قائداً لامعاً دون شك ، وكان لقيادته أثر ملموس في انتصارات أخيه قتيبة بن مسلم الباهلي الذي غطت شهرته الباهرة شهرة أخيه صالح وجعلته غير معروف إلا عند الخاصة من المختصين في التاريخ .

صالح في التاريخ :

يذكر التاريخ لصالح ، أنه كان العضد الأيمن لأخيه قتيبة بن مسلم الباهلي من السلم والحرب وإدارياً وقائداً .

ويذكر له ، أنه نشر الاسلام بين حشود ضخمة من العجم والتركمان والقوميات الاخرى في بلاد خراسان وما وراء النهر وفي أصقاع أخرى .

ويذكر له ، أنه فتح منطقة واسعة من بلاد ما وراء النهر ووطد أركان الدولة الاسلامية في ربوعها .

ويذكر له ، أنه كان الرجل الأول بعد قتيبة في فتح بلاد ما وراء النهر .

رضي الله عن القائد الفاتح ، الاداري الحازم ، صالح بن مسلم الباهلي .

• • •

الحكم بن عمرو الغفاري

فاتح الصَغَانيان (١)

- ٣ -

« إني وجدت كتاب الله قبل كتاب امير المؤمنين »

(الحكم بن عمرو الغفاري)

نسبه وأيامه الاولى :

هو الحكم بن عمرو بن مُجَدَّع بن حِذْيَم بن الحارث بن نُعَيْلة بن مُلَيْك بن ضَمْرَة بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة (٢).

والحكم عمرو الغفاري هو أخو الصحابي الجليل رافع بن عمرو الغفاري(٣)، غلب عليهما أنهما من بني غفار بن مليك وليسا عند أهل النسب كذلك ، إنما هما من بني نُعَيْلَة بن مُلَيْك أخي غفار (٤) وقد ينسبون الى الاخوة كثيراً (٥)، هذا في رأي ، وفي رأي آخر أنهما من غفار ، فقد ولد ضَمْرَة بن بكر بن عبد

---

(١) الصغانيان : ولاية عظيمة بما وراء النهر (نهر جيحون) متصلة الاعمال بترمذ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦١) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦٧) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٢٨) وأسد الغابة (٢/٣٦) . وفي الاصابة (٢/٢٩) : نعيلة بن مليل ، وكذلك في الاستعياب (١/٣٥٦) وجمهرة أنساب العرب (١٨٦) .

(٣) رافع بن عمرو الغفاري : صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه ، وقد سكن البصرة ، والاستيعاب (٢/٤٨٢) . أنظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٧/٢٩) وأسد الغابة (٢/١٥٤) والاصابة (٢/١٨٩) .

(٤) الاستيعاب (١/٣٥٦) وأسد الغابة (٢/١٥٤) والاصابة (٢/٣٠) .

(٥) الاصابة (١/٣٠) .

مناة بن كنانة : غفاراً وهي بطن ضخم منهم الحكم بن عمرو بن مجدع الغفاري(١) وأرجح الرأي الثاني ، لأن الحكم عرف بالغفاري ونسب الى غفار في حياته وبعد موته ، ولاسوغ لذلك لو لم يكن من غفار حقاً وإلا لكان انتسب لقومه الذين هم من ولد اخي غفار ، وليس بين الأخوين تمييز في المكانة والشرف .

صحب النبي صلى الله عليه وسلم حتى قبض النبي عليه السلام (٢) وروى عنه(٣) ، ثم تحول الى مدينة البصرة فنزلها ، فولاه زياد بن ابي سفيان (خراسان) فخرج اليها (٤) ، وذلك سنة خمس وأربعين الهجرية (٥) (٦٦٥م) .

وكان استعماله على (خراسان) من غير قصد من زياد لولايته ، إنما أرسل زياد يستدعي الحكم بن ابي العاص الثقفي ، فخرج الحاجب فرأى الحكم بن عمرو الغفاري ، فأدخله على زياد ، فقال زياد : « رجل له شرف وله صحبة من رسول الله صلى الله عليه وعليه وسلم » ، فعقد له على (خراسان) ، ثم قال له : « ما أردتك ، ولكن الله عزوجل أرادك » ، ثم جعل معه رجلاً ، وأمرهم بطاعته ، وكانوا على جباية الخراج (٦) .

وكان زياد قد استدعى حاجبه فقال له : « ادع لي الحكم » يريد الحكم بن ابي العاص الثقفي ليوليه (خراسان) ، فخرج حاجبه فرأى الحكم بن عمرو

---

(١) جمهرة أنساب العرب (١٨٦) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢٨/٧) وتاريخ الاسلام (٢٢٠/٢) وتهذيب التهذيب (٤٣٦/٢) وصفة الصفوة (٢٧٩/١) .

(٣) جمهرة أنساب العرب (١٨٦) .

(٤) طبقات ابن سعد (٢٨/٧) وتارخ الاسلام (٢٢٠/٢) وتهذيب التهذيب (٤٣٦/٢) وصفة الصفوة (٢٧٩/١) ، وفي الاستعياب (٣٥٦/١) : ان زياد ابن أبي سفيان قد ولاة البصرة قبل ذلك في أول ولاية زياد العراقين ثم عزله عن البصرة وولاه خراسان . . . انتهى . ولم يصح ذلك عندنا .

(٥) الطبري (١٧٠/٤)وابن الاثير (٤٥٢/٣) .

(٦) الطبري (١٧٠/٤) وابن الاثير (٤٥٢/٣) ، وانظر ابن خلدون (٩/٣) وأسد الغابة (٣٦/٢) .

الغفاري (١) ، فاستدعاه (٢) فلم يرد زياد أن يرده ، ورآه أهلا لهذه الولاية ، فولاه (خراسان) .

ومن الواضح أن الحكم كانت له سجايا إدارية وقيادية متميزة ، لذلك أقدم زياد وهو من هو دهاء وحكمة وحنكة على توليته (خراسان) القاعدة الأمامية المتقدمة في المشرق للفتح الاسلامي شرقاً وشمالا ؛ وليس للعاطفة دخل في تولية الحكم ، كما يحلو لقسم من المؤرخين القدامى أن يصوروا تولية الحكم لخراسان فقد كان زياد أبعد الناس عن العواطف كما هو معروف عنه ، كما كان الحكم هو الصحابي الجليل لايرضى أن يحمل لنفسه مالا تطيق ، ولا أن يتولى أمراً لا يستطيع النهوض بأعبائه .

وقد يكون الحاجب أخطأ في استدعاء الحكم الغفاري الى زياد ولكن زياداً لم يخطئ في تولية الحكم الغفاري خراسان ، فقد كان اهلاً للادارة والقيادة كما أثبتت الأيام ذلك من بعد .

جهاده :

في سنة سبع وأربعين الهجرية (٦٦٧م) ، غزا الحكم (طخارستان) (٣) ، فغنم غنائم كثيرة (٤) ، ثم سار الى جبال (الغُور) (٥) وغزا أهلها الذين ارتدوا ، فأخذهم بالسيف عنوة وفتحها واصاب منها مغانم كثيرة (٦) .

---

(١) أنظر سيرته في كتاب : قادة فتح بلاد فارس (٢٧٠ - ٢٧٢) .
(٢) الطبري (١٧٠/٤) وابن الأثير (٤٥٢/٣) .
(٣) طخارستان : ولاية واسعة كبيرة تشتمل على عدة بلاد ، وهي من نواحي خراسان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١/٦) والمسالك والممالك للاصطخري (١٥٦) .
(٤) ابن خلدون (٩/٣) وابن الاثير (٤٥٢/٣) .
(٥) الغور : جبال وولاية بين هراة وغزنة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣١٣/٦) .
(٦) ابن الأثير (٤٥٦/٣) .

وكان المهلب بن ابي صُفْرَة مع الحكم بخراسان ، فغزا معه بعض جبال الترك وغزا معه جبل (الأشل) (١) من جبال الترك ، إلا أن الترك أخذوا عليهم الشعاب والطرق واحتار الحكم بالأمر ، فولى المهلب الحرب ، فلم يزل المهلب يحتال حتى أسر عظيماً من عظماء الترك ، فقال له : « إما أن تخرجنا من هذا الضيق ، أو لأقتلنك » ، فقال له : « أوقد النار حيال طريق من هذه الطرق ، وسير الأثقال نحوه ، فانهم سيجتمعون فيه ويخلون ماسواه من الطرق ، فبادرهم الى طريق أخرى ، فما يدركونكم حتى تخرجوا منه » ، ففعل ذلك المهلب ، فسلم الناس بمامعهم من الغنائم (٢) .

وقطع الحكم نهر (جيحون) وعبر الى (ما وراء النهر) (٣) في ولايته ولم يفتح وكان أول من شرب من مائه من المسلمين هو أحد موالي الحكم ، فقد اغترف بترسه من ماء النهر ، فشرب وناول الحكم فشرب وتوضأ وصلى ركعتين ، وكان الحكم أول من فعل ذلك (٤) . وقد قال عبد الله بن المبارك لرجل من أهل (الصَغَانِيان) : « مَنْ فتح بلادك ؟ » ، فقال الرجل : « لاأدري !! » .. فقال ابن المبارك : « فتحها الحكم بن عمرو الغفاري » (٥) .

ومن الواضح أن غزو (الصغانيان) كان سنة ثمان واربعين الهجرية (٦٦٨م) أو سنة تسع واربعين الهجرية (٦٦٩م) ، لأن الحكم رجع من غزو جبال

(١) جبل الأشل : جبل في ثغور خراسان ، أنظر معجم البلدان (١/٢٦٠)

(٢) الطبري (٤/١٨٦) وابن الأثير (٣/٤٥٦) .

(٣) ما وراء النهر : ما وراء نهر (جيحون) بخرسان ، فما كان في شرقيه ، يقال له : ما وراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٧٠) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) وآثار البلاد وأخبار العباد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٣ - ٥١٥) وأحسن التقاسيم (٣١٠) .

(٤) ابن الأثير (٣/٤٥٦) .

(٥) البلاذري (٤٠٠) .

(الغو ر) سنة سبع واربعين الهجرية (١) (٦٦٧م) ومات سنة خمسين الهجرية (٢) (٦٧٠م) على أرجح الأقوال ، فكانت سنة ثمان واربعين الهجرية وتسع واربعين الهجرية هي المدة التي بقيت من حياته للنهوض بفتح (الصغانيان) ، لأنه قضى سنة خمسين الهجرية آخر سني حياته في غزو جبل (الأشل) ثانية ، فلما عاد من غزوته هذه مات (٣).

الانسان :

كان الحكم صحابياً جليلاً (٤) ، صحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه (٥) له عنــد البخارى رضي الله عنه حديث واحد في النهي عن لحوم الحمر الانسية (٦) .

وكان رجلا فاضلاً يخضب بالصفرة .(٧)

وكان على جانب عظيم من الورع والأمانة وقوة الشخصية ، ولم يكن إمّعَة يميل مع الريح حيث مالت . فقد فتح الله عليه وأصاب أموالا عظيمة ، فكتب له زياد بن ابي سفيان : « أما بعد فان أمير المؤمنين كتب الى أن أصطفي له الصفراء والبيضاء ، فلا تقسم في الناس ذهباً ولا فضة » ، فكتب الحكم إلى زياد : « سلام

(١) ابن الأثير (٣/٤٥٦) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٢٩) والبداية والنهاية (٧/٤٧) وتاريخ الأسلام (٢/٢٢٠) وتهذيب التهذيب (٢/٤٣٦) وصفة الصفوة (١/٢٧٩) وأسد للغابة (٢/٣٦) والاستيعاب (١/٣٥٦) والاصابة (٢/٣٠) .

(٣) ابن الأثير (٣/٤٥٦) .

(٤) البداية والنهاية (٧/٤٧) .

(٥) الاصابة (٢/٣٠) وأسد الغابة (٢/٣٦) والاستيعاب (١/٣٥٦) .

(٦) البداية والنهاية (٧/٤٧) وانظر اسماء الصحابة الرواة ـ ملحق بجوامع السيرة لابن حزم (٣٠٦)

(٧) تاريخ الاسلام (٢/٢٢٠) .

عليك . أما بعد فانك كتبت إلى تذكر أمير المؤمنين ، واني وجدت كتاب الله قبل كتاب امير المؤمنين ، وانه والله لوكانت السموات والأرض رتقاً (١) على عبد فاتقى الله . لجعل الله لـــه منهما مخرجاً . والســـلام عليك » . ثم قال للناس : « اغدوا على فيئكم فاقسموه » (٢) .

ولما استلم زياد كتاب الحكم كتب اليه : « والله لئن بقيتُ لك ، لأقطعن منك طابقاً سُحتاً » (٣) فقال حين قرأ كتاب زياد : « اللهم إن كان لى عندك خير ، فاقبضني اليك » (٤) .

واستجاب الله دعاء الحكم ، فتوفي بعد انصرافه من غزوة جبل (الأشل)(٥) سنة خمسين الهجرية (٦٧٠م) بـ (مَرْو) (٦) ودفن هناك .

وقيل : إنه توفي سنة سبع واربعين الهجرية (٧) (٦٦٧م) ، وليس بشيئ ، لأن أكثر المؤرخين أجمعوا على أنه توفي سنة خمسين الهجرية ، يؤيد ذلك أنه غزا غزوات سنة ثمان واربعين الهجرية وسنة تسع واربعين الهجرية وسنة خمسين الهجرية ، كما مر بنا .

---

(١) رتق : بكسر التاء ، انسد والتأم .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٢٨ - ٢٩) ، وأنظر أسد الغابة (٣/٣٦) والاستيعاب (١/٣٥٧) والبداية والنهاية (٧/٤٧) وتاريخ الاسلام (٢/٢٢٠) وصفة الصفوة (١/٢٧٩) والطبري (٤/١٨٧) وابن الأثير (٣/٤٧٠) والبلاذري (٤٠٠) .

(٣) السحت : ما خبث وقبح من المكاسب .

(٤) ابن الأثير (٣/٤٧٠) وأسد الغابة (٢/٣٥) والاستعياب (١/٣٥٧) والطبري (٤/١٨٧) .

(٥) الطبري (٤/١٨٦) وابن الأثير (٣/٤٧٠) .

(٦) طبقات ابن سعد (٧/٢٩) والبداية والنهاية (٧/٤٧) وتاريخ الاسلام (٢/٢٢٠) وتهذيب التهذيب (٢/٤٣٦) وصفة الصفوة (١/٢٧٩) وأسد الغابة (٢/٣٦) والاستيعاب (١/٣٥٦) والاصابة (٢/٣٠) .

(٧) ابن الأثير (٣/٤٥٦) .

القائـد :

كان الحكم قائداً عقيدياً ، لا يخضع إلا للحق وللمصلحة العليا للمسلمين ، ولا يطيع مخلوقاً في معصية الخالق .

وكان يتحلى بشخصية قوية ناقدة ، له مبادئ يطبقها ولا يحيد عنها .

وكان شجاعاً مقداماً ومجاهداً صادقاً ، له إرادة صلبة ، ولم يكن متسرعاً في قراراته ، بل كان قائداً مكيثاً ، له ماض ناصع مجيد .

وكان يثق برجاله ويثقون به ، ويعتمد عليهم ويعتمدون عليه ، ويحبهم ويحبونه .

وكان يستشير رجاله في الملمات ، ويأخذ بآرائهم السديدة ، ويولي ذوي الكفاءات القيادية العالية مهام القتال عند الحاجة ، حتى ولو كان المعزول عن القيادة بأمره هو نفسـه ، غير ملتفت إلى ما يجره تخليه عن القيادة لغـيره في أحرج الظروف من تهم وتقولات .

ولم أجد غيره من القادة تخلى عن قيادته بمحض إرادته لغيره ، وجعل نفسه بأمرة القائد الذي اختاره عن طيبة خاطر ، غير الحكم بن عمرو الغفاري ، مما يدل على شدة إخلاصه للمصلحة العامة ومحاسبته نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون .

لقد كان قائداً يضع مصالح رجاله والمسلمين فوق مصالح نفسه ، بل كان ينسى مصالح نفسه دائماً من أجل مصالح رجاله والمسلمين .

لقد كان قائداً متميزاً من طراز نادر رفيع .

الحكم في التاريخ :

يذكر التاريخ للحكم جهاده الطويل الشاق لتكون كلمة الله هي العليا ، حتى توفاه الله ، فسقط السيف من يده وهو يجاهد لاعلاء كلمة الله .

ويذكر له أنه أول من عبر الى ما وراء النهر من المسلمين ، فكان الرائد الأول لفتح تلك المناطق الشاسعة .

ويذكر له أنه أول من عزل نفسه مختاراً عن القيادة ، وولى غيره ، وخضع للقائد الجديد طائعاً مختاراً .

ويذكر له أنه نشر لغة القرآن ومبادئه في كثير من ربوع خراسان والسند وما وراء النهر .

ويذكر له أنه حرص على أموال المسلمين وحقوقهم ، فرفض باباء وشمم أن توضع أموالهم في غير مواضعها وتهدر حقوقهم ، دون أن يخشى مايجره عليه ذلك من متاعب وأضرار ، ويثيره عليه من مشاكل وصعاب .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، القوي الامين ، الاداري الحازم ، القائد الفاتح ، الحكم بن عمرو الغفاري .

* * *

محمود شيت خطاب

العربية أصل والعبرية فرع

الدكتورة باكزه رفيق حلمي

القسم الاول : اللغتان العربية والعبرية .

والمقصود بالعربية (لغة العرب) تمييزاً لها عن لغات الجزيرة العربية، العربية الاخرى ، بمعناها الخاص ، اي منذ ان تطورت لغات الجزيرة العربية ، وتحولت لهجاتها الكلامية الى لغات كتابية ، استقلت كل منها باسم خاص ، كالبابلية والاشورية والمعينية والكنعانية والارامية ، واصبحت لكل منها مميزات خاصة في قواعد اصواتها ونحوها وصرفها ، في اطار اللغة المستقلة ، كما شاركت في قواعد عامة اخرى ، تتفق فيها مع اخواتها في اطار الاسرة اللغوية المعروفة التي تنتمي اليها ، وهي اسرة لغات الجزيرة العربية العربية .

اما زمن تخصيص اللغة العربية لغة للعرب بهذا الاسم الخاص، فقد تم منذ ان انزل بها القرآن الكريم ، ونص عليها في آياته (بقران عربي مبين) (١) وكان ذلك في اوائل القرن السابع (٦١٢م) اما قبل ذلك التاريخ ، فقد كانت تعرف لغاتها باسماء قبائلها، او مواطنها، كل في موطنها كالسبئية والكنعانية والمعينية والحضرمية

١- القران الكريم سورة النحل الآية (١٠٣) . الشعراء الآية (١٩٤) يوسف الآية (٢) الزمر الآية (٢٨) وطه الآية (١١٣) .

والقتبانية في العربية القحطانية في جنوب الجزيرة. والثمودية والصفوية واللحيانية والكنعانية في شمالها وغربها . وهي كلها تعد من العربية البائدة في نظر العلماء . ثم في العربية الباقية او العدنانية في شمال الجزيرة في لغات العرب المستعربة الذين ينتمون الى اسماعيل بن ابراهيم الخليل من هاجر أمة زوجته سارة (١) وقد تزوج اسماعيل من (جرهم) وهي قبيلة يمنية فولدت له زوجته (عدنان) ، ومن هذا النسب الذي يجمع بين اب من الشمال وام من الجنوب كوّن هؤلاء العلماء العرب المستعربة ، وهو ان دل على شيء فيدل دلالة اكيدة على ان عرب الجنوب امتزجوا بعرب الشمال في المرحلة التاريخية الثانية للغات الجزيرة العربية وان عرب المرحلة الثالثة ما هم الا نتاج هذا المزيج بين عرب قحطان وعرب عدنان معاً . . ومن عرب عدنان وهم الذين كانوا يسكنون نجداً والحجاز وتصل قبائلهم باديتي الشام والعراق تكونت قبائل العرب التي عرفنا اخبارهم في الجاهلية وصدر الاسلام وهم (نزار) وشعبتاها ربيعة ومضر ، ومن مضر قبائل تميم وقيس واسد وكنانة وهذيل وغطفان وخزاعة وهم اهل بداوة ومن ربيعة لخم وجذام وغسان واياد وقضاعة وهولاء اهل الحضارة (٢). ومن هذين الفرعين الكبيرين من عدنان او عرب الشمال تنحدر معظم قبائل العرب الحالية .

اما تاريخ هذه اللغة فهو تاريخ لغات الجزيرة العربية بمجموعها ، فاقدم النصوص التي وجدت مدونة بأقدم لغة من هذه الاسرة وهي الاكدية التي تعود الى اوائل الالف الثالث ق.م تؤكد ان بينها وبين اللغة العربية الحديثة من الصلات ما بين لهجة واخرى من اية لغة عرفت حتى الآن، بينهما اكثر من خمسة

١– سفر التكوين الفصل السادس عشر الآية (١) .

٢– ادباء العرب . بطرس البستاني ص ١٧

الاف عام من الزمن . وبالمقارنة بينهما وبين اقدم لغة عربية من اللهجات العربية الجنوبية وهي (المعينية) يتكرر هذا التأكيد بشكل يدل دلالة لا شك فيها على ان اللغتين الاكدية والمعينية ما هما الا لهجتين معاصرتين للغة واحدة تفرقتا ، استقرت المهاجرة منها وهي الاكدية في موطن جديد وبقيت الأخرى في موطنها دون تغيير .

واذا جاز لنا ان نعتبر احدى لغات الجزيرة العربية العربية أماً للغات هذه الاسرة جميعاً لكانت العربية بلا شك هي هذه الام . فقد اكدت كل الدراسات العلمية واللغوية التي قام بها جمع كبير من علماء اللغات السامية والاستشراق ، انها تحمل من الصفات اللغوية من حيث اتساع مدى الصوت ومرونة المخارج ودقة التمييز ونقاوة الجرس ما لم تبلغه لغة اخرى عربية وغير عربية . ومن الغنى والثراء في المفردات بسبب سهولة الاشتقاق ويسر التصريف وتعدد الصيغ والموازين ما جعلها في مصاف اغنى لغات العالم واقدرها على استيعاب كل معنى دقيق جزئي وشامل ، وكل فكر قديم ومستحدث ، دون عناء او اجهاد فكر . ومن الاساليب البيانية والبلاغية ما يعجز القلم عن وصفها والفكر عن تعقبها ، لدقة ما فيهامن اسرار الاعراب يُبين ادق ما خفي من معنى بأوجز إشارة وايسر سبيل ، حتى لكأنها لغة خصت بالتقديس وكرمت بالتنزيل وحدها .

وقد عرفت هذه اللغة في التاريخ كلغة مستقلة قبل تخصيصها بهذا الاسم بأكثر من الفي سنة . عرفت في مرحلتها التاريخية الاولى وهي ما تزال في اول ادوار تحولها الى لغة كتابية في كتابات النقوش العربية الجنوبية في اليمن بالخط المسند وبلهجاتها المعروفة بالعربية الجنوبية او القحطانية وهي المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية

والحميرية(١) وفي الكتابات الاوغاريتية والكنعانية المعروفة في سوريا وفلسطين في اول عهد هجرة القبائـــل العربية الى الشمال اي في الالف الثاني ق.م. ثم عرفت في مرحلتها التاريخية الثانية في شمال الجزيرة العربية في كتابات لهجاتها المعروفة بالثمودية والصفوية واللحيانية المدونة بالخط العربي المسند ايضاً في نحـــو الالف الاول ق.م وكانت معاصرة للارامية والعبرية في هذه المرحلة كما كانت معاصرة للاكدية فـــي مرحلتها الثانية .

ثم في عربية الجاهليـــة التي تولدت من امتزاج لهجات الشمال مـــع لهجات الجنوب « بعد ما تفرقت القبائل القحطانية في وســـط الجزيرة وشمالها فمنها من سكن البادية وعاش فيها عيشة الاعراب الجفاة ومنها من نزل القرى واطراف الشام والعراق وكان الذين هاجروا من حمير قبائـــل قضاعة فاستوطنت تنوخ العراق ، وكلب بادية الشام ، وعُذرة وادي القرى بالحجاز . وكان الذين هاجروا من كهلان قبائـــل الازد فنزلوا عمان ومنهم الغساسنة في الشام وخزاعة بمكة والاوس والخزرج بيثرب » (٢)

اما العربية الشمالية العدنانية فانها تتألف من القبائل النزارية وهي من ذرية عدنان من احفاد اسماعيل بن ابراهيم وتتألف بدورها من شعبين كبيرين هما ربيعة ومضر .

ومن امتزاج هاتين المجموعتين من القبائل العربية الجنوبية والشمالية تكونت لغة العرب الجاهلية وهي التي سبقت الاسلام ببضعة قرون وتركت اثارها الكتابيـــة في النقوش العربية المكتوبة بالخط النبطي المتطور من الارامي البابلي او الكنعاني المسند المتطور من الاوغاريتي الشمالي وطنا العربي الجنوبي لغة وأهم هذه النقوش ثلاثـــة هي :

١- الدكتور شوقي ضيف العصر الجاهلي ص ٣٥ .

٢- بطرس البستاني ادباء العرب ص ١٧ .

١ـ نقش النمارة ولغة هذا النقش قريبة جداً من عربية صدر الاسلام والكتابة بالخط المتطور من النبطي والمسند وهــو الخط الذي تحول الى الجزم العربي الاسلامي . وتتألف الكتابة من خمسة اسطر كتبت على شاهد قــبر امرئ القيس بن عمرو احد ملوك الحيرة . وجد في منطقة النمارة قرب دمشق ويرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ م (١).

٢ـ نقش زبد عثر على هذا النقش في الاطلال المعروفة بزبد قرب مدينة حلب ويعود تاريخه الى ٥١٢م اي قبل الاسلام بقرن واحد فقط . وهذا النقش عربي النص والكتابة . وحروفه متصلة .

٣ـ نقش حوران وقــد عثر عليه في منطقة (حوران اللجا) قرب دمشق ويعود تاريخه الى ٤٦٨م وهو عربي النص واللغة ايضاً وكتابة متصلة الحروف .

واخيراً عرفت هذه اللغة العربية في العربية الحديثة في مرحلتها التاريخية الثالثة التي اصبحت فيها لغة التنزيـل وخصت بهذا الاسم منذ ان نص القرآن الكريم على تخصيصها بهذا الاسم .

وقد بدأت هذه المرحلة قبيل الاسلام بقرن او يزيد بالادب الجاهلي شعره ونثره ما دون منه قبل الاسلام وما لم يدون (٢) الا بعده . اذ . لا سبيل الى رد شيء . منه . فان مجرد نزول القرآن بهذه اللغة الجزلة البليغة المعجزة دليل قاطــع على وجود الادب الجاهلي ولغته المتكاملة ، و كيف يعقل ان يخاطب الله قوماً يريد هدايتهم بلغة معجزة لا يفقهون منها شيئاً ! .

ومن امتزاج لغات العرب القحطانية والعدنانية تكونت هذه اللغة لا من العدنانية فقط كما قيل ، وهنا لا بد مــن وقفة عنــد (العرب العاربة والعرب المستعربة) و (العرب البائدة والعرب الباقية) .

١ـ الدكتور علي عبدالواحد وافي فقه اللغة ص ١٠٤ .

جميع العرب عرب عاربة، قبل الاسلام ، بقحطانيهم وعدنانيهم ، فقد كانوا في مواطنهم لا يبرحونها ولم يبرحوها ، نشأت شعوب الجزيرة العربية في جنوب الجزيرة وانتشرت منها ، ومن بعُد عن الجزيرة اي وصل الى ارض بابل واشور والشام ومصر فقد اندمج بشعوبها واختطلت لغاته بلغاتها فتكون من ذلك لغات هـي عربية خالطتها عجمة تلك الشعوب وهي كما قلنا البابلية والاشورية والارامية والكنعانيـة . اما الذين مكثوا في الجزيرة وتنقلوا بين اليمن والحجاز ونجد اي في الاماكن التي لم تكن من قبل مواطن لشعوب لا تنتمي الى الجزيرة فقد بقيت لغاتهم عربية نقيـة ولم يصبها من التغيير الا ما يصيب الزمن ظاهرة من الظواهر بالتطور ، فلم تضعف جذور هـذه اللغة بل قويت ولم تبعـد عن قواعدها بل ثبتت ولم تخالطها عجمة اللغات الغريبة عنها بل صفت ، اما ما دخلتها من مفردات كانت ظروف الحضارة تتطلبها فذلك حاصل في كل لغة ولا يصيبها ذلك بالعجمة بل انها هي التي تبنت تلك المفردات وطوعتها لقواعد الصياغة والاشتقاق والبستها ثوبـاً عربياً خالصـاً ولا يضير لغـة ان تقتبس من الفاظ العصر من لغـات اخرى وتخضعها لقواعدها فالمفردات رموز ولا دخل لها في قواعد لغة ما دامت لا تفرض قاعدة غريبة عن تلك اللغة عليها بل تخضع هي لقواعدها .

اما بعد الاسلام فقد دخلت الاسلام شعوب كثيرة واتخذت من لغة القرآن لغـة لها وفي صراع العربية مع لغاتها تولدت لغات (لهجات) محلية جديدة مولدة هي التي يمكن ان نسميها عربية مستعربة وهي عربية العراق وعربية الشام وعربية مصر وعربية كل قطر من الاقطار العربية التي كانت لغاتها قبل الاسلام غير عربيـة. هذه العربيات حالها كحال البابلية والاشورية والارامية في العصور السابقة مستعربة لانها اقتحمت على لغات اخرى اوطانها وقضت عليها في الظاهر ولكنها

انصهرت فيها وكونت معها لغة جديدة هي ما نسميها باللهجات العامية التي مـر ذكرها . ولكن بقي امر واحد يجب الا ننساه ابداً وهو ان اللغة المثلى التي نزل بها القرآن الكريم ، بقيت في قدسيتها لا يمسها ضر وانها ستكون المعين الذي لا ينضب ليمد هذه اللهجات كلما بَعُد بها الزمن واوغلت في التطور والتغير ويلبسها ثوبـاً عربياً دائم التجدد والنماء .

اما (العربية البائدة) فهي ايضاً اصطلاح لغير فائدة فاللغة لا تموت وانما تتجدد وتتغير وتتولد وفي اثوابها الجديدة يكمن القديم، ان اللهجات اليمانية الحديثة ما هي الا بقايا المعينية والسبئية . . .الخ بأسماء جديدة واثواب جديدة ولو تحرينا الفاظها ومعانيها بدقة لوجدنا ان التطور وحده قد رقق من صوت او اضاف صوتاً او غيّر مكان صوت وان الحقائق ما زالت هناك لتوكد ان لغة معين حية ولغة سبأ حية، وان اللغة السومرية مازالت ترفل بالحياة في لهجات العراق في ارض شنعار القديمة . . . ولو اتيحت لنـــا فرصة لنجري بحثاً علمياً لغوياً في مفردات اللغة العربيـــة في العراق لرأينا العجب من آثار السومرية والبابلية . اسماؤها اختفت وصفاتها بقيت وان كان امتزاج اللغات العديدة التي مرت بهذه المنطقة قد كونت لغات جديدة فجذور تلك ما تزال في الاعماق حية . بخلاف اليمن والحجاز فلغاتهما ما زالت عربية تتجدد على اصولها وتحيا بفروعها دون تغيير كبير كما حصل لاخواتها الاكدية والارامية والكنعانيـــة التي انصهرت في لغات غريبة عنها غيرت الكثير من معالمها .

ولن اطيل الحديث عن العربية بعد هذا فهي في مرحلتها الثالثة والاخيرة بلغت غاية التكامل ان لم يكن الكمال في كل جانب من جوانبها اللغوية . الصوتية ففيها كل الاصوات التي يمكن ان تطلقها حنجرة بشرية بفضل مرونتها الاصيلة واحتكاكها في لهجاتها العامية بلغات عديدة من كافة الاســـر اللغوية المعروفـــة حتى اليوم

والمورفولوجية ففيها من الموازين والاقيسة مـــا يجعلها تستطيع ان تصطنع لكل معنى جديد وفكر حديث صيغة تضـــع لها مئات المدلولات والمفردات ومن ســـرعة في تعريب الغريب واخضاعه لقياسها ما تعجز عنه لغة اخرى ومن اســـاليب البيان والاعراب ما يجعلها في مصاف ابلغ اللغات واوضحها بياناً . . كل هذا الثراء والغنى اذهل العلماء من عرب وغيرهم وحيرهم في امرها فامضى مئات منهم الاعمار في دراستها والتعمق فيها لسبر اغوارها . وصنف المجلدات الضخمة في كل جزء منهـا ولست ارى داعياً لذكر اي منها فكلنا نعرف الكثير منهم .

ولن نتحدث عن لغة القرآن فالحديث فيها يطول ، وسنفرد لهـــا بحثاً مستفيضاً في فرصة اخرى ان شاء الله .

اما اللغة العبرية فهي (اللغة الكنعانيـــة او لغة العهد القديم) من التوراة فقـــط ! وليست لغة العبرانيين (١) واللغة الكنعانية لدى العلماء حتّى اليوم هي لغة المجموعـــة الوسطى للغات الجزيرة العربية العربية الّتي عرفت منذ الالف الثاني ق.م في منطقة سوريا وفلسطين ووجدت بها عـــدة مجموعات من النقوش تعود الى القرن السادس عشر ق.م في بعض رسائل تـــل العمارنة بالخط المسماري الاوغاريتّي ثم في كتابات القرن الثامن ق.م بالخـــط الكنعاني المتطور من الاوغاريتّي ولكنّي ارجح انها لغـــة عربية جنوبية ارتحلت قبيل الالف الثاني ق.م مع العمورية والارامية واستقرت على سواحل البحر الابيض المتوسط بل ووصلت شمال افريقيا من هناك واسست حضارة مزدهرة سميت بحضارة قرطاجنة في نحو القرن التاسع ق.م، كما استقرت الارامية ، في الشام والعمورية في العراق في الفترة ذاتها ، واستخدمت ابجدية متطورة من المسند الجنوبي الذي اشتقت منها ابجديات العالم كلها فيما بعد . وتبنى العبرانيون وهم – جماعات

1- Gesenius Heb. gram. P. 8-9.

بشرية تتصف بالترحـــل والانتقال عبر البادية ، تنتقل من حاضرة الى اخرى كلما ضاقت بها الارض ونفر منهم سكانها ـ هذه اللغة وكتبوا بها اسطورتهم التاريخية العجيبة (التوراة) بلغـــة كنعانية سليمة اول الامر ثم بلغة مضطربة دخل فيها الكثير من غريب اللغات الاخرى التي كان العبرانيون يتكلمونها ، هي مزيج من الارامية والعبرية ولغات اخرى وقـــد سمى العبرانيون انفسهم لغة الاســـفار الاولى بـ (شفه كنعان) في التوراة اي لسان كنعان .

ويدعي العبرانيون انتسابهم الى قوم ابراهيم الخليل عليه السلام الذي دعاه الرب الى الهجرة من ارض آبائه الى ارض الغربة في فلسطين وارض آبائه هي اور الكلدانيين التي عبروا منها النهر الى حران في بلاد (آرام-الشام) ثم انتقلوا منها الى ارض الغربة بعـــد زمان ، تزوج فيها ابراهيم . وفلسطين هـــي ارض كنعان التي لـعن ابناءها العبرانيون في التوراة « قال الرب : ملعون كنعان ، عبداً يكون لعبيد اخوته » « وقد تبارك الله ال سام وليكن كنعان عبداً له » فكيف تكون ارض كنعان ارض العبرانيين وكيف تكون لغة كنعان لغة العبرانيين (١) .

ويفسر سر هذه اللعنة نقش كنعاني قديم يعود الى القرن التاسع ٨٥٠ق.م(٢) ويتألف النقش من اربعة وثلاثين سطراً وجد على مقربة من البحر الميت قرب مدينة (ديبان) ويعود النقش للملك الموابي ميشا الذي يسجل فيه حروبه مع بني اسرائيل مما يـــدل على ان بني اسرائيل لم يكونوا من اقرباء بني كنعان ولا من العشائر الصديقة ، بل كانوا طارئين غرباء تسللوا الى ارض كنعان واستوطنوها ثم انتحلوا لغة اهلها ودونوا بها كتابهم المقدس .

اما اقدم جزء مدون من العهد القديم باللغة الكنعانية القديمة فهو مخطوطة تتألف

١- سفر التكوين الفصل التاسع الاصحاح ١٨ - ٢٥ .

2- Gesenius Heb. Gram.

من ستة اسطر تعود الى القرن الثامن ق.م وجدت قرب (اورشليم – نور السلام) اي انها كتبت قبل السبي البابلي بنحو (١٥٠) عاماً فقد تم السبي سنة ٥٨٦ ق.م.

امـــا العبرانيون انفسهم ، فانهم شعب هجين مجهول الاصل إتصف بالتجول والترحال والتنقل الدائم واجتياز الانهار من اور الكلدانيين الى حران ثم ارض كنعان فمصر والعودة منها في فترات تطول او تقصر حسب ما تلاقي من ظروف مواتيـــة او غير مواتية. . . ويؤكد العلماء على ان النهر الذي (عبروا) هو نهر الفرات كما يؤكد التوراة ان ارض الآباء هي اور (الكلدانيين) في بلاد بابل . وسماهم لذلك الاقوام المعاصرة لهم (بالعبرانيين). اما هم فكانوا وما زالوا يسمون انفسهم (بنـــي اسرائيل) وشعب الله المختار .

واسرائيل هو لقب يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل(١). الذي باركه الرب واختار ذريته بني اسرائيل لعبادته ، ولكن الذي ارجحه هو انهم من بقايا الشعوب السومرية والعيلامية التي كانت تقطن السهل الجنوبي لوادي الرافدين قبل الغزو الاكدي ، وان الهجرات العربية المتواصلة من الجزيرة واختلاف العقائد(٢) ضيقت عليهم الارض فارتحلوا عنها ، وانهم اقرب الى الشعوب الايرانية الجنوبية غير الآرية منهم الى الآريين او عرب الجزيرة. . . واستوطنوا (حران) من بلاد (ارام) في الشام واختلطوا هناك بالاراميين والعرب والحثيين غير العرب فتكون منهم مجموعة بشرية غير متجانسة الصفات

١– سفر التكوين الفصل التاسع

٢– يبدو ان بعض العقائد الايرانية كانت قد تسربت الى بلاد بابل من الشعوب القاطنة شرقي وادي الرافدين ولقيت فيها رواجا وان (رهط ابراهيم) كانوا معتنقي هذه العقائد فاضطهدهم البابليون الوثنيون فارتحلوا غرباً الى حران يبشرون بتلك العقيدة التي تمخضت فيما بعد عن اليهودية بعد أن غزا المصريون كنعان بقيادة (موسى) عليه السلام وامتزجت عقيدة التوحيد التي جاء بها من مصر مع العقيدة اليهودية المشابهة لها التي جاءت من بابل .

لا تنتمي الى اي شعب من الشعوب المعروفة آنذاك في التاريخ من حيث العرق ، ولا تمتلك لغة خاصة بها بل كانت لكل فئة منهم لهجة من لهجات الاقوام التي سكنوا بينها ، جاؤوا من بابل وهم يتكلمون بلا شك بلهجات بابلية او سومرية وربما سومريه ، ثم استوطنوا الشام فاتخذوا الآرامية وربما الحثية ايضاً لغة كلام . . . ثم رحلوا الى كنعان وهناك تعلم احبارهم لغة كنعان واتقنوها وكتبوا بها اسفار العهد القديم واصبحت اللغة الكنعانية تسمى اللغة العبرية بعد ان عمت تسميتهم بالعبرانيين فنسبت اللغة اليهم ثم جاء قوم موسى فامتزجوا بهولاء وكونوا خليطاً جديداً هوالشعب الذي سمى بالعبراني .

وقد اثبتت الدراسات الانثروبولوجية(١)، التي اجريت على اليهود في مختلف انحاء العالم وفق المقاييس العلمية للصفات البشرية على ان اليهود يختلفون فيما بينهم اختلافا بيّنا ، من حيث القامة، الوزن ، نوع البشرة ولونها ، الشعر نوعيته ولونه ، العيون الوانها ، مقاييس الجمجمة ، الوجه ، مجاميع الدم . . . الخ اي جميع الصفات التي تحدد بموجبها الاجناس البشرية .

ولم يكن اسلافهم اقل اختلافاً فيما بينهم من حيث هذه الصفات جميعاً ، فقد كانوا خليطاً من شعوب متعددة كما ذكرنا وكما تؤكد اسفار التوراة ، التي تتحدث كلها عن رحلات العبرانيين وتنقلاتهم المستمرة بين الشرق والغرب من (أور) الكلدانيين في بابل الى حران فكنعان فمصر واختلاف الشعوب في هذه الامصار وتأثر هؤلاء العبرانيين بهم في اقاماتهم الطويلة بين هؤلاء وحلهم وترحالهم الدائم. واذا كان لنا ان نشبه اليهود بقوم فهم اقرب الناس الى الغجر الذين لا ارض تحملهم ولا لغة تجمعهم .

1- Encyclopaedia Brit Vol. 11 P. 279-83.

ففي انتقالهم الدائم بين الامصار ، ضاعت جميع ما يمكن ان تربط من صفات بين افراد مجموعة بشرية ان كانت هناك اية صفة تجمعهم ، ومن أجل تكوين كيان يميزهم وتحقيق الحلم الذي كان يراودهم مارس اليهود منذ القديم الاعتراف بكل من يدعى اليهودية واعتباره يهودياً مطلقاً ليس فقط في العقيدة الدينية بل في تكوين خاص يجمع بين العقيدة والارض والشعب واللغة معاً ، اي التكوين القومي الذي رسموه بانفسهم . وقد وصلت هذه السياسة الذروة في بعض مناطق العالم ابتداء من القرن الاول ق.م ولعله كان منذ السبي البابلي . وبلغ غايته في القرن الثامن الميلادي في روسيا وهنغاريا ومناطق اخرى من اوربا حتى الآن . والثابت علمياً ان سحنة اليهود ومقاييسهم البدنية تختلف حتى الآن باختلاف المناطق التي يعيشون فيها اي لا يوجد جنس يهودي مطلقاً وان كانت المظاهر البدنية وخاصة الانوف المعقوفة تشير الى اصل (حثي) او عيلامي(١) اي كما اثبت العلماء. واكثر المناطق التي تظهر فيها هذه الاختلافات العرقية اليوم هي اسرائيل الحديثة نفسها .

وجميع اسفار التوراة تؤكد هذه الحقائق بالنسبة الى ماضي هذا الشعب .

فابراهيم نفسه من(اور) وإبنه اسماعيل من امة مصرية وزوجته سارة آرامية وحفيده يعقوب بن اسحق تزوج من (ارام فدان) اذ قال له ابوه «لا تتزوج من كنعان»(٢). اما كلمة(عِبراني)فهي ارامية الصيغة كنعانية الاصل من (عَبر) النهر عبوراً ، اي قطعه من ضفة الى اخرى . وهي في الارامية بمعنى (رحل) من عِبِر ، اضاف اليها العبرانيون كاسعة الجمع (يم) فاصبحت (عبرايم—عبرانيون) بدل (عِبرين)

١— اشير هناء الى عبارة التوراة « من المشرق التي تؤكد ان العبرانيين ليسوا من الجزيرة العربية بل من شرق شنعار وهي بلاد عيلام » وكانت الارض كلها لغة واحدة وكلاماً واحداً ، وكان انهم لما رحلوا من (المشرق) وجدوا بقعة ارض من شنعار فاقاموا هناك و بنوا مدينة و برجا ... الــخ الفصل الحادي عشر الاصحاح الاول من سفر التكوين .

٢— سفر التكوين الفصل الاول الآية (١) .

الكنعانية . وهذه الكاسعة (يم) لم تعرف في علامات الجمع في لغات الجزيرة العربية العربيةالا في العبرية والاوغاريتية،وقد تكون غير عربية والاكدية والمعينية وهما اقدم لغتين عربيتين تجمعان بالواو والنون او الياء والنون (١) .

ويرى بعض العلماء ان (عِبر) قلب لكلمة (عرب) ولكنني لا ارى ذلك فكلمة (عِبر) كما مر تعني (عبر) او اجتاز اما (عرب) فمعناه المساء اوالغروب وليس هناك دليل لغوي على قلب (عرب) الى عِبِر لعل تشابه المعنى في الاجتياز والغروب هو الذي دعا الذين رأوا هذا الراى الى القول به . كما انه ليس هناك دليل تاريخي يحدد زمن اطلاق هذا الاسم على اليهود ، وهل كان خاصاً باليهود فقط ام انه كان يشمل جميع القبائل التي كانت تتجول بين بابل واورشليم .

اما كلمة بني اسرائيل فهي تعني تلك الفئة من العبرانيين التي ادعت الانتساب الى (يعقوب بن اسحق — المعروف باسرائيل او يشرا — ئيل) (المخلص للرب)من (يشرا — مخلص وايل — الرب) واسرائيل هو الابن الثاني لاسحق بن ابراهيم . فقد كان له ولدان (عيسو) و (يعقوب) وبارك الرب يعقوب لاخلاصه وعبادته للرب فسمي اسرائيل وسميت ذريته بني اسرائيل وفي كل التوراة لا نجد لكلمة اسرائيل او بني اسرائيل اي مدلول قومي او سياسي او حتى قبلي . بل يذكرون دائماً كفئة دينية (كهنوت) فقط جاءت بعقيدة روحانية لا نبالغ اذا قلنا بأن فيها الشئ الكثير من (مجوسية — كهنوتية) العقائد الايرانية (٢) .

وقد اطلقت كلمة (اسرائيل) على مملكة (داود) و (سليمان) في التاريخ ثم

١- الدكتورة باكزه رفيق حلمي . لغات الجزيرة العربية العربية . مجلة المجمع العلمي العراقي العدد ٢٤ سنة ١٩٧٤ .

٢- هذا رأي اكاد اجزم به مما وجدت من الشبه بين اليهودية والمجوسية الفارسية وساحققه للتثبت من صحة ما اذهب اليه .

على المنطقة الشمالية للمملكة التي سقطت في القرن الثامن – ٧٢١ ق.م لتحل محلها مملكة (يهوذا) . ويهوذا هو الابن الرابع لاسرائيل بن يعقوب الذي اسس مملكة (يهوذا) مع اخيه بنيامين بعد سقوط (اسرائيل) ولا تذكر التوراة (اليهود) او اليهودية الا في الاسفار المتأخرة للعهد القديم حيث اصبحت البلاد كلها تسمى مملكة (يهوذا) وحيث سادت العقيدة التي تسمى باليهودية .

وهنا لا بد لنا من التأكد على ان ما يعنينا في بحثنا الآن هو لغة العهد القديم من اللغة العبرانية ، فهي اللغة الكنعانية العربية التي انتقلت من جنوب الجزيرة العربية حاملة معها كل الخصائص اللغوية الاولى للغات الجزيرة العربية بما في ذلك ابجديتها التي وجدت بها النقوش في منطقة جبيل (بيبلوس) التي تعود الى القرن الخامس عشر قبل الميلاد وهي اللغة الاوغاريتية نفسها التي وجدت كتاباتها المسمارية في راس شمرا فقد كتب الكنعانيون بالخطين المسماري المقطعي والمسند العربي (١) .

لغة العهد القديم والتوراة .

تؤكد المصادر التاريخية ان موسى وقومه دخلوا فلسطين في نحو القرن الثالث عشر ق.م وان شريعة موسى نزلت في جبل سيناء وقد وردت اشارات اليها في الكتابات المصرية التي تعود الى القرن الحادي عشر ق.م وكتب موسى ما نزل عليه من الوصايا في لوحين من الحجر . . . ويرجح ان اللغة التي كتبت بها هذه الوصايا لم تكن (كنعانية) بل (مصرية) فقد نزل الوحي قبل وصول موسى الى ارض كنعان ثم استقر قوم موسى في ارض كنعان فاتخذوا اللغة الكنعانية لغة لهم بعد ان امتزجوا باهلها وكتبوا بها اول اجزاء العهد القديم وهو نقش (اورشليم) الذي يعود الى القرن الثامن ق.م وتعد هذه المرحلة بالنسبة للغة العبرية المرحلة الذهبية فقد كانت اللغة

١– الدكتور علي عبدالواحد وافي فقه اللغة ص ٣٨ .

(كنعانية) نقية لم تتأثر بعد بلغات العبرانيين المهاجرين ، بل ان احبار اليهود كانوا يتقنون اللغة الكنعانية اتقاناً تاماً ويكتبون بها بسلاسة واتقان . وانتهت هذه المرحلة بسقوط مملكة يهوذا على يد نبوخذنصر البابلي سنة ٥٨٦ ق.م وسبي اليهود الى بابل وقد دونت معظم اسفار العهد القديم في هذه المرحلة اي قبل السبي ببضعة قرون وهي التكوين، الخروج ، التثنية ويوشع والقضاة وصموئيل والملوك ونشيد الانشاد وقسم من الانبياء . واقدم ما وصلنا من هذا العصر هو كما قلنا نقش (اورشليم) ثم قصيدة لحكيمة يهودية اسمها (دبورا) والقصيدة جزء من سفر (القضاة) وتاريخها غير مؤكد ولعله كان ايضاً في القرن التاسع قبل الميلاد .

اما المرحلة الثانية للغة العبرية وهي المرحلة التي تحولت فيها اللغة الكنعانية القديمة الى لهجات عامية مضطربة هي خليط من الكنعانية الكلامية والارامية والبابلية فقد بدأت منذ السبي البابلي واستمرت حتى القرن الرابع ق.م اي زهاء القرنين ولكن الديانة اليهودية وجدت في ارض بابل الكثير من العون والتسامح هذه المرة وخاصة بعد استيلاء كورش الفارسي على بلاد بابل سنة ٥٣٨ ق.م اذ عاد اليهود الى اورشاليم وسمح لهم باعادة بناء بيت المقدس الذي هدمه نبوخذنصر ،ولا شك في ان السر في هذا التعاطف البابلي الفارسي كان بسبب العقائد المتشابهة وربما تم التحالف ضد الاكديين العرب . فقد كان الصراع بين نبوخذنصر صراعاً عقائدياً اولا وقومياً ثانياً وهذا يؤكد ما ذهبتُ اليه من اثر العنصر الفارسي العيلامي في الشعب العبراني . فقد بارك اليهود (كورش) وعظموه في التوراة في سفر عزرا وما بعد « هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الارض قد اعطانيها الرب اله السماوات ، واوصاني بأن ابني له بيتاً في اورشليم التي بيهوذا فمن كان منكم من شعبه فالهه معه فليصعد اورشليم التي بيهوذا ويبني بيت الرب اله اسرائيل وهو الاله الذي باورشليم » .

وعلى الزغم من محاولة الاحبار اليهود إبقاء لغة (العهد القديم) القديمة حية نقية ، فقد عجزوا لشدة اختلاط اللغات التي كانوا يتكلمونها ويكتبونها فقد كانوا ينتمون الى شعوب مختلفة اللغات من عيلامية وسومرية وفارسية وبابلية كما ان الكتابة التي كانوا يكتبون بها اختلفت فقد بدأوا يستخدمون البابلية المتطورة من المسمارية يدل الكنعانية القديمة .

ووصلت اخيراً (لغة التوراة) غاية الضعف في القرن الرابع ق.م وماتت كلغة كتابية حية وتحولت ارامية عبرية عامية مضطربة اذ اخذت الارامية تسود . ثم اخذ علماء اليهود واحبارهم يحاولون شرح العهد القديم فتكون من الشروح والاحكام ما يسمى (بالتلمود) وهو يتألف من قسمين الاحكام والقوانين وتسمى بالمشنا والشروح والحواشي وتسمى (بالجمارا) وكتبت هذه الكتب بالعبرية العامية التي مر ذكرها ثم شرحت بالارامية . والتلمود . تلمودان (اورشليمي) وكتب في اورشليم و (بابلي) كتب في بابل .

• • •

الابجديّة

العربية		العبريّة
ا	A	א
ب	B	בּ
ـ	V	ב
ج	g	גּ
غ	gh	ג
د	D.d	דּ
ذ	dh	ד
ه	H	ה
و	W	ו
ح	Ḥ	ח
ط	Ṭ	ט
ز	Z	ז
ي	y	י
ك	K	כּ
خ	Kh	כ
ل	L	ל
م	M	מ
ن	N	נ
ص	Ṣ	ס
ع	ʿA	ע
ـ	P	פּ
ف	Ph.F	פ
ض	ژ(ظ)	צ
ق	Q	ק
ر	R	ר
س	S	שׂ
ش	Sh	שׁ
ت	T	תּ
ث	Th	ת
ظ	—	—

القسم الثاني : بحث مقارن في قواعد اللغتين العربية والعبرية .

١ـ الاصوات الصحيحة Consonants

تتألف الابجدية العربية الجنوبية (المعينية) من ثمانية وعشرين حرفاً صحيحاً هي عدد اصوات اللغة العربية الحديثة وحروفها (١) وقد انتقلت هذه الاصوات مع ابجديتها المعروفة بالمسند الى الشمال ووجدت في اللغات الثمودية والصفوية كما وجدت في ابجدية مماثلة للكنعانية في النقش الذي اكتشف في جبيل (بيبلوس) في لبنان ، الذي يعود الى القرن الخامس عشر ق.م مما يدل على ان عرب الجنوب والشمال كتبوا بابجدية واحدة هي المسند ولغة عربية واحدة وهي اللغة التي سجل لها الاقدمون ثمانية وعشرين صوتاً ، هي عدد اصوات العربية الحديثة تماماً .

ولو امعنا النظر في الابجدية العبرية المعروفة اليوم التي اشتقت من الكنعانية القديمة التي مر ذكرها لوجدنا ان عدد حروفها واصواتها هي تماماً عدد حروف اللغة العربية واصواتها مضافاً اليها رمزاً للهمزة منفرداً بالرغم من ان علماء اللغة دأبوا على القول بأنها تتألف من اثنين وعشرين حرفاً . والسبب في ذلك هو انهم لم يعدوا الحروف المعجمة من الابجدية بخلاف العربية التي نرى فيها ان الحروف المعجمة وهي الحروف المنقطة كالذال والغين و (الزاي) و(الضاد) و (الشين) هي صور للحروف المهملة المماثلة لها شكلاوالمقاربة لها مخرجاً ، ميزت بالاعجام عن المهملة لتمايز اصواتها ووضعت داخل الابجدية فاصبح عددها ثمانية وعشرين بدلا من اثنين وعشرين . وعلى ذلك فتكون الابجديتان المسند القديم المعروف بالعربي الجنوبي والكنعاني القديم الذي اشتق منه العبري متفقتين في عدد الاحرف مختلفتين في بعض الاصوات على النحو التالي :ـ

١ـ الاستاذ اغناطيوس غويدي . المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية القديمة ص ٢ الابجدية .

١ – الاصوات الشفوية . . . وتتألف في العربية من الباء والميم والواو اما في العبرية فتتألف من الباء = ב والميم מ ثم الباء الشبيهة بـ P في الانكليزية ورسمها كحرف الفاء العبرية مع الاعجام פ .

٢ – الاصوات الشفوية الاسنانية . وتتألف في العربية من الفاء فقط اما في العبرية فتتألف من الفاء ورسمها פ بدون اعجام ثم الواو الشبيهة بـ V في اللغة الانكليزية ورسمها كالباء بدون اعجام ב .

٣ – الاصوات اللسانية الاسنانية وتتألف في العربية من الثاء والذال والظاء وفي العبرية من الذال ד بدون اعجام والثاء ת بدون اعجام والظاء التي تلفظ بصفير خاص يجمع بين صوتي ال (ژ) الفارسية والصاد العربية ورسمها צ .

٤ – الاصوات اللثوية الاسنانية وتتألف في العربية من الضاد والدال والطاء والتاء، والزاي والسين والصاد . وفي العبرية من الدال ד بالاعجام والطاء ט والتاء ת بالاعجام والزاي ז . والسين ש والصاد ס . اما الضاد فمفقود في العبرية ويبدو انه تطور الى الصوت الذي يشبه (ژ) الفارسية

٥ – الاصوات اللثوية وتتألف في العربية من النون واللام والراء . وفي العبرية من النون נ واللام ל والراء ר .

٦ – الاصوات الغارية وتتألف في العربية من الجيم والياء والشين . وفي العبرية من الجيم وتلفظ كالجيم المصرية والكاف الفارسية ورسمها ג بالاعجام والياء י والشين ש .

٧ – الاصوات الطبقية . وتتألف في العربية من الكاف والغين والخاء . وفي العبرية

من الكاف כ بالاعجام والغين ג بدون اعجام والحاء כ بدون اعجام .

٨ – الاصوات اللهوية وهي في العربية القاف فقط وكذلك في العبرية ورسمها ק .

٩ – الاصوات الحلقية وتتألف في العربية من العين والحاء وهي كذلك في العبرية العين ע والحاء ח .

١٠– الاصوات الحنجرية وهي في العربية الهمزة والهاء وهي كذلك في العبرية الهمزة א والهاء ה .

وكل هذه الاصوات تعتبر صحيحة، فيما عدا ثلاثة هي (و ا ي) التي اعتبرت اصوات لين عند الحاجة كما هو الحال في العربية اي عندما تكون في وسط الكلمة بين صوتين صحيحين ساكنين ، وهي طويلة دائماً وغير منحرفة كما هي في العربية الفصحى نحو (ا) قال في العربية و (قال) ايضاً في العبرية مع شئ من التفخيم ونحو (و) قوموا في العربية وكذلك في العبرية . ونحو (ي) (في) في العربية وكذلك في العبرية .

اما الحركات فسنأتي الى تفصيلها بعد قليل .

وتكتب الابجديتان من اليمين الى اليسار ولكن حروف الابجدية العبرية منفصلة ومعظمها تكتب بصورة واحدة في اول الكلمة وسطها ونهايتها فيما عدا الكاف التي تكتب في البداية والوسط כ وفي النهاية ך والميم وتكتب في البداية والوسط מ وفي النهاية ם والنون وتكتب في البداية والوسط נ وفي النهاية ן . والفاء في البداية والوسط פ وفي النهاية ף وكذلك الصاد التي كالضاد و(ژ) الفارسية تكتب צ في البداية والوسط وتكتب في النهاية ץ .

٢ـ اصوات اللين والحركة Vowels

وتتألف في العربية الفصيحة من ثلاث فقط هي صور مصغرة من اصوات اللين على النحو التالي ـَـ و ـِـ و ـُـ وتكتب فوق او تحت الحرف . ويكون مجموع اصوات الحركة المرسومة في العربية ستة ثلاث صور قصيرة وثلاثاً طويلة .

اما العبرية فهي بالاضافة الى استعمال احرف العلة عند الحاجة كأحرف مـد طويلة فانها تمتلك خمس حركات طوال وستاً قصاراً على النحو التالي .

الحركات الكبرى الطويلة .

١ ـ قامص وتقابل (ا) المد في قال ولكن بشيْ من التفخيم كما في نحو قام קָם وتكتب ـָـ تحت الحرف ولفظها كلفظ اهل (عانة) في الكلمة نفسها بشيْ من الاشمام المفخم الطويل .

٢ ـ صيري وتقابل (ي) في كلمة (بيت) بالعربية العامية السورية (اي بالامالة وكما في (ei) الالمانية وتكتب ـֵـ تحت الحرف عـلى النحو التالي שֵׁם ـ شيْم = اسم . و הֵם هيْم = هُمْ .

٣ ـ حيرق وهي اطول من (صيري) واعمق وتقابل ياء المد في حرف الجر في العربية والعبرية معاً. وتسبق الياء دائماً وتكتب على النحو التالي ـִـ י كما في בִּי = في .

٤ ـ حولم وتشبه (و) نوم في العربية العامية مفخمة وتتلوها دائماً (واو) المد وتكتب على النحو التالي ـֹ וֹ فوق الحرف لا تحته على الجهة كما في לוֹ =له.

٥ ـ شورق وتشبه (واو) المد وتكتب واوا مشددة على النحو التالي וּ وكل حرف مشدد ينقط بنقطة واحدة في وسطه . كما في قوموا = קוּמוּ

الحركات الصغرى . وهي ست .

١ - پتح وتقابل الفتحة العربية وتكتب ـَـ تحت الحرف ايضاً على النحو التالي גַּן جنّة .

٢ - سيجول وهي كسرة قصيرة جداً ليس لها صورة في العربية تكتب (ـֶـ) تحت الحرف كما في בֶּן - ابن - بن .

٣ - حيرق صغير وتقابل الكسرة العربية في كلمة مِن وتكتب (ـِـ) تحت الحرف نحو מִן = مِن .

٤ - قامص حطوف تشبه ضمة مفخمة صغيرة وليس لها مثل في العربية ولفظها كلفظ (و) المد في كلمة (قول) في عامية بعض جهات العراق اي بالفتحة مع الاشمام القصير وتكتب تحت الحرف ـָـ في نحو כָּל - كل = كُلْ .

٥ - قيوص وتقابل الضمة الحقيقية في العربية وتكتب ـֻـ تحت الحرف في نحو קֻם = قُمْ .

٦ - الشوا وهذه نصف حركة او ما تسمى بالحركة المختلسة وليس لها مثل في العربية وتكتب ـְـ تحت الحرف في نحو שְׁמַע - سَمَعْ = اسمع

ويلاحظ مما تقدم ان العبرية قد غيرت بعض الاصوات في الابجدية العربية واليك ما اصابها من تغيير في الاصوات الصحيحة .

١- استبدلت بالجيم العربية كافاً فارسية .

٢- وبالضاد تص - او تژ وهو ايضاً صوت فارسي .

٣– اضافت الاصوات الاتية . و – V ، پ – P .

ولا يخفى ان هذا التغيير حصل بسبب ما بين العبرانيين والشعوب غير العربية كالفرس والعيلاميين والحثيين واخيراً اليونان من صلة وهي الشعوب التي تكثر في لغاتها فيها هذه الاصوات .

اما في اصوات الحركة فقد اضافت الاصوات المفخمة المستعرضة من الفتحة والكسرة والضمة الاعتيادية وهي ايضاً اصوات خاصة باللغات التي مر ذكرها وقد دخلت اللهجات العربية العامية لكنها لم ترسم ، وتلاحظ بكثرة في العامية العراقية لشدة تأثرها بهذه اللغات . في نحو (ا) المد المفخمة في (قال) و (قام) و(عالم) و (كاتب) بالاشمام و (و) المد المفخمة في نحو (قوم) و (دوم) و (حوش (و) هوش (وفي (ي) المد المفخمة في نحو (بيت) و (جيت) و (ديم) و (خيمة) .

اما (الشوا) وهي التي اسميها (الحركة المختلسة) فقد اضافوها لتجنب الابتداء بساكن وهي حقاً في موضعها اذ لا يمكن الابتداء بساكن مطلقاً من وجهة نظر علم اللغة .

الاعراب : أهم ظاهرة تميز لغات الجزيرة العربية العربية عن سائر لغات العالم هي الابانة عن المعنى بحركة نهاية الكلمة . . . بدأت فيها منذ ان عرفت اقدم لغاتها ، الاكدية والمعينية والاوغاريتية الكنعانية الامر الذي يشير الى وجودها في العبرية القديمة ايضاً . ولكن الذي نراه بعد البحث ان هذه اللغة قد تخلت عن (الاعراب) بشكل يدل دلالة اكيدة على ان الاحبار اليهود الذين كتبوا التوراة كانوا يتكلمون لغات لا وجود للاعراب بالنهايات الحركية فيها ، وانما تتصف بشكل آخر من الاعراب هو التعبير الداخلي لحركات الكلمة وهذه هي صفة اللغات

الايرانية بصورة خاصة واللغات القفقاسية بصورة عامة . ولعل القارئ يدرك سر اختفاء الاعراب من اللهجات العامية الذي لا يمكن ان يفسر الا بهذا السبب ايضاً .

وهناك ما يشير الى ان الاعراب لم يكن مفقوداً في اللغة الكنعانية التي اقتبسها اليهود وكتبوا بها كلياً ولكنه اختفى وبقيت آثاره تدل عليه في بعض الحالات التي نشير اليها بايجاز .

نرى آثار الاعراب في حالة الجر والاضافة على النحو الاتي .

١ــ تتغير حركة المد الطويلة في اول المفرد المذكر اذا اضيف . الى (قصيرة) نحو דָבָר الى דְבַר ــ . اما المونث فتحول הָ ه الى تاء ת في اخر الكلمة .

٢ــ تحذف علامة الجمع اذا كان المضاف جمعاً نحو דְבָרִים فتصبح דִבְרֵי

ومن يعرف اللغة الفارسية يدرك بأن هذه اللغة تميز حالة الاضافة ايضاً بكسر نهاية المضاف على النحو الاتي .

با مردم بدمنشين . لاتجالس رجل السوء .

اما حالتا الرفع والنصب فلا نجد لهما اثراً . فيما عدا كلمة (متوشالح) التي ترفع فيها كلمة (متى) بالواو .

ويلاحظ ايضاً ان اللغات الايرانية لا اعراب فيها في حالتي الرفع والنصب .

علامة التعريف :

وجدت علامة التعريف في اللغة العربية منذ القديم وكانت (نوناً) تلحق اخر

الكلمة (١) و ربما كانت (الميم) التي تلحق آخر الكلمة في اللغة البابلية هي الاخرى علامة التعريف اسقطت عندما شاع الحاق اداة التعريف باول الكلمة كما هو الحال الآن في اللغات العربية .

و(ال) هي علامة التعريف المعروفة الآن في العربيةوقد كانت الهاء في المرحلة التاريخية الثانية اي اننا نجد (هبعل) بدلاً من (البعل) و (هجمل) بدلاً من (الجمل) ولكن العربية الفصحى استقرت على (ال) تسبق الكلمة وقد يؤدي ذلك ال شيءٌ من تغيير الحركة او التشديد .

وفي العبرية علامـــة تعريف تسبق الكلمة (هـــي) الهاء ה القديمة انقلبت الى(ء) الهمزة الحديثة وظاهرة قلب الهمزة والهاء واردة في حالات اخرى غير التعريف في العبريةفصيغة (افعل) في العر بيةهي (هفعل) في العبرية و (انفعل) هي (هتفعل) .

ويبدو ان العبرية احتفظت هنا بالصيغ القديمة .

الجمع والافراد :

ذكرنا في حديثنا السابق عن لغات الجزيرة العربية العربية ان علامات الافراد والجمع في هذه اللغات تكاد تكون واحدة ، ونضيف هنا ان اللغة العبرية وحدها التي استعاضت عن (ن) الجمع بـ (ميم) فعلامة الجمع فيها (يم) في حالة واحدة هي حالة النصب او الجر اما حالة الرفع (و م) فغير موجودة . . بالنسبة للمذكر اما علامة جمع المؤنث فهي كالعربية (ات) .

نكتفي بهذا القدر من الامثلة الآن للاستدلال على ان اللغة العربية الكنعانيةالتي كتب بها (العبرانيون) كتابهم المقدس العهد القديم قد اصابها الكثير من التغيير

١- المختصر في علم اللغة العربية الجنوبية . اغناطيوس غويدي .

« والاسم الذي يتبع هذا الضمير المؤكد يلحق بآخره ، ن وهـــو اداة للتعريف تقوم مقام لام التعريف » .

والتبديل والحذف والتشويه على ايدي هؤلاء العبرانيين الذين لم يكونوا (عرباً) والا لما استساغوا الخروج عن قواعد لغتهم ولكان احساسهم بتذوقه يمنعهم من قبول اي تغيير في اسسها . . . والباحث يرى ان التغيير لا يقتصر على ادخال مفردات غريبة وتطويعها لقواعد اللغة بل يصيب اهم اجزائها المميزة لها وهو الاعراب وقواعد الصوت .

باكزه رفيق حلمي

اهم المراجع لهذا البحث

اللغة العربيـــة

١ — سر صناعة الاعراب	ابن جني
٢ — العين	للخليل بن احمد الفراهيدي
٣ — الكتاب	سيبويه
٤ — الاشموني	الامام ابو الحسن الاشموني
٥— المفصل	ابن يعيش
٦ — الاتقان في علوم القران	السيوطي
٧ — علم اللغة	الدكتور محمود السعران
٨ — فقه اللغة	الدكتور علي عبدالواحد وافي
٩ — فقه اللغة	الدكتور صبحي الصالح
١٠— دراسات في علم اللغة	كمال محمد بشر
١١— محاضرات في اللغة	الدكتور عبدالرحمن ايوب
١٢— في اللهجات العربية	الدكتور ابراهيم انيس
١٣— اسرار العربية	يوهان فلك
١٤— العرب واليهود في التاريخ	الدكتور احمد سوسة
١٥— ادباء العرب في الجاهلية	بطرس البستاني
١٦— العصر الجاهلي	الدكتور شوقي ضيف
١٧— المحيط في اصول العربية	محمد الانطاكي
١٨— الوجيز في فقه اللغة	محمد الانطاكي

اللغة العبرية والانكليزية

١ـ القواعد العبرية الدكتور م. س. سبل

٢ـ قواعد اللغة العبرية ربحي كمال

٣ـ العهد القديم بالعبرية والانكليزية التوراة

4- Gesenius Heb. Gram.

5- Old Testament

6- Heb. Gram. A.B. Davidson.

7- Encyclopaeclia Brit. Vol. II.

اللغة الفارسية

١ـ دستور زبان فارسي الدكتور مشكور

٢ـ القواعد الاساسية لدارسة الفارسية الدكتور ابراهيم امين الشواربى

وقفة مع الحبوبي النجفي

الدكتورة عائكة الخزرجي

لاتـخَلْ وَيـكَ ومن يَسْمَعْ يَخَلْ
أنني بالراح مشغوف الفؤادْ
أو بمهضوم الحشا ساهي المقلْ
أخجلت قامتهُ السُّمْرَ الصّعادْ

إنَّ لي من شرفي بُرْداً ضفا ... هو من دون الهوى مرتهني
غير أنيّ رمت نهج الظرفا ... عفة النفس وفسق الألسن

إذن كان الحبوبي من الظرفاء ينتهج نهجهم ويقتفي أثرهم ! ولعلك سائل إياي وما نهج الظرفاء هذا ؟ فيسرع الحبوبي ليردّ عليك :

عفة النفس وفسق الألسن . . . (١)

ولعلك تلحظ من التناقض بين النفس العفة واللسان الفاسق فتتساءل منكراً في

---

(١) في ديوان الحبوبي بعض معاني الظرفاء من مثل قوله :

قالت تحرج قلت لا حرج ... ما في الغرام على امرئ حرج

سِرّك كيف لعمرك يكون الجمع بين هذين ؟ ولا يذهبن بك الظن أن الحبوبي هو أول من جمع بينهما ، فلعلك تذكر معي قول ذلك العراقي الظريف الذي تقدم الحبوبي بقرون . . . اقول لعلك ذاكر معي قول العبّاس بن الاحنف :

أتأذنون لصبٍّ في زيارتـكم فعندكم شهوات السمع والبصـرِ
لايضمرالسوء إن طال الجلوس به عفّ الضمير ولكنْ فاسق النظرِ (١)

وإن شئت أن تحيط بمعنى الظرف والظرفاء فلا عليك إلا أن تقرأ الوشاء في موشّاه لتقف على هذه الطبقة المترفة من الناس كيف كانت تحيا في بغداد اواسط القرن الثاني للهجرة ، وديوان الحبوبي من الفه الى يائه شاهد عدل على أن صاحبه شاعر غزل من الطراز الرفيع وأن هذا الغزل يصدر عن احساس عميق وتأثر حقيقي بالجمال . . .

حتّام ياقلب وراء المـلاح تصفق من وجدك راحاً براح
كم راعك الوجد وكم جئتني من مرهف الاجفان تشكو الجراح ! (٢)

وموضوع الغزل على ماهو بيِّن يحتل الصدارة في ديوان الرجل وأنه من النفاسة بحيث يجعل منه أغزل شاعر عراقي منذ أن نهض الشعر في القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة . . .ولعلنا لانبعد عن الصواب أن لو قلنا لك اننا لم نقرأ لسواه بين شعرائنا ممن طرق هذا الباب شعراً يوازي شعره أو يقرب منه من حيث الوزن او الكمّ . . فالغزل لدى اغلب معاصريه غرض تقليدي تمهيدي لاروح

---

(١) انظر ديوان العباس بن الاحنف طبعتنا المحققة (دار الكتب ١٩٥٣) .ولك ان تعلم أن بين بعض معاني الشاعرين التقاء وتقاربا يقول الحبوبي :

تـزيـد حسـناً اذا مـا زدتها نظراً

ويقول العباس :

يزيدك وجهه حسناً اذا مـا زدته نظراً

(٢) ديوان الحبوبي ٢٦٦ .

فيه ولا حياة أو هو مادي حسي وربما ماجن نواسي(١) وربما قرأته فما التفت اليه أو ربما وقفت عنده فانكرته أو أثار في نفسك النفور أو الاشمئزاز .

ولك أن تسألني من بعد ما خصائص هذا الشعر الذي جعل من شاعره عندنا اغزل شاعر عراقي في هذه الفترة من الزمان ؟

إن غزل الحبوبي هذا بارع رائع بالغ حدّه في البراعة والروعة يصدر عن عاطفة حقيقية وحس رهيف وتأثر عميق بالجمال وفهم لأسراره . . . والحبوبي على ما يبدو لنا شاعر خلق بطبعه للهيام بالجمال وفطر على عبادة الحسن وهو قطعاً صنو الشريف الرضي في هذا المجال ولئن كان الشريف عندنا أغزل شاعر عربي على الاطلاق فليس بكثير من ثم أن يكون خلفه أغزل شاعر عربي عراقي منذ أن نهض الشعر العراقي في القرن التاسع عشر وحتى هذه اللحظة . . .

والغريب ان الاسباب التي اتفقت من قبل للشريف تكاد تكون في جوهرها عين الأسباب التي تهيأت للحبوبي من بعد . . . ولا عجب فالزمن يقفو الزمن والتأريخ يعيد نفسه . . .

يقول استاذنا المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في معرض الموازنة بين الرجلين :

« فكلاهما شاعر فحل وكلاهما طريف الغزل عفيفه الى حد بعيد وكلاهما مترفع عن التكسب بالشعر ترفعاً تاماً وكلاهما صاحب فقه وصلاح وورع وكلاهما موفور الحظ من الجاه والمال وكلاهما رجل عمل وكفاح ايضاً » (٢)

والغريب ان هذا الشاعر الغنائي الرائق المعجب لم يلتفت اليه النقاد كثيراً ولم

---

(١) لعل سائر شعر الاخرس الذي يصدر به مدائحه تقليدي أو نواسي .

(٢) انظر نهضة العراق الادبية .

يولوا شعره بعض مايستحق من عناية ونقد ولولا أنّ استاذنا الدكتور البصير خصّه بفصل في كتابه الرائد : نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر لجاز لنا ان نقول ان شعر الحبوبي على روعته ونفاسته بقي مهملاً . . . فليس لديوان الحبوبي حتى هذه اللحظة طبعة علمية تجدر بمكانه وفضله .

ويبدو لنا من حصيلة شعر الرجل في موضوع الغزل ان ملهمته امرأة حقيقية ليست من صنع الوهم والخيال . . . فالشاعر يفصل لنا معالمها الحسية ويرسمها لنا رسماً واضحاً دقيقاً كأننا منه امام ريشة مصور صناع يروعنا من لوحاته جمال الألوان وتجسيد الملامح واشاعة الحياة في كل جزء من اجزائها . . . والصورة عينها هذه تتكرر في كل لوحة . . . ففتاة الحبوبي وحفاء الشعر مسبلة الجدائل بيضاء اللون ساحرة العينين زجاء الحاجبين حواء الشفتين وهي الى ذلك مرهفة القد (١) رقيقة الخصر ثقيلة العجز على نحو ماتتسم به سائر عرائس الشعر وهي فيما يبدو لنا كرخية المقام لأن الكرخ أبداً على لسان الشاعر على أنه يقول لنا في أحيان أخرى ان صاحبته نجدية حجازية . . ومن يدري ! فلعل للشاعر ملهمتين احداهما بغدادية كرخية والأخرى نجدية حجازية لاسيما ونحن نعلم ان الشاعر امضى جانباً من عمره بالحجاز .

---

(١) لعل هذه الصورة عينها مكررة في كل شعره الغزلي :

ما أحيلاه مائساً يتثنى ... بشيهب من الصبا وبرود
وأحيل سود الغدائر تسمى ... كالافاعي من فوق بيض الخدود
هالة الحسن من سناه استنارت ... فاستدارت بغيهب من جعود

ديوان الحبوبي ٢٨٩

في بدور اشرقت بين الحدوج ... تخذت من فاحم الجعد بروج

ديوان الحبوبي ٢٢

ماحيلتي والكرخ دار له ديوان ٢٩٦

ذكرني بالكرخ عهد مربّي ديوان ٢٩٧

ياراكب الوجناء يطوي بها مهامه البيد قفاراً قفارا
عَرّجْ على الكرخ وسلم على مَن في مُحيّاه الوجود استنار

ديوان ٢٦٠

مهاة لها بالقلب مرعى وملعب وإن نزلت من ارض نجد تلاعها

ديوان ١٣٩

والشاعر كالشريف الرضي تحرجه مكانته ان يقال عنه صاحب هوى وحبائب لذا تراه أبداً يتستّر على نفسه ويحاول ان ينكر على قلبه صفة العشق ولكن تأبي الحقيقة إلا أن تنكشف ويأبى الشعر إلا ان يبوح:

قد تعاهدنا على أن لا أبوحْ فاملأن لي باسمه كأس الصبوح
فهي راح وهي رَوْحٌ وهي روحْ وهي من داء الضنا برء الضنا
غنني باسم الذي لذ اسمه حَرْبُهُ حربي وسلمي سلمه
جسمُهُ روحي وروحي جسمه أنا من أهوى ومن أهوى أنا

صح هذا في الزمان الأول

وإذ تروعك حرارة العاطفة في شعر الرجل تروعك كذلك فيه لوعة الحرمان فهو كالشريف تماماً عاشق عفّ قضي عليه بالحرمان:

صَبا لك يابنة البكريّ قلبي فمهلاً لاعدمت هواك مهلا
جعلت لك القضا أمراً ونهياً فما شئت احكمي جوراً وعدلا
وقلت فتاك مقتول فقالت اذا ما الحب أفرط كان قتلا (١)

---

(١) ابن الفارض يقول:
وعش خالياً فالحب راحته عنا وأوله سقم وآخره قتل

بروحي من بروحي افتديها وقلْ لها الفدا مالا وأهلا
فيا شهب الثّريا سامريني فلو كان السمير سواك ملا
ولو اني تصدقني الاماني لكنت اليوم اجمع منك شملا
مضى زمن الوصال وكان وافى كظل غمامة ثم اضمحلا

ويقول :

بلادك نجد والمحبّ عراقي فغير التمني لايكون تلاق
بلى قد ارى تلك المغاني مثله فاحسب اني زائر وملاق (١)
ارى الدهر يأتي في تآلف شملنا كأني أعاديه فرام شقاقي

والارجح عندنا ان صاحبته هذه عراقية قضت ظروف خاصة عليه بالحرمان منها وضرب الفراق بينهما بسهمه . ويعرض لنا الحبوبي في شعره صورة هذا الحرمان :

هي الشمس مرآها بعيد وإن يكن تخيلت الايدي تنول شعاعها (٢)

ونحن اذا تخطينا حرارة العواطف وفرط اللوعة وتجسيد الصورة في هذا الغزل النفيس فنحن نلحظ فيه ايضاً رقة وعذوبة بالغتين هما طابع الحبوبي الخاص ولعلهما في هذا الباب اظهر ما يكونان .

---

(١) اقرأ كذلك قوله :

اصبحت روحي في مثل الخلال — ديوان الحبوبي ٥٣

(٢) يقول العباس بن الاحنف :

هي الشمس مسكنها في السماء فعز الفؤاد عزاء جميلا
فلن تستطيع اليها الصعود ولن تستطيع اليك النزولا

والمعنى نفسه عرضه البحتري في ثوب المديح :

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد ان تسامى ويدنو الضوء منها والشعاع

ولئن تشابه الشريف والحبوبي في حرارة العواطف وصدق الانفعال وحرقة اللوعة وبرعا اشد البراعة في نقل كل ذلك بشعر عذب رائق إلا أن فارقاً رئيساً يقوم بين الشاعرين عائد فيما يبدو لنا الى طبيعة الرجلين هو أن الشريف أمعن بتصوير المعاني الروحية والحبوبي اعلن بتصوير الحسية منها فالشريف دون ادنى شك خير من صور نفسية العاشق وخلجاتها في شوقها وحرمانها والحبوبي دون ادنى شك ابرع من صور معاني المعشوق الحسيّة ووضح معالم الجمال فيها . . . وإلا فمن بالله يرقى الى ماارتقى اليه الحبوبي في وصفه البارع للجمال ؟ (١)

شمس الحميا تجلت في يد الساقي ... فشع ضوء سناها بين آفاق
تسعى اليك بها خود مراشفها ... أهنى واعذب مما في يد الساقي
مسودّة الجعد لولا ضوء غرتها ... لما هدتني اليها نار اشواقي
يهدي اليك بمرآها ومسمعها ... جمال يوسف في الحان اسحق
لاتلبس الوشي الاّ كي يزان بها ... كما يزان سواد الكحل بالماق
تزيد حسناً إذا مازدتّها نظراً ... كالروض غبّ رفيف القطر مهراق
رقت محاسنها حتى لو اتخذت ... عرشاً بناظرتي لم تدر آماقي

أو قوله :

عرائس الحبوبي
في
روائع النسيب

أغيد كالدمية أقـــراطـــه ... قد علقت تعليق اوثان
يامن رأى في الارض بدر السما ... اشرق في صورة انسان

(١) لعل من روائع مـــا وصف به الحسن قول ابي الطيب المتنبي :

حسان التثني ينقش الوشـــي مثلـــه ... إذا مسن في أجســـامهن النواعـــم
ويبسمن عن در تقـــلدن مثلـــه ... كأن التراقي وشـــحت بالمباســـم

جال فؤادي إن مشى مثلما في خصره جال الوشاحان
وافى وقد شعّ صباح الدجى فقلت قد شعّ صباحان
والراح في راحته شعلـــة تؤجـــج الليـــل بنيران
يالائميّ اليوم في حبّه مهلاً فما شأنكما شـــاني
هاموا هيامي فيك لو انهم قد عرفوا معناك عرفـــانـــي

فانت ترى ان براعة الشاعر في وصف المعاني الحسية عجيبة ولعل هذا هو السرّ في تخير هذا الشعر للغناء :

لح كوكباً وامش غصناً والتفت ريما فإن عداك اسمها لم تَعْدُك السيما

الحق ان الحبوبي بلغ القمة في هذا الضرب من الشعر والسّر هو انه ينقل عن تجربة ويترجم عن حس بالاضافة الى تكامل الملكة الفنية وتهيؤ اسبابها له ويكاد يكون سائر ماله في هذا الباب من عيون الشعر ومختاره (١) وربما خطر لك ان بعض هذه الصور أو سائرها قديم متداول ولكني اسرع لاقول لك انها طبيعة عصر الشاعر، والشاعر أو الفنان أبداً وليد عصره وترجمانه وإخالك تلحظ معي طابع الشاعر الخاص من الروعة والنفاسة والخفة والظرف مما يرتفع بها عن الرخص أو الابتذال . .

---

(١) اقرا قوله :

مليكة عرشها قلبي بـــه ســـكنت ودر دمـــعي حيـاهـــا فتوجهـــا
ديوان ٢٩٨

وقولـــه :

سـفكت ميـــاه الحسن وجنتهـــا فغـــدت عليهـا تسـفك المهـــج
رقـت محاسـنها فلو بلغـت روحـــاً لراحـت فيـــه تمتزج
ديوان ١٣٩

هذا على ان للمعاني الروحية مكاناً في شعر الرجل قد يقرب من المتصوفة او يكاد . . .

روحي في روحك ممزوجـــة   وربمـــا تمـــزج روحـــان
حتى كأني منك في وحـــدة   لو صحّ ان يتحـــد اثنـــان
اهـــو اهم لم أهـــو إلاّ همُ   هـــوى تلاشـــى فيه جثماني

وروحانية الحبوبي هذه تغمر بعض أجواء شعره بالاضافة الى نسيبه ، فنراها تهيمن على بعض مراثيه نخص بالذكر منها نونيته العصماء في رثاء السيد حيدر الحلي ولك أن تقرأها لترى أيّ جوّ صوفي يغمرك ويشدك الى المتصوفة الاوائل من السلف الصالح ولترى من ثم نفسك تسبح في جو عرفاني فيه إمتاع وفيه غموض وفيه أسرار . . الى جلال يهيمن عليك لاتدريه او تدريه . . . انه جو ابن عربي والحلاج وابن الفارض . . . يعود من جديد . . .

الى النزوان العيس تلوي أعنة   وهيهات ليست تملك النزوانا
وليست تشيم البرق من ابرق الحمى   بلى قد تشمّ الشيح والعلجـــانا
وليست تنال الريّ عبّا وعلهـّا   إذا ظمئت أن تبلغ الرشفانا

والتي يقول فيها :

وقم نجتل النار التي قال خابط   من الناس حسبي أن رأيت دخانا
وأن لمعت فاقصد لمشرق ضوئها   وام شروق الضوء لا اللمعانا
ولا يختلسك الوهم دون مكانها   فثم والا لا تحلّ مكـــانـــا

وقد يرتقي القمة إذ يقول في وصف الدنيا :

بلى نحن في طيف الكرى وتظننا   من السكر يقظى لابطيف كرانا
بمعشوقة لم تَرْعَ ذمـــة عاشق   وشنآنة لم نولها الشنـــآنـــا

نرى وصلها وهو المحال فريضة كما أوجبت هجراننا وجفانا (١)

هذا على أن الأثر القرآني واضح في هذا الشعر كل الوضوح يسمه بسمة خاصة ترفعه وتميزه فكثيراً ما اقتبس من آي القرآن الكريم ووشى عبارته باللفظ الموحي والكلام المنزل .

ذي نون حاجبه لو حاؤه اتصلت
في ميم مبسمه لم تَعْدُ حاميما(٢)

. . . .

ام بذاك القرط ذو اللبّ افتتن
اذ تجلى وعلى العرش استوى (٣)

. . . .

ذو قدور ملأت صدر الفضا
راسيات أو جفان كالجوابي (٤)

وانت ترى بعد روعة الأقسام الروحانية ترد في شعر الرجل بين الحين والحين .

قسماً بالراقصات الضُمّر
تّرامى للمصلى والحجون
وبمن بات ثلاثاً بمنى
ومبيت الركب في روضة خاخ(٥)

---

(١) من الانصاف ان يذكر ابو الطيب هنا :
وجدنا اذى الدنيـا لذيذاً كانمـا جنى النحل اضعاف الشقاء الذي نجني
(٢) و (٣) و (٤) و (٥)
ديوان الحبوبي ٩٩ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١١

هذا الى ان روح الاسلام تتجلى بهيئة رائعة في معانيه وما قرأت من قبل شاعراً يقول لحبيبه : (١)

طفت سبعاً حول مغناك كما قمت أقضي صلوات الشوق خمساً

فأنت تقرأ الطواف والصلوات الخمس في معاني العشق وتحس ان هذه الالفاظ جاءت في مواضعها ووضعت حيث ينبغي لها أن توضع .

الى ذلك قد نلحظ في بعض شعره من معاني الكلاميين كأن نراه يقول :

وشوقي اليك بقلبي غدا كروح لجسم وجسم لروح

فهاك متون الهوى جملة أبتْ ان تفصلهن الشروح !

ومعان مثل هذه انسجمت وروح الرجل واضافت اليها روحاً جديدة .

* * *

وائمة الرجل في الشعر – فيما يبدو لنا ثلاثة :

الشريف الرضي والمتنبي وابو عبادة البحتري ، وناهيك بشعر يصدر عن مثل هذه المصادر . . . ! واثر الرضي والمتنبي باد في معنى شعره وروحه حتى إنك لتحسه إنما ينقل عنهما نقلاً ومابه إلا اعجاب التلميذ بالاستاذ ينقل عنه وما يدري ! .

يقول الحبوبي :

وافترّ عن درّ تشنفّ مثله فتشابها والكل راق بوصفه (٢)

---

(١) نستثني من ذلك العلامة الشاعر محمد رضا الشبيبي الذي يقول :

ما زال في الصلوات الخمس ذكركم نجوى مصلاي أو تسبيح محرابي

لم ادر ما اتهجى غير انكم في اللحن لحني وفي الإعراب إعرابي

(٢) اقرأ قافية الحبوبي التي اولها :

ما لقلبي تهزه الاشواق خبرينا اهكذا العشاق

والثانية التي اولها :

« عليك سلام الله ما غردت ورق » التي يقول فيها .

احبك حباً لست أدري خواطر من الخبل تعروني لذكرك ام عشق

فأخرس عن نطقي وتجري محاجري بسري وكاد القلب اذ ذاك ينشق

تجد فيها روحاً من انفاس الشريف

وابو الطيب يقول :

ويبسمن عن درّ تقلّدن مثله كأنّ التراقي وشحت بالمباسم

والحبوبي يقول :

لقد طال عهد البين بيني وبينهم واشجان قلبي باقيات كما هيا

ويقول الشريف :

ومن حذر لا أسأل الركب عنكم واعلاق وجدي باقيات كما هيا

ويقول الحبوبي :

جددت بي عيشها المقتبلا وغدت تنجز وعد المخلف

ويقول الشريف :

واقتصّ للحقب المواضي بل تزوّد للبواقي

ويقول الحبوبي :

وبمن يجررن رَبْطَ الأُزُرِ

والشريف يقول :

وأمست الريح كالغيرى تجاذبنا على الكثيب فضول الريط واللمم

ونحن لانشك مطلقاً في أنه تخرج في موسيقاه على موسيقار العربية الاول اعني ابا عبادة الوليد بن عبيد البحتري . . . فالحبوبي كالبحتري تماماً يوائم بين لفظة ولفظة ولا يدخل حرم الشعر لفظة غريبة اللهم إلا في ندرة تقرب من المحال وسيجيء الكلام في هذا بعد . . .

وكما تخرج شاعرنا على اساتيذ في دولة البيان كذلك هو الآخر خرّج لنا أئمة في هذا الباب ولا أشك مطلقاً في ان شاعر الحب والجمال اعني بشارة الخوري تخرج على مدرسة الحبوبي في الخفة والظرف والعذوبة وكلما قرأت للحبوبي داليته

التي أولها :

لك قامــة تدعى بصعــده وسهام لحظك ما أحـّـده !

والتي يقول فيها :

هل غير خـــدك جمــرة تقــد الجوانح وهي ورده

فانظـــر الى قمــر الدجـــى سيريـــك طلعتـــه وجعـــده

تراءى امام عينيّ الاخطل الصغير ينشد :

رضيتُ وقد ذهب الجفا وكـــذا الهـــوى لين وشده (١)

أوكلما استنشدت الحبوبي خريدته :

ياحامل الوردة ما الطفـــك ! فهل ترى لي اليوم ان ارشفك ؟

وقف ازائي الاخطل الصغير يتحفني بروائعه . . .

ولك ان تذكر بعد هذا ان الحبوبي وإن كان بحتري الديباجة في الرقة والانسجام والعذوبة إلا أنه دونه في براعة الفن وروعة الوشي وسرواة البديع ولاعجب فابو عبادة في هذا فرد لم يسبقه الى ذلك متقدم ولم يلحق بشأوه متأخر، اللهم إلاّ إذا استثنينا من المتقدمين العباس بن الاحنف في روعة مقابلاته ومطابقاته واحمد شوقي من المتأخرين في سحر الموسيقى وطلاوةالاسلوب ولا يخلو شعر الحبوبي من عناية باللفظ واحتفاء بمحسناته فقد تلحظ في شعره الطباق المستملح او المقابلة الطريفة .

يحَيّى الوافـــدين نداك غيثاً فيحُيي مُـمْحِلاً ويُميتُ محـــلا

أو

أجرتْ سحاب دموعـــك الدمن فاليوم سرك في الهوى علن

أو ربما تهيأ له الجناس الموفق الجميل .

(١) ديوان الاخطل الصغير بشارة الخوري : ٥٦

للراح في راحتنا اكؤوس كأنها ياسعد تيجان

أما تقسيماته فحدث عنها ولا حرج تذكرنا تارة بتقسيمات العباس بن الاحنف التي قيل فيها « انها احسن من تقسيمات اقليدس » ونحن بدورنا نقول في الحبوبي ماقيل في العباس من قبل، وتذكرنا اخرى بتقسيمات البحتّري لما فيها من براعة في الهندسة وجمال في الايقاع (١) . . . بل ربما اجتمع للشاعر فنان من فنون البديع في بيت واحد كأن تقرأ له التورية والمقابلة معاً في بيت واحد :

ومن شقوتي ان يحكم البين بيننا ... وياشدّ ما أشقى الزمان سعيدا

وقد يحلو له أن يرد العجز على الصدر كأن يقول :

ظعنوا أهيل محجر سحراً ... سَحَرَاً اهيل محجر ظعنوا

ولعل اشد مايبهرنا في شعره روعة تشابيهه وانت تعلم ان الشاعر الوصّافة أول أدواته التشبيه لأن براعة المصور تقتضي ذلك :

روعة التشابيه

في مروج كمروج الذهبِ

والثريا مثل كف بضّة

او كعنقود بدا من فضة

وسهيل خد خود غضّه

---

(١) يقول الحبوبي :

فبرق يشب ، وعيس تخب ، ... وريح تهب ، وطيب يفوح

ويقول :

خداك من ورد ، ومن نرجس ... عيناك ، والقامة من بان

وتقول :

فالصدغ من آس ، ومن نرجس ... عيناك ، والخدان من جلنار

اقول : أو ليس هذا النفس بنفس البحتّري ؟

فانت ترى كيف استلهم الشاعر صوره ، إن الطبيعة بسحرها وروعتها تتراءى في مرآة الشاعر امرأة حسناء فالطبيعة في عينيه الحسناء أو الحسناء في عينيه الطبيعية كلاهما واحد لايتجزأ :

عارض الشمس جبينا بجبين

لنرى ايكما اسنى سنى

واسب في عطفك عطف الياسمين

وانثن غصناً إذا الغصن انثنى

إذن من هنا جاءت براعته في وصف الطبيعة فهو يرى في كل جزء من أجزائها ظلاً من ظلال المحبوب فشاعرنا يعشق الجمال المطلق جمال الوجود سواء اكان في ذات بعينها أم في العالم كله وهذه ظاهرة يقوم عليها شعر الرومانسيين اطلاقاً وما شعر لامارتين عنا ببعيد فانت إذ تقرأ لامارتين في تأملاته Les Méditations تراه منصرفاً الى موضوعات ثلاث لايكاد يحيد عنها : الله والطبيعة والنفس والامر كذلك لدى الحبوبي واسماعيل صبري وسواهما من الرومانسيين المحدثين .

ومادمنا في معرض الكلام عن الوصف فلايفوتنا إذن ان نشير الى ان الحبوبي ممن وصف الخمرة وبرع في وصفها وان ذلك لايعني انه ممن ذاقها أو صحبها وخمرته دون ادني ريب رمزية هي وخمرة ابن الفارض سيّان : الخمرة الالهية سكر بها الشاعر وفي غيبوبته استوحى معاني الوجود واستجلى اسراره مستشفاً الحجب ليجلوها من بعد بريشته الملهمة . . .

خمرة عتقها الدن سنين فأقامت وهي لاتبغي حولْ

ادركت عهد الملوك الأولين ورأتهم دولاً بعد دولْ

فهي في بطن الحوانيت جنين وهي تروي سير الفرس الأول
أبـداً تجلى ويجلى القمرُ فيرى ثم لها سِرٌّ أنيـق
طاب في ظل حشاها السّمَرُ إذ بدت تحسّبها نار الفريق
واذا الركب رأوهـا أبصروا واضح النهج وقد ضلّوا الطريق
هاتهـا تشرق في اكوابها صبغت ثوب الدجى لون الصباح
علّ نفسي من ضنى أوصابها تجد البرء ويبروها ارتيـاح
وانعتنها ويك في ألقابها فهي رَوْح وهي رُوُح وهي راح

واخوانيات الشاعر عندنا تحتل المرتبة الثالثة في شعر الرجل بعد الغزل والوصف ونحن نُضَمِّن اخوانياته ومدائحه وتهانيه ومراثيه . . . لأن الحبوبي مِمّن عرفنا شاعراً لايصطنعه الشعر إنما هو يصطنع الشعر ترجمان قلب ورسائل وجدان وديوانه حافل بروائع اخوانياته بين موشح وقريض وهو محسن في هذا الباب احساناً لامجال للشك فيه لأنه يغرف من نبع قلبه ويسقي من ذوب وجدانه أو ليس الحبوبي هو الذي يخاطب أحد اخوانه بمثل هذا ؟

واني قد قرضت الشعرحبّـا لذكرك لا لأن أدعى أديبـا

ولك ان تقرأ قصيدته التي اولها :

منح الصبابة اضلعاً وفؤادا . . .

والتي يحن فيها ارق الحنين لوطنه العراق . . .

ياربع لذاتي ومربع جيرتي روى معـاهدك الغمام وجـادا
لا أبتغي للوصل فيك نهاية أبداً ولا للعيش فيك نفادا
لا والذي سمك السموات العلى واقامهن وما اقـام عمـادا
لاأرتضي غير الاكارم معشراً كلا ولا غير العراق بـلادا

كلا ولا انشي لغير المصطفى واخيه قافيــة تروق نشادا

ولعله بلغ الغاية في نونيته التي قالها مهنئاً بعض السادة الأشراف :

طرز خديك الـعـذاران تطـرزة الـورد بريحـان

هذه النونية التي يصدرها بغزل عرفاني رفيع يرقى فيه مرتقى المتصوفة :

يالائميّ اليوم في حبـه مهـلاً فما شأنكما شاني !
هاموا هيامي فيك لو انهم قد عرفوا معناك عرفاني

. . .

روحي في روحك ممزوجة وربما تمـزج روحان (١)
حتى كأني منك في وحـدة لـو صح ان يتحد اثنـان

. . .

اهواهم لم اهو إلا هُمُ هوى تلاشى فيه جثماني !

والتي يقول فيها :

زفت اليه خير مزفوفـة للطهـــر ينميها الكريمـان
اهي زليخا يوسف لا ولا ويحك بلقيس سليمـان
لا بل سليل الوحي زُفّت الى أرْبُعِـهِ سورة قـرآن

والتي يقول فيها :

أخف من طبع الصبا طبعه وحلمـه أخشب ثهـلان
لاتكُ محتجاً على فضلـه ما احتاجت الشمس لبرهـان

والحبوبي يندى رقة في اخوانياته حتى لكانك منها امام عاشق يتذلل لمعشوق وهو بمواجده هذه يذكرنا باستاذه الشريف الرضي فقد كانهو الاخر يكتب لإخوانه ومابه إلا انه ينسب بهم ويكشف لهم ولنا عن مثل مواجد العشاق . . . !

---

(١) جاء في مروج الذهب ٣ : ٣٧٢ - ٣٧٣ في تحليل ما هية العشق :
« فقال بقراط : هو امتزاج النفسين كما لو امتزج الماء بما مثله عسر تخليصه لحيلة من الاحتيال والنفس الطف من الماء وأرق مسلكاً فمن أجل ذلك لا تزيله الليالي ولا تخلقه الدهور . . »
الثابت ان الحبوبي ينظر الى هذه العلة التي اوردها بقراط في بيته هذا .

يقول الحبوبي :

يامن أبحت له الفؤاد هوى وحجبته عن غيره مَنْعا
واذا نظرتُ وجدته نظراً واذا سمعت وجدته سمعا
ما أرجحتك(١) الراسيات حجى يامن يخفّ على الصبا طبعا
إني اتخذت هواكم حسَباً أعزى اليه وحبكّم شرعا
حسبي من الدنيا هواك وما نولت إن ضراً وإن نفعا
واليك ما وشت اليك يدي ماليس تصنع مثله صنعا
بأنامل لم تقض حقكم ولو انني اعلقتها شمعا (٢)

ولك أن تقرأ من بعد قوله :

رسالة شوق قد فضضت ختامها وجدت بها للدهر عقداً مفصلا
فقبلت منها أحرفاً فحسبتني أقبل من كفيك في الطرس أنملا
وشاهدت معناكم به ولربما بدا المرء في آياته وتمثلا (٣)

واخالك ترى معي ان الشاعر بالغ الغاية في هذا الباب ايضاً ذلك لانه يغرف أبداً من قلبه اي انه يصدر عن طبعه والطبع غير التطبع والشعر الشعر ماصدر عن ذات الشاعر وكشف عن عمق اعماقه لالفظاً ينمق أو معنىً يُرّقق ليوضع في قوالب ويوزن بأوزان اصطلح عليها بالوزن والقافية . . . !

اما مراثيه فلعلي عرضت عليك أعلى ماله فيها اريد النونية الفذة التي رثى بها الشاعر السيد حيدر الحلي وأرجو ان تصدقني اذا قلت لك انه لو لم يكن الحبوبي سواها في هذا المجال لكان حسبه شاهداً على سبقه فيه لأنها عالم قائم بذاتها فقد هيئ له فيهامن اسرار الالهام مالا يتأتى إلا للملهمين من العباقرة وهي وحدها كفلية

---

(١) لعلها ما راجحتك .
(٢) (٣) ديوان ١٥١ ، ١١٠ .

أن ترفع الشاعر الى مرتبة عالية لافي ميدان الرثاء حسب إنما في مجال الشعر العرفاني الصوفي اندر مايكون اليوم في عالمنا المغرق في المادية . . . وقد يلتقي الحبوبي والشيخ محمد رضا الشبيبي في هذا المجال لأن نفحات الصوفية في ديوان الشبيبي ذائعة الانفاس . . .

وبعد هذه الالمامة بديوان الحبوبي (١) إخالك تتفق معي في أن الحبوبي شاعر ظريف نهج نهج الظرفاء واقتفى اثرهم وتهيأت له اسبابهم وان الحبوبي إن هو إلا حلقة ذهبية في سلسلة الظرفاء التي تبدأ بابن الأحنف وما أراها ستنتهي . . .

والآن بعد ان وضعنا الحبوبي الموضع الذي يستحق وجلونا روائعه ، ألنا بعد ذلك مانلحظ به على هذا الشاعر الغنائي الظريف العالي الطبقة الرفيع الشأن ؟

الجواب أن نعم . . . وهذا أمر يصدق على كل شاعر مهما سمت مكانته وعلت منزلته فابو الطيب المتنبي على جلالة قدره له سقطات وعليه مؤاخذات طالما اخذ الناس فيها واعطوا من قديم وان ذلك على اي حال لايقدح في رفيع مكانهولا يقلل من شأو بيانه .

ونحن في هذه الكلمة نجمل لك مؤاخذاتنا ونبث لك بعض مالحظناه على شعر الرجل . . . فلغته احياناً قد لاتخلو من الفاظ غير شعرية ما كان لها وبأية صورة من الصور أن تلج حرم الشعر فضلا عن حرم غنائي رقيق تشيع فيه الشفافية والموسيقى والا ماتراك تقول في لفظ « جرثومة » و « جراثيم » أو لفظة « غلاصيم »

(١) اكتفينا في هذه الالمامة بعرض اهم اغراض الشاعر إلا ان هناك بعض الاغراض الخاصة مما كان شائعاً في عصر الحبوبي كأن تقرا في الديوان وصف النارجيلة ٣٠٨ واقداح الشاي ٣٠٩ ولك ان تعلم ان اغراضاً مثل هذه طارئة في ديوان الحبوبي وليست أصيلة .

و « سلاليم » و « اقاليم »(١) اقول ماتراك قائلا في الفاظ مثل هذه تقتحم على الحبوبي حرم شعره وتفسد عليه اجواءه السمفونية ا لهامسة ؟ وما تراك قائلا في مثل هذه التعابير؟

واغتنم ياسعد من هذي الفُرَصْ في ربوع عمها البشر وخَصّ (٢)

كما اننا نلحظ عليه استعمال الغريب في شعره كأن تقرأ له في بعض أوصافه مثل هذه الالفاظ :

علنداة ، ذعلبا ، ختماء ، مخبسة (٣)

ثم قد لايخلو هذا الشعر من عثْرات نحوية كأن تقرأ :

ياحبــذا تلك الليــالي التي مرت وإن كانت ليالٍ قصار (٤)

أو أن تقــــرأ :

وانــظم الشهــب قــواف (٥)

إذا خفَّ القوام به نهوضاً تقول له روادفــه تأنّ (٦)

كما لايخلو هذا الشعر من عثْرات لغوية

وسهام لحظك ما أحدّه ! (٧)

أو ربما بدا لك هذا الشعر ضعيف التراكيب مهلهل النسج

آه من ذي قوة قد ضعفا بالهوى ليت الهوى لم يخلق (٨)

وقد لايخلو هذا الشعر من حشو مخل . .

وبلا ذنب ــ بدا ــ تقطعه (٩)

تلك التي تركت جسمي بها مرضاً وحرّضت ــ كي تذيب القلب ــ اشواقي(١٠)

وانت ترى الى ذلك ان الحبوبي ربما كرر بعض معانيه وامعن في التكرار واعاد

---

(١) ـ (٤) ديوان الحبوبي ١٠٠ ـ ١٠١ ، ٦٩ ، ١٤٧ ، ٢٥٩ .
(٥) ـ (١٠) ديوان ٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ١١١ ، ٥٢، ٢٥٩ .

الصور وامعن في إعادتها كأن تراه لايني أبداً يردد أوصاف معشوقته عينها فانت منها لاتزال بين قسي الحواجب وليل الشعر ووضح الجبين والى ماهناك . .

وهو كذلك يكرر صور ممدوحيه فممدوحه أبداً :

أخف طبعاً من نسيم الصبا لكنه هضبة رضوى وقارْ

وقد تغلب عليه التلقائية فتبدو معانيه ساذجة عليها طابع النثرية وهذا مزلق طالما انحدر اليه شعراء السهل الممتنع . . !

أفرح إن يدنو اهيل الحمى وإن نأوا كابدت احزاني (١)

وإغراقه في التلقائية تقابله من جهة اخرى غلبة الافتعال على بعض شعره إن في لفظه وإن في معناه فأنت قد تقرأ له الطباق المصطنع غير الموفق .

خائفة الحلي إذا تأودت لكنها آمنة المطارف (٢)

أسروا قلبي وأجروا مدمعي فانا اشكو اسيرا وطليقا (٣)

أو الجناس المتعمل المستثقل :

فمن دمي قد ارتوت حتى روت للناظرين من دمي عندمها (٤)

فهو في غزْل كمعنى الغزَل (٥)

وهو يرتج نقا تحت قنا (٦)

وربما نلحظ على بعض قوافيه الجمود أو النبوّ كأن نقرأ له :

اهل الصحارى والمدن . . .

أو دهشة المندهش

البرغش

اخفش

(١) - (٦) : ديوان ١٢٤ ، ١٦٣ ، ٢٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ .

اغطش

نختش

ولك ان تقرأ الموشحة (ص ٨١) لتتبين بنفسك مدى هذا القول من الصحة

وربما قرأت له بعض قصائد لاقيمة لها تشكو من ضعف أو قلة انفعال والتعمل باد عليها في روحها وهيكلها جميعاً .

ولك ان تقرأ مثلا ابياته في العتاب على الصفحة ١٦١ من ديوانه أو القصيدة ص ٢٩١ والاخرى على ص ١٤٤ اذ هي وسابقتها خلو من العاطفة عامرة بالتعمل .

والتفاوت بيّن في هذا الديوان فتراه تارة يعلواً علو يبلغ الغاية واخرى ينحدر انحدارا يوازي ارتفاعه . . . وبكلمة اخرى انك واجد الدر في الديوان الى جوار الصدف. . . ومن يدري ! فلعلنا نقرأ في هذا الشعر بعض بواكير الشاعر التي كان ينبغي لها ان تختزل ليسلم منها الديوان . . .

ولك ان تقرأ مثلا شينيته على ص٣٠٥ فهي دون شعره قطعاً ولعلها بعض هذه البواكير التي نحن بصددها. . . ولك من بعد ان تقرأ قصيدتيه على الصفحتين ١٤٤ و ١٤٥ وتوازن بينهما لترى ان البون بعيد بعيد بينهما فالاولى في الحضيض والثانية في القمة . . . ثم لك ان تقرأ الاخرى على ص ١٥٣ فهي قطعاً من اوائل قوله والاخرى على الصفحة ١٥٤ اذ هما حذلقة وتعمل في اللفظ والمعنى معاً والابتذال بادٍ عليهما والنثرية طاغية فيها بافضح صورها . . . !

ثم قد لايخلو هذا الديوان من ابيات مختلة الوزن

أما الخطأ المطبعي فحدث عنه ولا حرج !

حُسَّد يرنوك بالطرف الحنق

والصواب يرموك وهو بعد خطأ نحوي لان الصواب يرمونك (١)

ومن الاخطاء الفاضحة :

تريك الصبح غرتها انبلاجاً   اذا ما الليــل طرتها اطـــلا

والصواب اذا ما ليل طُرّتها (٢)

وامثال هذا كثير بوسعك ان تتبينه بنفسك وانت تتصفح الديوان !

هذا بعض ما عنّ فيه لنا في وقفتنا من الحبوبي شاعراً غنائياً عالي الطبقة . . .

وما اجدر ديوان الحبوبي بطبعة علمية تليق بمكان الرجل وتكون له اكرم تحية في دنيا الخالدين . . .

* * *

عاتكة الخزرجي

---

(١) - (٢) ديوان ٦١ ، ١٤٥ .

تطور الأرقام العربية المشرقية والمغربية واستعمال العرب للأرقام المغربية منذ القدم

الدكتور عادل البكري

من المسلم به أن العرب نقلوا الحضارة الى أوربـــا عن طريق اسبانيا وكانت العلوم العربية تدرس في جامعات أوربا كالطب والكمياء والفلك وكذلك الرياضيات كالجبر والحساب فقد أقتبس الأوربيون نظريات الخوارزمي في الاسس والجـــذور ومن اســـمه جاء لفظ اللوغاريتم وكذلك استفادوا من علم المثلثات والهندسة ونقلوا الأرقام العربية الى أوربا واستعملوها في علومهم بما فيها الصفر الذي لا يزال اســـمه في لغاتهم محرفاً من الكلمة (صفــــر) العربية .

وقد كان أحد الرهبان المدعو اوفرنيان جربرت (Ovrenean Gerbert) قد درس العلوم العربية في قرطبة بالأندلس وعبر الى المغرب فدرس في جامعة القرويين بفاس ونقل الأرقام العربية المغربية واستعملها عوضاً عن الأرقام الرومانية الثقيلة الصعبة في الحساب ثم انتشر أستعمالها بعد ذلك وقد تسنم هذا الراهب بعدئذ عرش البابوية في روما باسم البابا سلفستر الثاني .

وقد اشتهر بالحساب والرياضيات من العلماء بالمشرق العربي الخوارزمي والبيروني أما في بلاد المغرب فقد اشتهر عدد من العلماء العرب الذين ساعدوا على نشر العلوم

الرياضية والحساب بصورة خاصة الى أوربا ونذكر من هؤلاء ابن البناء العددي وهو أبو العباس احمد بن محمد الأزدي العالم الرياضي الفلكي الحيسوب المولود بمراكش عام ٦٥٤ هـ وقد وصف بالعددي لتميزه بالعلم الذي اشتهر به وهو علم العدد والحساب وكان له تأثير كبير في النهضة العلمية باوربا وقد اشاد بفضله سارتون وسوتر والدومييلي واشار الرياضي الفرنسي شال الى أن علماء أوربا اغاروا على كتبه وتبنوا نظرياته وقد ترجموا مؤلفاته الى اللغات الأوربية وأشهر مؤلفاته في الحساب والرياضيات كتاب (التلخيص في الحساب) (وكتاب الجبر والمقابلة) (وكتاب القانون في العدد) وغيرها من الكتب . كما اشتهر أيضاً بالهندسة وله فيها مؤلفات .

ومن طريف شعره هذه الأبيات الغزلية التي ضمنها مصطلحات هندسية وهي :

خط الغرام على المشوق مثلثاً
متساوي الاضلاع خط مبرّز
يا ميّ ان ارسلت سهماً صائباً
من قوس طرف مالها من محرز
تجدي المتيم وسط دائرة الهوى
وفؤاده فيها كنقطة مركز
اضحى كخط ليس يدرك رقة
أو نقطة في الوصم لم تتميز

فقد تضمن شعره المثلث المتساوي الاضلاع والخط والنقطة والقوس والدائرة ونقطة المركز وغير ذلك .

ومنهم العالم الرياضي الأديب ابن الياسمين وهو أبو محمد عبدالله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠٠ للهجرة . وله عدة مؤلفات في الحساب

والجبر منها كتاب (تلقيح الافكار) ويبحث في الحساب والأعداد و يتضمن بحث العمليات الحسابية والكسور واستخراج المجهولات من الأعداد واستخراج الجـذور وله أيضاً ارجوزة في علم الجبر اخذت عنه في اشبيلية وتبحث في العدد الصحيـح والكسور واستخدام المجهولات والمعادلات الجبريـة .

وقد بحث هذا العالم في موضوع الأرقام العربية المستعملة في بلاد المغرب والاندلس والتي تدعى أيضاً (بالارقام الغبارية) وهي التي انتقلت الى أوربا والتي نسميها نحن بالأرقام الانكليزية أو الأجنبية أو الافرنجية بينما يسميها الاوربيون والعالم أجمع بالأرقام العربيـة (Arabic Numerals) والتي لا تـزال تستعـمل عند عرب المغرب والجزائر وتونس . وقـد أوضح في كتابه المسمى (تلقيح الافكار في العمل برسوم الغبار) الموجود مخطوطا في قسم المخطوطات في الخزانة العامة بالرباط ضمن كتب المكتبة الكتانية ، أوضح أن الأرقام شكلان وأن عـرب المغرب كانوا منذ القديم (أي قبل عام ٦٠٠ للهجرة وهو تاريخ وفاة ابن الياسمين) يستعملون الأرقام المستعملة في المغرب حالياً والتي ندعوها بالأرقام الأجنبية وقال في ذلك ما يلي :

(واعلم أن الرسوم التي وضعت للعدد تسعة اشكال يتركب عليها جميع العدد ، وهي التي تسمى اشكال الغبار وهي هذه 1 2 3 4 5 6 7 8 9 (وقد رسمها هكذا بخط يده) وقد تكون أيضاً هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ولكن الناس عندنا عـلى الوضع الأول . ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز ، ووجه العمل على حاله لا يتبدل) .

اما في المشرق العربي فمن أوائل الذين بحثوا موضوع الأرقام ابن النديم وهـو محمد بن اسحق ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ للهجرة وكان قـد رسم بخط يده في

كتابه (الفهرست) صورة للارقام الهندية القديمة قبل تطورها والتي اصبح قسم من اعدادها غير مستعمل في الوقت الحاضر . ومن يتأمل في هذه الأرقام يرى كيفية التطور الذي سارت عليه الأرقام المشرقية والمغربية وأن الاختلاف بينها لا يزيد عن كونه اختلافاً في طريقة التطور .

وقد اوضحت ذلك في اللوحات المرفقة بهذا التقرير والتي اقتبستها من فهرست ابن النديم وبينت طريقة تطورها الى الأرقام العربية المشرقية والمغربية وهي كما يلي :

١ ـ اللوحة الاولى :

الارقام المشرقية والمغربية في وضعها الحاضر .

٢ ـ اللوحة الثانية :

الأرقام الهندية والمشرقية والمغربية حيث هناك تشابه في كل من الرقم (١) و (٩) في الاشكال الثلاثة . اما الأرقام (٢) و (٣) و (٧) فانها تختلف في الاتجاه فقط في الشكل المشرقي عمودية بينما في الشكل المغربي افقية .

٣ ـ اللوحة الثالثة :

تبحث في تطور الأرقام الباقية وهي (٤) و (٥) و (٦) و (٨) فالرقم (٤) الهندي تطور بأيدي العلماء العرب الى نوعين من التطور أولهما في المشرق حيث استغنوا عن (الالتفاف) في طرفه الايسر وثانيهما في المغرب حيث استغنوا عن الذيل الذي في الجهة اليمنى منه .

أما الرقم (٥) فقد اختصر في المشرق وأصبح بشكل دائرة كاملة أما في المغرب فقد أصبح بشكل دائرة مفتوحة من اليسار ذات تعريش أو توريق من الاعلى . ومن المعلوم أن المغاربة والأندلسيين مولعون بالتعريش والتوريق في نقوشهم وكتاباتهم وأرقامهم .

أما الرقم (٦) فقد استغنوا في المشرق عن نهايتيه العليا والسفلى للاختصار .

أما في المغرب فقد زادوا الالتفاف الذي في الاسفل ليكون تام الانغلاق . اما الرقم (٨) فقد اختصروا في المشرق الالتفاف الذي في ضلعه الأيمن ليكون بشكل ساقين فقط بينما في المغرب زادوا الالتفاف لينغلق الساق الأيمن على الأيسر وذلك لما عرف عنهم من الميل الى مثل هذا التعريش أو التوريق .

٤ ــ اللوحة الرابعة :

تبين ثلاثة أرقام مشرقية هي (٢) و (٣) و (٧) فأذا اديرت اللوحة على ضلعها الايسر فان الارقام نفسها تصبح مغربية وهي (2)و (3) و (7) وهكذا يتضح أن الاختلاف بين هذه الارقام المشرقية اختلاف بسيط ويرجع الى انحراف محور الرقم .

٥ ــ اللوحة الخامسة :

توضح التشابه الكبير بين مجموعة من الأرقام هي ٣ ٢ ١ ٩ ٧ بالخطين المشرقي والمغربي .

٦ ــ اما اللوحة السادسة :

فتوضح الاختلاف في بعض الحروف الكتابية المشرقية والمغربية وكيف اجاز عرب المغرب والاندلس أن يغيروا حروف الكتابة العربية (لا سيما بالتعريش والتوريق الواضح في القسم السفلي) من اللوحة وهوما اتبعوه في تغيير الأرقام أيضاً .

وأنتهي من ذلك الى ايجاز النقاط التالية :

١ ــ ان الأرقام التي نسميها نحن بالأرقام الأجنبية والتي نعاملها بجفوة وعدم ارتياح ليست ارقاماً أجنبية بل هي ارقام عربية تربطنا بتاريخ حضارتنا

العربية الزاهرة وان هناك في المغرب مخطوطات ووثائق ترجع الى القرن الخامس الهجري أو قبل ذلك كتب عليها التاريخ بهذه الأرقام وقد لاحظت عند زيارتي للمغرب العربي أنها كتبت أيضاً على بعض شواهد القبور التي ترجع الى ما قبل ذلك التاريخ في الوقت الذي لم تكن هذه الأرقام معروفة آنذاك في أوربة ولا يعقل انها انتقلت منها .

٢ – ان الأرقام المشرقية والمغربية رغم انهما – على السواء – متطورة في الاصل عن أرقام هندية فان هذا التطور حدث بأيدي العلماء العرب (وبشكلين مختلفين في المشرق والمغرب) وانهما من صنع عربي لدرجة انهما يختلفان عن تلك الأرقام الهندية ولا يمكن بأي حال من الأحوال الطعن باصالتها العربية .

وقد كان للمغرب العربي في السنوات الاخيرة فضل التعريف بأصالة الأرقام المغربية التي نطلق عليها اسم (الارقام الأجنبية) ، وارتباطها باصول عربية . وكانت دولة الكويت أول دولة عربية في المشرق تبحث بصورة جديدة موضوع الأرقام وتعرّف بانتسابها الشرعي الى العرب حيث اقترحت ادارة البريد والهاتف والبرق الكويتية أن تقوم ادارات البريد في الدول العربية باستعمال الأرقام العربية (المغربية) بدلاً من الأرقام العربية الحالية (المشرقية) ، فأحيل هذا الاقتراح الى مؤتمر الرياض حيث اصدر التوصية الآتي نصها ؛ : (تعمل الادارات البريدية بقدر الأمكان على استعمال الأرقام العربية الاصلية (1 2 3 4 5 الخ في اختامها البريدية) . غير أن ادارة بريد الكويت ارتأت تطوير الاقتراح والتوسع في استعمال هذه الأرقام في جميع المجالات الحكومية والثقافية والتجارية

٩ ٨ ٧ ٦ ٥ ٤ ٣ ٢ ١

9 8 7 6 5 4 3 2 1

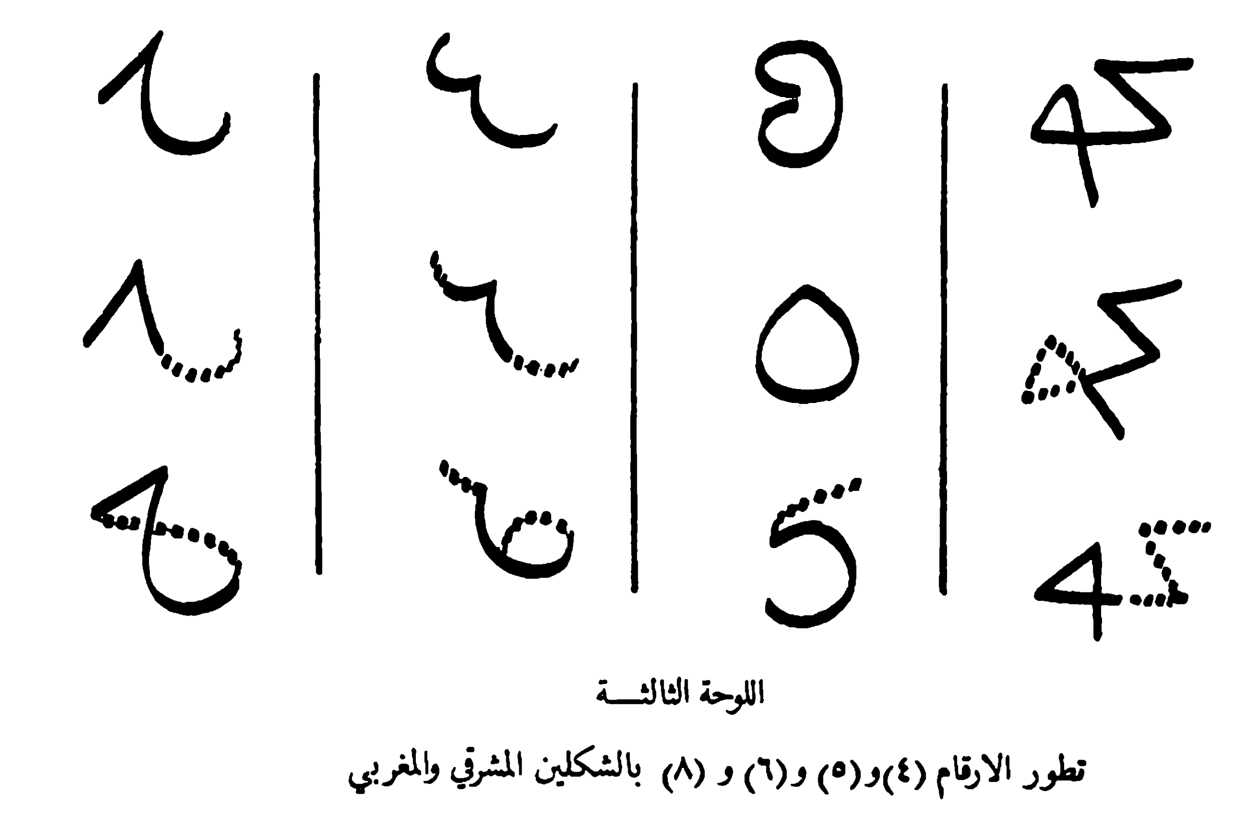
اللوحة الاولى

الارقام المشرقية والمغربية في وضعها الحاضر

هندي	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١
مشرقي	٩	٨	٧	٦	٥	٤	٣	٢	١
مغربي	9	8	7	6	5	4	3	2	1

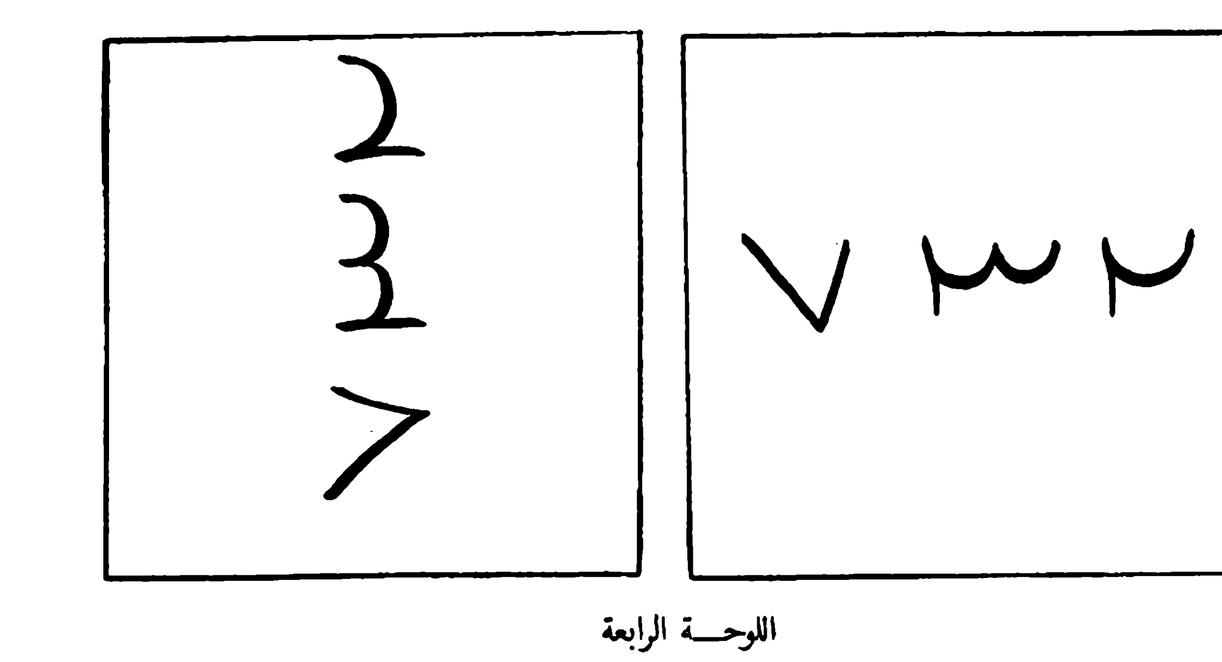
اللوحـــة الثانية

مقارنة بين الارقام الهندية الاصلية والمشرقية والمغربية



اللوحة الثالثـة

تطور الارقام (٤)و(٥) و(٦) و (٨) بالشكلين المشرقي والمغربي



اللوحـــة الرابعة

الارقام المشرقية (٢) و(٣) و(٧) – في الجهة اليمنى – اذا قلبت على ضلعها الايسر تصبح ارقاماً مغربية

٧٩١٢٣

79123

اللوحـــة الخامسة

التشابه الشديد بين مجموعة من الارقام المشرقية والمغربية

فب = قف | الصدف = الصدق | صُرف = طرق

قل اعوذ برب الناس

اللوحـــة السادسة

مقارنة بين الخطين المغربي والمشرقي توضح (في الاعلى) الاختلاف بين حروفهما ،
وولع المغاربة (في الاسفل) بالتعريش والتوريق

فأحالت الاقتراح الى لجنة التنفيذ لدراسته واقراره تمهيداً لاحالته الى جامعة الدول العربية ، وكان ذلك في آذار ــ ١٩٦٢ حيث اصدرت اللجنة ــ المذكورة بجلستها المنعقدة بالقاهرة في ١ــ٤ــ١٩٦٢ التوصية التاليــة : (توافق لجنة التنفيذ على احالة هذا الاقتراح الى جامعة الدول العربية ليكون محلا للدراسة من الأجهزة الفنية المختصة لديها) . ثم أحيل الاقتراح الى الامانة العامة لجامعة الدول العربية التي اكدت على ضروة تنفيذ توصيــة مؤتمر التعريب الذي عقد في المغرب في ٣ ــ نيسان ــ ١٩٦٢ والذي اكد على وجوب الاخذ باستعمال الارقام المغربية برغم استعمال أوربا لهــا نقلاً عن العرب .

وبعثت الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية بتاريخ ٣٠ــ١١ــ٩٦٣ الى المكتب الدائم بتوصيات الحلقة التي عقدت في تونس في المدة مــــن ١١ ــ ١٤ ــ تشرين الثاني ــ ١٩٦٣ حول الموضوع . وكان قرار مجلس الجامعة العربية في دورته العادية الثالثة والأربعين المنعقدة بالقاهرة فــي آذار ــ ١٩٦٥ قد جاء بالموافقة على توصيات حلقة دراسة الأرقام فــي البلاد العربية ، وهي التوصيات التي احيلت الى مجامع اللغة العربية في القاهرة ودمشق وبغداد بواسطة الامانة العامة للاتحاد البريدي العربي . وكان المجمع العلمي العراقي قد تسلم نص الاقتراح والتوصيات المذكورة فقمت بدراستها بتكليف منه وكتابة التقرير اللازم حولها والذي يتلخص في مــا يلي :

١ ــ ان اطلاق اسم (الارقام الغبارية) على الارقام العربية المغربية وحدهــا ــ (دون المشرقية) أمر لا يستند على اساس ما وكان يجب أن يطلق على كل

من الأرقام المغربية تلك والأرقام المشرقية المستعملة في العراق والكويت ومصر وغيرها حيث أن التسمية جاءت من كون هذه الأرقام (بنوعيها الأثنين) صار يعتمد عليها في اجراء العمليات الحسابية فكانوا يكتبونها على لوح مغطى بالغبار وبعد اجراء الحساب يزيلون الغبار ويضعون غيره وكان ذلك تمييزاً لهذه الأرقام (المشرقية والمغربية) عن الأرقام الاخرى (الرومانية التي كانت معروفة آنذاك والتي لا يمكن اجراء العمليات الحسابية بواسطتها) . وقد انتشرت هذه التسمية (أي الغبارية) مؤخراً بواسطة الأدباء المغاربة الذين لم يلاحظوا أن ابن الياسمين المتوفى سنة ٦٠٠هـ وهو من أشهر الرياضيين الحسابيين في المغرب قد بيّن التسمية واوضح انها تطلق على النوعين من الارقام (أي المشرقية والمغربية) وقد ذكر ذلك في كتابه المسمى (تلقيح الافكار في العمل برسوم الغبار) وهو أحد مخطوطات الخزانة العامة بالرباط ضمن كتب المكتبة الكتانية حيث جاء فيه ما يلي :

« واعلم الرسوم التي وضعت للعدد تسعة اشكال يتركب عليها جميع العدد وهي التي تسمى اشكال الغبار وهي هذه (1 2 3 4 5 6 7 8 9) وقد رسمها ابن الياسمين هكذا بيده) وقد تكون ايضاً هكذا ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ (رسمها أيضاً بخطه). . . ولو اصطلحت مع نفسك على تبديلها أو عكسها لجاز . . .. وأما أهل الهند فانهم يتخذون لوحاً اسود يمدون عليه الغبار وينقشون فيه ما شاؤوا ، لذلك يسمى حساب الغبار . وعلى الحقيقة ليس الا المداد والمحو » .

٢ ـ ان الأرقام المشرقية المستعملة عندنا الان ليست هندية بل متطورة عن أصل هندي أذ أن الدقة العلمية تقتضي التفريق بين التسميتين . وان الأرقام الهندية تختلف عن أرقامنا المشرقية الحالية ببعض اعدادها التي طورها العلماء العرب بأشكال جديدة كما طوروا الأرقام المغربية . أي انها تنتسب الى العرب بالمقدار نفسه الذي تنتسب به الأرقام المغربية . وقد أتسمت هذه الأرقام بالطابع العربي خلال اكثر من ألف عام وان العرب هم الذين نقلوها الى الشعوب الاخرى كالعثمانيين والايرانيين وغيرهم . ولذلك اقترح ان تسمى بالأرقام (العربية المشرقية)تمييزاً لها عن الأرقام (العربية المغربية) المستعملة في دول المغرب والأندلس العربي وأوربا .

٣ ـ جاء في (محضر اجتماع لجنة استعمال الأرقام العربية الأصاية) المرفق بالبحث المذكور ان هذه الأرقام أي المغربية (نقلها العرب الى المغرب والأندلس حيث قام الأوربيون بتعديلها وتطويرها حتى أصبحت بشكلها الحالي) وهذا وهم وليس له أساس علمي حيث لم يثبت أن هناك أرقاماً في المغرب العربي أو في الأندلس غير هذه الأرقام الحالية التي كانت منذ القديم بهذا الشكل وأقتبسها الأوربيون كما هي دون تعديل أو تطوير . كما لم يثبت أن أوربا عرفت (بعد الأرقام الرومانية) أرقاماً اخرى غير هذه . ولم يذكر أحد أن تعديلاً أو تطويراً طرأ على هذه الأرقام مهما كان شكله ونوعه . ولعل التطور الوحيد الذي حدث هو التطور الذي طرأ على الأرقام الهندية القديمة بحيث تحولت الى شكل هذه الأرقام وقد حدث بأيدي العلماء العرب وقد أوضحته في ما سبق بالرسوم التي تبين طريقة هذا التطور .

وكان كتاب الأمانة العامة للاتحاد البريدي العربي قد أرفق

بتقريرين آخرين هما ردان على التوصيات المذكورة ، ويبدو انهما كتبا عن مصدر واحد واطلقا عن قوس واحدة ففيهما انتقاد لفكرة الأرقام المغربية وتخوف من تعميم استعمال هذه الأرقام وربما كان سبب ذلك الحرص على الأرقام المشرقية والتي هي الأخرى أرقام عربية لا يجوز التفريط بها أو القضاء عليها ، والتي أصبحت مألوفة لدينا منذ مئات السنين ومن الواجب المحافظة عليها من الزوال .

وأقول ان استعمال الأرقام المغربية ليس معناه مزاحمة الأرقام المشرقية (أي الأرقام العربية المستعملة في المشرق العربي) أو محاولة للقضاء عليها بل أن يكون استعمالهما معاً ويكون حالهما في الاستعمال حال خطوط الكتابة العربية كالخط الكوفي والديواني والرقعة والنسخ والثلث وغيرها حيث نتجمل بهذه الخطوط وننظر اليها كفن متميز من الفنون الجميلة ونكتب بأي منها كما نشاء دون أن تكون الكتابة بأحد هذه الخطوط سبباً في الشعور بالكراهية للخطوط الاخرى أو داعياً الى زوالها ، بل كثيراً ما نجمع بينها في الكتابة الواحدة فنجد غلاف كتاب وقد كتب عنوانه بالخط الكوفي مثلاً وكتب تحته اسم المؤلف بالخط الديواني أو الرقعة دون أن نجد يأساً في ذلك. فليكن ذلك بالنسبة لهذين النوعين من الأرقام المشرقية والمغربية فهما شكلان عربيان من الأرقام، متطوران بأيد عربية وقد صقلتهما العبقرية العربية من خلال استعمالهما في الحساب والجبر على أيدي الرياضيين العرب أما الأول منهما فقد انحصر استعماله في المشرق وأما الثاني فقد انتشر واستعملته جميع شعوب العالم بدلاً من الأرقام الرومانية القديمة .

ومن أهم الانتقادات التي توجه الى فكرة استعمال الأرقام المغربية

ان العرب المشارقة لم يتعرفوا خـلال مئات السنين على هـذه الأرقام ولم يستعملوها في كتاباتهم وهذا يدعو الى الشك في انتسابها الى الغرب . أقول : ان هذا الرأي جدير بالاهتمام ولكنه لا ينفي كون هذه الأرقام عربيـة وترجع الى أصل عربي رغم عدم اطلاعنا نحن أبناء الشرق العربي عليها ، لا سيما اذا عرفنا أن العرب في المشرق بقوا في عزلة عن اخوانهم في المغرب عصوراً طويلة وكذلك عرب المغرب .

ولكن الرجوع الى المصادر التاريخية العربية (كتلقيح الأفكار) الذي يذكر فيه مؤلفه الأرقام المشرقية والمغربية ويرسمها بخط يده لا يترك مجالاً للشك وكذلك الرجوع الى المصادر الأوربية ككتاب (قصـة الأعداد) لباتريشيا لوبر ، وبحث الدكتور البرت ديتريش المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، وكذلك الموسوعات العلمية الأوربية كدائرة المعارف الايطالية ودائرة المعارف البريطانية وموسوعة لاروس وغيرها فهي جمعيها تنص على أن العرب نقلوا الأرقام المغربيـة الى أوربا واستعملتها الشعوب الأوربية عوضاً عن الارقام الرومانية ولا يزالون يستعملونها ويسمونها (الأرقام العربيـة) الى الآن .

الخلاصة :

ان كلا من الأرقام المشرقية (المستعملة في العراق والكويت وسوريا ولبنان ومصر وغيرها) والأرقام المغربية (المستعملة في تونس والجزائر والمغرب وكذلك في أوربـا وجميع أنحاء العالم) ، أن كلا من هذين النوعين من الأرقام يرجع الى أصل واحـد هو الأرقام الهندية القديمة التي طورها العرب الى نوعين من التطور : أولهما التطور

الذي حدث في بلاد المشرق العربي والذي انتهى الى شكل الأرقام المشرقيـــة المستعملة في بلادنا منذ العصر العباسي حتّى الآن . وثانيهما التطورالذي حدث في بلاد المغرب العربي والذي انتهى الى شـــكل الأرقام المغربيـــة والّتي انتقلت الى الأ ندلس وأوربا . وكان لعصر السبات الذي مرّ به العرب بعد سقوط حضارتهم في العراق والأندلس تأثير كبير في عدم معرفتنا لهذه الارقام الأ مع دخول الاستعمار الانكليزي والفرنسي الى بلادنا في شرق الوطن العربي ، وهذا هو سبب الجفوة والنفور من الارقام وتسميتها بالأرقام الانكايزية أو الأفرنجية أو الأجنبية ! !

وان كلا من الأرقام المشرقية والمغربية ذو أصول عربية وهما يتساويان بانتسابهما الى العرب ، ومن الأصح أن يعمم استعمالهما في البلاد العربية في الوقت الحاضر كشكلين متميزين من اشكال الأرقام العربية ، وذلك من أجل تحقيق وحدة ثقافية عربية في الوطن العربي من مشرقه الى مغربـــه .

عادل البكري

الرواتب في الإسلام

عبود الشالجي

لم يعن المؤرخون الاسلاميون بأمر الرواتب التي كان يتسلمها من يؤدي خدمة للدولة ، وانما كان اهتمامهم ، في أغلب الأحوال ، مصروفاً الى ذكر الحروب ، وقيام الدول وسقوطها ، فأهملوا ذكر الجانب الاجتماعي ، ذلك الجانب ذي الأهمية الكبرى في التاريخ ، لأنه أقوى الاسباب في سير الدولة . وتقلب الاحوال عليها ، وكان من جملة ما أهملوه ، أمر الرواتب ، وكلف المعيشة ، وأثمان الاشياء ، عقاراً كانت ، كالدور والضياع ، او ما كان في حكم العقار كالسفن ، أو مالا سواء أكان من الرقيق، ام من العروض ، واذا ذكر شيئ من ذلك فانما يذكر عرضاً ضمن خبر أو قصة .

وقد رأيت أن استخلص من تلك الاخبار والقصص ، ما أستطيع استخلاصه مما يتعلق بأخبار الارزاق والجرايات والأثمان وأجور الكراء والهبات وغير ذلك .

وكنت على ان اسطّر في ذلك بحثاً ، حتى اذا ماتوسطت غمرته ، وجدت أنه متشعب الجوانب كثير الفروع ، قد يتسع له كتاب ، فان موضوع الرواتب ينصب على رواتب الخلفاء ، والامراء ، والقواد ، والوزراء ، والعمال ، والقضاة

والفقهاء ، والمدرسين ، وصغار الموظفين عامة ، كما ان موضوع الاجور متشعب الى اثمان الجواري والغلمان ، والاراضي والأبنية ، واثمان مواد المعيشة على اختلاف اصنافها ، وأثمان الجوهر ، والثياب ، والدواب ، والعروض على اختلافها ،ويتبع ذلك أبحاث عن التعويض ، عن الضرر المادي ، ويتشعب الى موضوع الدية ، والأرش ، وما أصيب به طالب التعويض من ضرر ، والضرر المعنوي ، وهو التعويض عن كل مايمس من أصابه الضرر بالأذى ، وأبحاث عن الهبات ، هبات الخلفاء ، وهبات الأمراء والوزراء ، وهبات العمال ، للشعراء والندماء والمغنين والملهين ، وأبحاث عن المهور ، الى غير ذلك مما يمكن أن يدخل ضمن هذا الموضوع .

فتوكلت على الله ، واخذت اجمع ماتيسر لي جمعه من هذه الاخبار بغية ايداعها في الكتاب الذي أسأل الله تعالى أن يعينني على اتمامه .

وأورد فيما يلي بحثاً مختصراً عن رواتب الخلفاء والوزراء والقواد ، والعمال ، والقضاة ، والكتاب .

الخلفـــاء

لما استخلف أبو بكر ، في السنة ١١هـ ، ظل ستة أشهر يزاول عمله في السوق ، ويقوم في عين الوقت بأعباء الخلافة ، ثم رأى أن عليه أن يتفرغ للنظر في أمور المسلمين ، فتفرغ لها ، وفرضوا له ولعياله ستة عشر درهماً في اليوم (١) .

ولما استخلف عمر في السنة ١٣هـ ، قعد على رزق أبي بكر ، فاشتدت حاجته ، فأذن له المسلمون بأن يأخذ من بيت المال ، مايفي به رزق عياله ،وحلة للشتاء ، وحلة للصيف ، وراحلة للحج ، ودابة في حوائجه وجهاده (٢).

---

(١) الطبري ٣/٤٣٢ وابن الاثير ٢/٤٣٤

(٢) الطبري ٣/٦١٦ وتاريخ الخلفاء للسيوطي ١٢٨ .

ولما استخلف عثمان في السنة ٢٣هـ ، لم يأخذ رزقاً من بيت المال ، فقد كان غنياً ، وخلف لما قتل ، مالا وضياعاً وخيلا وابلا (١) .

ولما استخلف الامام علي بن ابي طالب في السنة ٣٥هـ ، لم يتناول رزقاً ، وانما اكتفى بعطائه الذي كان يتناوله مع المسلمين حتى أن الحب الذي كان يأكل منه ، يجلب له من ماله بالمدينة (٢) ولقد دخل عليه أحد اصحابه بالخورنق ، والفصل شتاء ، وعليه خلق قطيفة ، وهو يرعد ، فقال له : باأمير المؤمنين ،إن الله قد جعل لك ، ولأهلك ، في هذا المال نصيباً ، وأنت تفعل هذا بنفسك ، فقال : والله ، ماأرزأكم شيئاً ، وماهي ألا قطيفتي التي أخرجتها من المدينة (٣) .

وكان يكنس بيت المال ، ويصلي فيه ، رجاء أن يشهد له أنه لم يحبس فيه المال عن أحد من المسلمين (٤) .

وسأله أخوه عقيل ، أن يعطيه لأنه محتاج ، فقال له : اصبر حتى يخرج عطائي مع المسلمين ، فاعطيك ، فألح ، فقال لرجل من أصحابه : خذ بيده وانطلق به الى حوانيت أهل السوق ، فقل له : دق هذه الاقفال وخذ مافي الحوانيت ، وقال : تريد ان تتخذني سارقاً ؟ فقال له : وأنت تريد أن تتخذني سارقاً ، أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم ، فقال له : لآتين معاوية ، فقال له : أنت وذاك ، فأتى معاوية ، فسأله ، فأعطاه مائة الف (٥) .

ولما استولى معاوية بن ابي سفيان ، على الحكم ، تغير الحال عما كان عليه في عهد الخلفاء الراشدين، فانهم كانوا يأخذون الأموال من وجوهها، ويضعونها في

---

(١) مروج الذهب ١/٥٤٤
(٢) ابن الأثير ٣/٤٠١
(٣) ابن الأثير ٣/٣٩٩و ٤٠٠
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطي .
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي ٢٠٤ .

حقوقها ، أما معاوية فكان يضعها كيف شاء (١) ، وكان مصروف الهمة الى تدبير امر الدنيا (٢) ، فأمر أن يصطفى له من الغنائم كل ذهب وفضة ، فيخصص له خالصاً (٣) ، كما أخرج من كل بلد ، ماكانت ملوك فارس تستصفيه لنفسها من الضياع العامرة ، وجعله صافية لنفسه ، أو أقطعه جماعة من أهل بيته (٤) كما أمر أن يحمل اليه ، ماكان يحمل للأكاسرة من هدايا النيروز والمهرجان (٥) .

ولما استولى عبد الملك بن مروان ، على الحكم ، اتخذ سياسة بالغة العنف ، لخصها في خطبته التي خطبها بالمدينة ،بعد أن قتل عبدالله بن الزبير ، قال : ان من كان قبلي من الخلفاء ، كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال الا واني لا أداوي أدواء هذه الأمة الا بالسيف . . . والله ، لا يأمرني أحد بتقوى الله ، بعد مقامي هذا ، الا ضربت عنقه(٦) .

وسار اولاد عبد الملك من بعده ، على سيرته ، اذ كانوا يعتقدون ، أن الخلفاء ليس عليهم حساب ولا عذاب (٧) ، وبلغ الامر بأحدهم ، وهو الوليد بن عبد الملك أن قال انه سيشفع عند الله سبحانه وتعالى للحجاج بن يوسف وقرة بن شريك (٢) .

وأصبح هذا الادعاء ، متوارثاً بين الحاكمين ، حتى أن المنصور العباسي كان يقول : الحمد الله الذي أجارني بخلافته ، وأنقذني بها من النار (٩) ، وكان أحدهم يغضب اذا قيل له : اتق الله (١٠) ، وأخذوا يتعصبون بعضهم لبعض ، فقد ذكر

---

(١) المحاسن والمساوئ ١٤٨/٢
(٢) الفخري ١٠٧
(٣) البيان والتبيين ٢١٧/٢
(٤) تاريخ اليعقوبي ٢٣٣/٢، ٢٣٤
(٥) تاريخ اليعقوبي ٢١٨/٢
(٦) تاريخ الخلفاء ٢١٩
(٧) تاريخ الخلفاء ٢٤٦
(٨) المحاسن والمساوئ ٢٢٠/١
(٩) المحاسن والمساوئ ٢٢٠/١
(١٠) الطبري ١٨١/٨

المهدي العباسي ، الوليد بن يزيد ، فامتدحه ، فقابل له شبيب بن شيبة : ياأمير المؤمنين ، انه كان زنديقاً ، فقال اسكت ، فما كان الله ليضيع خلافته عند من يكفر به (١) .

وكان علماء السوء ، يغذون هذا الاعتقاد ، ويزيدونه تمكناً في قلوب هؤلاء المتسلطين ، حتى ان ابراهيم بن محمد التيمي ، لما نصبه المتوكل للقضاء ، كان يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر ، وعمر بن عبد العزيز ، والمتوكل (٢) .

وكان يقول : ندمت ألا أكون قلت للمتوكل : تدعو لي ، فان دعاء الامام مستجاب (٣) .

ولما استخلف الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، أعاد سيرة الخلفاء الراشدين والزم بني أمية برد ماأخذوه من الناس (٤) ، و بدأ بزوجته فاطمة بنت عبد الملك ابن مروان ، فردت جميع مالديها من حلي وجواهر الى بيت مال المسلمين (٥) وكانت نفقته في كل يوم درهمين اثنين ، يأخذهما من بيت مال المسلمين (٦) وكانت له حلتان ، اذا غسل احداهما لبس الأخرى (٧) ، وكان يسرج عليه الشمعة ماكان في حوائج المسلمين ، فاذا فرغ من حوائجهم ، أطفأها ، واسرج عليه سراجه (٨) .

انتقل عمر الى رحمة الله تعالى (٩) ، وخلفه يزيد بن عبد الملك ، عمد

---

(١) الاغاني ٨٣/٧
(٢) اخبار القضاة ١٨٠/٢
(٣) اخبار القضاة ١٨٠/٢
(٤) ابن الأثير ٦٤/٥
(٥) ابن الأثير ٤١/٥
(٦) ابن الأثير ٦٢/٥ وتاريخ الخلفاء ٢٣٦
(٧) الاغاني ٤٨/٨
(٨) تاريخ الخلفاء ٢٣٦
(٩) لما احتضر عمر ، بعث فاشترى موضع قبره من اهل دير سمعان ، وقال : ان بعتموني موضع قبري والا تحولت عنكم (تاريخ الخلفاء ٢٣٤)

الى جميع ماصنعه عمر ، فأبطله (١) ، والى عمال عمر فعزلهم جميعاً (٢) ، وعمد الى عراك بن مالك ، أحد أعوان عمر بن عبد العزيز في رفع المظالم ، فأمر بنفيه الى دهلك (٣) .

وعند استيلاء العباسيين على الحكم ، لم يتغير الحال عما كان عليه في أيام الأمويين فان بيوت الأموال كانت تحت تصرفهم ، وفي أيديهم ، يغرفون منها لأصحابهم ويحرمون من يريدون حرمانه من حقه فيها ، واستصفوا لأنفسهم ، ولأهل بيتهم الضياع (٤) ، حتى أصبح بعضها معروفاً بانها لايملكها الا خليفة أو ولي عهد (٥) .

وفي الوقت الذي كان فيه الخليل بن احمد ، سيد الأدباء ، طعامه الخبز اليابس (٦) والذي اضطر فيه النضر بن شميل المازني أن يبارح البصرة لما ضاقت به اسباب المعيشة (٧) .

والذي كان فيه أبو القاسم الزنجاني المحدث ، يعطي الباقلائي ، دانقاً واحداً في الشهر ، ليبل له كسر الخبز اليابس بماء الباقلاء (٨) ، والذي اضطرت فيه الفاقة ، عالماً مثل الاخفش أن يأكل السلجم النيْ ، فيموت (٩) ، والذي كان فيه أبو محمد عبد الوهاب بن نصر المالكي ، يبارح بغداد لانه لم يجد فيها مد باقلاء في اليوم(١٠) ، والذي كانت نفقة ابراهيم الحرى فيه ، في شهر رمضان كله ، لم تتجاوز درهماً واحداً واربعة دوانيق ونصف الدانق(١١) كان المتوكل

(١) ابن الأثير ٥/٦٧
(٢) اليعقوبي ٢/٣٠٦
(٣) الاغاني ٤/٢٥٥
(٤) نشوار المحاضرة القصة ٥/٥٨
(٥) الاغاني ٦/٢٣
(٦) معجم الادباء ٤/١٨٢
(٧) معجم الأدباء ٧/٢١٩
(٨) المنتظم ٧/٩٦
(٩) نشوار المحاضرة ج ٤ ف٢ من الحاشية
(١٠) معجم البلدان ١/٦٨٧
(١١) المنتظم ٦/٥

العباسي يصرف على بناء قصوره في سامراء ثلاثة عشر مليون دينار (١) ، وصرف في حفلة ختان ولده المعتز ستة وثمانين مليون درهم(٢) وكان ما أفاده المزين الذي قام بالختان، نيف وثمانون الف دينار، سوى الصياغات، والخواتيم، والجواهر، والعدات(٣).

وقد احتسب ماصرفه المقتدر ، اسرافاً وتبذيراً ، عدا ماكان واجباً أن يصرف فبلغ مقداره نيفاً وسبعين مليون دينار (٤) ، وقد صرف في حفلة ختان خمسة من أولاده ستمائة الف دينار (٥) .

وذكروا أن المنصور العباسي مات عن تسعمائة الف الف وخمسين الف الف درهم، وأن الرشيد خلف مائة الف الف دينار ، وأن المكتفي خلف، مما جمعه المعتضد ، وهو من بعده ، مائة الف الف دينار (٦) .

ولما تقلص سلطان الخليفة ، وتغلب الأعاجم على الدولة ، أصبح الخليفة يعتمد في تدبير أموره على هبات المتغلبين ، وما يقررونه له برسم النفقة (٧) .

ولما استقر معز الدولة بالعراق ، حجر على الخليفة المستكفي ، وقدر له في كل يوم ، برسم النفقة ، خمسة آلاف درهم فقط (٨) .

وفي السنة ٣٣٤ لما بايع معز الدولة ، المطيع ، اقام لنفقته الفي درهم لكل يوم (٩) وفي السنة ٣٣٥ لما حلف المطيع لمعز الدولة أن لايبغيه الغوائل ، والا يمالئ له عدواً ، أزال معز الدولة عنه التوكيل ، وسلم اليه ضياعاً ، سميت « ضياع الخدمة » وكان ارتفاعها مائتا الف دينار في السنة (١٠) .

---

(١) الديارات ١٦٠

(٢) الديارات ١٥٦

(٣) الديارات ١٥٦

(٤) راجع التفصيل في تجارب الامم ١/٢٣٨-٢٤١

(٥) تاريخ الخلفاء ٣٨٠

(٦) لطائف المعارف ١١٨

(٧) المنتظم ٦/٣٣٠

(٨) تاريخ الخلفاء ٣٩٧

(٩) تجارب الامم ٢/٨٧ ، والتكملة ١٥٠ ، وجاء في تاريخ الاسلام للذهبي ١/١٥٢ انه قرر له ثلاثة آلاف دينار في الشهر ، وفي تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٣٩٨ ان المقرر له كان مائة دينار في اليوم ، ويعني ماتقدم : ان الدينار كان يعادل عشرين درهماً .

(١٠) تجارب الامم ٢/١٠٦ و ١٠٨

ولكن هذه الضياع ، على أن واردها لم يكن يفي بمصاريف الخليفة ، وحاشيته وأفراد عائلته ، وخدم قصره ، فانها لم تسلم من تحيف أسباب معز الدولة ، وأسباب بختيار من بعده ، من اقتطاع بعضها ، وتغلب على حدودها ، واغتصابها بحجة الضمان (١) ، حتى ان الخليفة ، المطيع لما طالبه عز الدولة بختيار ، بأن يعينه بمال من أجل غزو الروم ، أجابه : بأن مالديه يقصر عن كفايته من القوت (٢) .

واستمر الخليفة يعاني حالة الضيق ، الى أن قدم عضد الدولة بغداد في السنة ٣٦٤ ، فأعاد للخليفة « ضياع الخدمة » بعد أن انتزعها من تغلب عليها (٣) .

وأخذ حال الخليفة ، من بعد ذلك ، يختلف مدا وجزراً ، باختلاف حال ذي السلطان المتغلب ، ولم أعثر ، فيما تيسر لي من المراجع ، على ماكان الخليفة يستوفيه من رزق او جراية أو اقطاع ، بعد المطيع ، وان كان الظاهر ، أن الخليفة بعد أن زال تسلط الاعاجم عليه ، أو خف ، وأخذ في فرض الضرائب ، وتجنيد العساكر عاد الى سيرة أسلافه ، وتبسط في الصرف .

الوزراء

أول من وقع عليه اسم الوزير في الاسلام ، ابو سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وزير السفاح ، أول الخلفاء العباسيين ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت ، وقد وزر للسفاح سنة ١٣٢ (٤) .

ويتضح من القصة التي اثبتها صاحب نشوار المحاضرة ، أن رزق الوزارة

(١) تجارب الامم ٢/٣٤٣ و ٣٤٤
(٢) تجارب الامم ٢/٣٠٣-٣٠٧
(٣) تجارب الامم ٢/٣٤٣ و ٣٤٤
(٤) وفيات الاعيان ١/٤٤٧ ، والفخري ١٥٣ والاعلام ١/٢٩١

في عهد المتوكل ، كان اكثر من عشرة آلاف درهم (١) .

وكان راتب الوزير عبيد الله بن سليمان ، وزير المعتضد ، الف دينار في الشهر (٢)

ولما وزر ابو الحسن علي بن محمد بن الفرات للمقتدر في السنة ٢٩٦ أجرى عليه المقتدر خمسة آلاف دينار في الشهر (٣) .

ثم أن المقتدر أجرى على المحسن بن الوزير أبي الحسن بن الفرات ، رزقاً قدره الفا دينار في الشهر ، زيادة على رزق الدواوين (٤) ، فاصبح الراتب المقرر لمن وزر بعد ابن الفرات ، سبعة آلاف دينار في الشهر ، منها خمسة آلاف ، رزق الوزارة (٥) ، والفا دينار باسم ولده (٦) .

كما اصبح من المقرر لكل من وزر ، أن يتناول فضلا عن راتبه ، اقطاعاً ، ارتفاعه ـ بعد تنزيل نفقاته الراتبة ، مائة وسبعون الف دينار ، اضافة الى رزق الوزارة (٧) .

ولما زاد الاختلال في ميزانية الدولة ـ كتب الوزير ابو الحسن علي بن عيسى

---

(١) لما اختار المتوكل عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، لكتابته ، اجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم ثم امر له برزق الوزارة ، راجع القصة ٣/٨ من نشوار المحاضرة

(٢) وزراء ٢٥

(٣) اجرى المقتدر على وزيره ابن الفرات خمسة آلاف دينار في الشهر ، واجرى على اولاده ـ الثلاثة الفا وخمسمائة دينار في الشهر ، لكل واحد خمسمائة ، واقطعه ضياعاً ارتفاعها خمسون الف دينار ، كما اقطعه دار سليمان بن وهب بالمخرم ، والدور المجاورة له ،ومجموع مساحتها مائة وثلاثة وسبعون الف وثلثمائة وستة واربعون ذراعاً (وزراء ١١٩ - فاتخذها ابن الفرات دارا للوزارة ، وصرف على تعميرها ثلثمائة الف دينار (وزراء ١٩٩) وظلت دارا للوزارة حتى امر القاهر في السنة ٣٢١ بتقطيعها وبيعها (تجارب الامم ٢٥٨/١) اقول : هذه الدار تقع في المنطقة التي يحتلها المستشفى التعليمي الآن .

(٤) تجارب الامم ٩٣/١

(٥) وزراء ص ٢٨٥ و ٣٠٦

(٦) تجارب الامم ٢٠٤/١

(٧) تجارب الامم ١٥٩/١

ابن الجراح الى المقتدر ، انه في غنى عن اقطاع الوزير ، وانه يوفره ، ويوفر رزق الوزارة ، وهو ستة آلاف دينار ، في كل شهر (١) .

وفي السنة ٣٢٤ لما عين الراضي ، الامير ابن رائق ، اميراً للأمراء ، أصبح ابن رائق ، وكاتبه ، ينظران في كافة الامور ، وصارت أموال النواحي تحمل الى خزانته ، فبطل أمر الوزارة ، ولم يبق للوزير نظر في أمر النواحي ، ولا الدواوين ، ولا الاعمال ، ولم يبق له غير اسم الوزارة ، والحضور في المواكب الى دار السلطان بسوار وسيف ومنطقة (٢) واستبد ابن رائق بالأمور .

وولى النظار والعمال ورفعت المطالبات اليه ، ورد الحكم في جميع الامور الى نظره ، ولم يبق للوزير سوى الاسم ، من غير حكم ولا تدبير (٣) ، وبلغ من نقص مرتبة الوزير ، ان — ناصر الدولة ، نصب في السنة ٣٣١ احمد بن عبد الله الاصباني ، وزيراً للمتقي ، وأرزقه مائتي دينار في كل شهر (٤) .

وفي السنة ٣٣٤ استغنى معز الدولة عن اكثر الدواوين ، فبطلت ارزاقها ، وجمعت الاعمال كلها في ديوان واحد ، وذلك لأن معز الدولة أقطع قواده ضياع السلطان وحق بيت المال في ضياع الرعية ، وصار اكثر السواد مغلقاً ، وزالت أيدي العمال عنه ، وبقي اليسير منه ، من المحلول ، فضمن ، فاستغنى الناس عن الدواوين (٥)

ولم يتأيد لي ان الوزير في الدولة البويهية كان يتقاضى راتباً ، بل كان يخصص له اقطاع بخمسين الف دينار (٦) .

---

(١) تجارب الامم ١/١٥٩

(٢) تجارب الامم ١/٣٥٢

(٣) الفخري

(٤) الاوراق للصولي ، اخبار الراضي والمتقي ص ٢٣٨ ، راجع نشوار المحاضرة القصة رقم ١/١٢٣ ج١ ص ٢٣١ سطر ٨-١٣

(٥) تجارب الامم ٢/٩٦

(٦) تجارب الامم ٢/٢٤١و ٢٤٢

وواضح ان الوزير لم يكن يكتفي بما يرتفع اليه من اقطاعه ، بدليل ان الصيمري ، وزير معز الدولة ، لما مات ، طمع ابو علي الطبري عامل الاهواز ، ان يحل محله، وبذل لمعز الدولة مالاً عظيماً ، قدم منه اول نوبة ، ثلثمائة الف دينار(١) .

وكان ابو الفضل الشيرازي الذي وزر لبختيار ، يعمل في كل سنة ، دعوة لمعز الدولة وعسكره ، ينفق فيها مبالغ عظيمة (٢) .

وكان راتب الوزير في ايام الناصر الاندلسي ، ثمانين الف جنيه في السنة غير الهدايا ، وراتب الوزير العادي ، اربعين الف جنيه (٣) .

اما الوزراء في الدولة السلجوقية ، فكان جاري العادة ان يقطعوا عشر مغل البلاد (٤) .

وفيما يتعلق بالوزير في الدولة الفاطمية ، ذكر صاحب التمدن الاسلامي ان راتب الوزير كان خمسة آلاف دينار في الشهر ، ولكل واحد من اولاده واخوته ٢٠٠– ٣٠٠ دينار في الشهر ، ماعدا الاقطاعات وما كان يدفع لهم في المواسم من الهدايا والخلع ، فربما بلغ راتب الوزير وتوابعه بما يلحقه من الاقطاع ، مائة الف دينار في السنة (٥) .

وثمة مناصب ، اطلق عليها تجوزاً اسم الوزارة ، فقد ذكر ياقوت في معجم الادباء ، ان احمد بن سهل المروزي (ت ٣٠٧) لما استولى على بلخ ، اتخذ

---

(١) التكملة ١٦٣

(٢) الملح والنوادر ٢٧٦–٢٧٨

(٣) تاريخ التمدن الاسلامي .

(٤) وفيات الاعيان ٥/١٤٤

(٥) التمدن الاسلامي ١/١٦٢ و ١٦٣ وقد جاء في صبح الاعشى عن مسالك الابصار ،ان رزق الوزير مائتان وخمسون ديناراً حبشية ، ومن الرواتب والغلة ،ما اذا بسط وثمن وكان نظير ذلك .

ابا القاسم عبد الله بن احمد بن محمود الكعبي (ت ٣١٩) وزيراً وزرقه الف درهم في الشهر (١) .

اما فيما يتعلق برواتب الوزراء بعد ان استعاد الخليفة سلطانه ، فليس فيما بين يدي من المراجع مايوضح مقاديرها ، الا ان ثمة ظاهرة تبعث على العجب في أمر الوزارة ، فان فخر الدولة بن جهير ، بذل للخليفة القائم ، في السنة ٤٥٤ ثلاثين الف دينار ، لكي يختاره لوزارته (٢) ، وفي السنة ٥٣٠ لما استخلف المتقي قلد الوزير شرف الدين ، ديوان الخليفة ، وقرر عليه مائة الف وعشرين الف دينار (٣) ، وقيام الوزير باداء مال من اجل منصب الوزارة ، يعني أن هذا المنصب ، اذا تمكن فيه ، سوف يعيد اليه ما أدى ، ويضيف اليه مالا مستأنفاً .

العمـــال

كان اكثر العمال في دولة الخلفاء الراشدين ، يقومون بعملهم احتساباً ، ويجتزئون بالقوت الذي يكفيهم وعيالهم ، وقد كان أجر عامل البحرين في أيام الخليفة عمر ، خمسة دراهم في اليوم (٤) وكان رزق الربيع بن زياد الحارثي في أيام الخليفة عمر الف درهم في العام (٥) .

وكان عمر ، اذا استعمل عاملا ، اشترط عليه أن لايركب برذوناً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس (٦) .

وكان يأخذ عماله بموافاة الموسم في كل سنة ، يحجر عليهم بذلك ، الظلم ، ويحجزهم به عنه (٧) .

---

(١) معجم الادباء ١/١٤٧
(٢) الفخري ٢٩٤ وابن الاثير ١٠/٢٣
(٣) المنتظم ١٠/٦٢
(٤) لطف التدبير ١٤٤
(٥) واسطة السلوك ٧٣
(٦) الطبري ٤/٢٠٧و ٢٠٨ وتاريخ الخلفاء ١٢٨
(٤) الطبري ٤/١٥٥

وكان يفحص عن عماله ، وعن دفين أسرارهم ، فحصاً شافياً ، فكان لايخفى عليه مايفيد كل امرئ ، وما ينفق ، وكان من نأى عنه ، كمن دنا منه في بحثه(١) .

وكان اذا بعث عاملاً ، ثم بلغه أنه حاز مالا ، أحضره ، وشاطره ماله ، ومن عماله الذين شاطرهم ، معاوية بن ابي سفيان ، وابو هريرة الدوسي (٢) وعمرو ابن العاص(٣) .

ولما اصبحت الخلافة ملكاً ، باستيلاء الامويين على الحكم ، تغير الوضع ، بالنسبة لكبار العمال ، فاصبحوا يتناولون رواتب كبيرة ، لاتتناسب مع رواتب صغار العمال وبقية الموظفين .

وكان زياد بن ابيه ، أول من بسط الارزاق على عماله ، الف درهم في الشهر ، واجرى لنفسه خمسة وعشرين الف درهم في الشهر (٤) .

وكانت عمالة الحجاج بن يوسف الثقفي ، خمسمائة الف درهم في السنة(٥) اما عماله على الكور ، فقد كانت عمالة أحدهم عشرين الف درهم في السنة (٦)

أما عمر بن هبيرة ، والي العراقين للامويين ، فقد كانت عمالته ستمائة الف درهم في السنة (٧) .

وروى فان فلوتن : أن خالد بن عبد الله القسري ، والي العراق ، كان يتناول راتباً سنوياً قدره عشرون الف الف درهم ، ونسب ذلك الى ماجاء في تاريخ الطبري ، ولم أجد في تاريخ الطبري مايؤيد ذلك (٨) .

أما في العهد العباسي ، فقد كان لكل قطر من الاقطار رزق معين للعامل ،

---

(١) المحاسن والمساوئ ١/١١٧

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ٩٣و ٩٤

(٣) واسطة السلوك ٧٤و ٧٥

(٤) تاريخ اليعقوبي ٢/٢٣٤

(٥) انساب الاشراف ٥/٣٢٠ والاغاني ١٢/٢٠٣

(٦) الاغاني ١٢/٢٨٧و٢٨٨

(٧) وفيات الاعيان ٥/٣٦٤

(٨) كتاب السيادة العربية في عهد بني اميةص٣٢

ولم يكن يسمح له أن يتجاوزه ، وكان راتب عامل اليمن في عهد الرشيد الف دينار في السنة (١) ، وكذلك رزق عامل المدينة (٢) .

وكان رزق صاحب شرطة المدينة ، في أيام الرشيد ، لايتناسب مع رزق العامل ، اذ بينما كان راتب العامل الف دينار في الشهر ، كان رزق صاحب الشرطة ثلاثين ديناراً فقط (٣) .

وأعطى المأمون ، عبد الله بن طاهر ، مال مصر لسنة ، خراجها ، وضياعها ، ومقدار ذلك ثلاثة آلاف دينار (٤) ، ولا يدخل هذا الخبر ضمن موضوعنا لأن هذا عطاء لا رزق .

ولعل اكبر رزق فرض لعامل في دولة بني العباس ، كان للفضل بن سهل ، فان المأمون لما بويع بالخلافة في السنة ١٩٦ ، عقد للفضل بن سهل على المشرق وسماه « ذا الرياستين » وجعل عمالته ثلاثة آلاف الف درهم (٥) .

ولما أمر المتوكل، أحمد بن محمد بن المدبّر ، بالخروج للشام ، للتعديل ، أجرى عليه مائة الف درهم في الشهر (٦)

وكان جاري أبي زنبور الحسين بن احمد المادرائي ، عامل مصر ، في أيام المقتدر ، ثلاثة آلاف دينار في الشهر (٧) .

وكان رزق حامد بن العباس ، لما ولي فارس للمعتضد ، الفي دينار وخمسمائة

---

(١) لما ولى الرشيد عبد الله بن مصعب الزبيري اليمن ، جعل رزقه الفي دينار في الشهر .فاعترض وزيره يحيى البرمكي على ذلك ، وطلب من الخليفة ان لايتجاوز في الرزق المقدار المقرر لعامل اليمن وهو الف دينار ، وللخليفة ان يعوضه عن الزيادة مالا يجيزه به (تاريخ بغداد للخطيب ١٠/١٧٥ و ١٧٦) .

(٢) جمهرة نسب قريش ١/١٣٢ .

(٣) جمهرة نسب قريش ١/٣٤٥-٣٤٧

(٤) الاغاني ١٢/١٠١و١٠٢

(٥) الطبري ٨/٤٢٤

(٦) الفرج بعد الشدة ١/١٣٨

(٧) الوزراء ٣٤٧

دينار في الشهر ، فأمر المعتضد بزيادة رزقه الى ثلاثة آلاف دينار في الشهر (١) .

ولما قلد المقتدر ، ابا الحسن علي بن عيسى بن الجراح ، الاشراف على مصر والشام ، أجرى له الفي دينار في كل شهر (٢) .

ولما قلد مرداويج ، في السنة ٣٢٣ عبد الله بن وهبان القصباني البصري ، الاهواز ، أرزقه الفي دينار في الشهر (٣) .

ولما وزر البريدي في السنة ٣٢٩ للمتقي، قلد ابا الحسين احمد بن محمد بن ميمون ، سلفه في وزارة المتقي ، الاشراف على واسط ، وأجرى له الف دينار في كل شهر (٤) .

اما عمال النواحي ، وكان رزق الواحد منهم في أيام الأمويين الف درهم في الشهر ، فقد ارتفع معدله الى مائتي دينار في الشهر في العهد العباسي (٥) .

القضـــاة

كان القضاء في ايام النبي صلوات الله عليه ، وفي ايام الصديق أبي بكر ، احتساباً لا رزق عليه .

وأول قاض فرض له الرزق ، زيد بن ثابت ، استعمله الخليفة عمر على القضاء وفرض له رزقاً (٦)

واستقضى الخليفة عمر ، شريحاً على الكوفة (٧) ، فاستمر قاضياً سبعاً وخمسين سنة (٨) ، وكان رزقه في ايام الامام علي بن ابي طالب خمسمائة درهم في الشهر (٩) .

(١) الوزراء ٩٥
(٢) الوزراء ٣٣٥
(٣) تجارب الامم ١/٣١٧
(٤) تجارب الامم ٢/١٥
(٥) الفرج بعد الشدة ١/٤٠١
(٦) اخبار القضاة ١/١٠٨
(٧) اخبار القضاة ٢/٣٩٣
(٨) اخبار القضاة ٢/٣٩٧
(٩) اخبار القضاة ١/٣٠٣ و٣٠٤ و ٢/٢٢٧

وكان القضاة في ايام الخلفاء الراشدين ينصبهم الخليفة ، أما في أيام الامويين ، فكان نصبهم وعزلهم ، يعود أمره للعامل (١) ، الا في خلافة الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز ، فانه اعاد للقضاء حرمته ، وحال بين العامل ، وبين التعرض للقاضي (٢) .

أما في ايام العباسيين ، فقد كان تعيين القضاة من صلاحية الخليفة ، وقد يأذن لبعض العمال في نصب القضاة في مناطق حكمهم ، ولكن ذلك لايحول بينه وبين استعمال سلطته في نصب من يريد نصبه ، وعزل من يريد عزله منهم .

وكانت ارزاق القضاة ، ضئيلة ، اذا قيست بأرزاق العمال ، فقد كان رزق سوار بن عبد الله ، قاضي البصرة في ايام المنصور ، مائتي درهم (٣) .

ولما توفي المنصور ، وولي المهدي ، وفد عليه القاضي عبيد الله بن الحسن قاضي البصرة ، فسأله : كم رزقك ؟ قال : مائتان ، فاضعفها له (٤) .

وفي عهد المأمون ، لما زيدت الارزاق بصورة عامة (٥) ، ظهرت الزيادة في ارزاق القضاة ايضاً ، فان المأمون نصب رجلا لقضاة الابلة ، وأجرى عليه في الشهر الف درهم (٦) ، كما ولى آخر قضاء دمشق ، وأجرى عليه في الشهر الف درهم ايضاً (٧) .

وكان أمر اختيار القضاة في أيام المأمون ، والمعتصم ، والواثق ، منوطاً بقاضي القضاة احمد بن ابي دؤاد ، وكان من الفقه ، والفضل ، والحرص على اختيار الافضل ، على جانب عظيم ، حتى اذا ولي المتوكل ، جعل أمر اختيار القضاة

(١) اخبار القضاة ٢/٢١ و ١/٣٠٣ و ٣٠٤
(٢) اخبار القضاة ١/٣١٦
(٣) اخبار القضاة ٢/٨٦
(٤) اخبار القضاة ٢/١٠٨
(٥) الطبري ٨/٩٥ و ٩٦ ولطائف المعارف ٢٢ و ٢٣
(٦) المحاسن والمساوئ ١/١١٦
(٧) المحاسن والمساوئ ١/١١٧

الى صاحب الشرطة اسحاق بن ابراهيم المصعبي ، فكان عاقبة ذلك ان اختار امثال ابراهيم بن محمد التيمي ، الذي كان يقول : الخلفاء ثلاثة : ابو بكر ، وعمر ابن عبد العزيز والمتوكل (١) .

ويتضح من الميزانية المثبتة في كتاب الوزراء ، المتعلقة بأيام المعتضد العباسي أن جاري القاضي اسحاق بن ابراهيم ، وخليفته يوسف بن يعقوب ، وأولادهما ، وعشرة نفر من الفقهاء الشهود ، خمسمائة دينار في الشهر (٢) ويغلب على ظني أن هذا المبلغ كان يعطى منه مائتا دينار للقاضي واولاده ، ومائة لخليفته واولاده ، وعشرون ديناراً لكل واحد من الشهود .

وانحل أمر القضاء في أيام المقتدر ، فان الوزير ابن الفرات وضع منه ، وأدخل فيه قوماً بالذمامات ، لاعلم لهم ، ولا أبوّة فيهم (٣) .

ويتضح مما ورد في المنتظم ، أن المقتدر ، كان يجري على القضاة في الممالك مبلغاً قدره ستة وخمسون الفاً وخمسمائة وتسعة وستون ديناراً ، وايراد هذا المبلغ بصورة مبهمة ، لايمكننا من معرفة عدد القضاة ، ولا يعيننا على تعيين مقادير ارزاقهم (٤) .

وضعف أمر القضاء بعد المقتدر ، حتى انه في السنة ٣٣٩ أراد أحد أصحاب الحاجب سبكتكين ، قائد معز الدولة البويهي ، أن يشتّري دارا تعود لقاصر ، بوكالة وكيل نصبه الخليفة ، ورأى الوكيل أن ذلك ليس في مصلحة القاصر ، فامتنع ، فشدد الحاجب عليه النكير ، فأغلق القاضي بابه واستعفى من القضاء ، فقلد مكانه ابو الحسن محمد بن صالح المعروف بابن ام شيبان ، الذي أجاب على أن

---

(١) اخبار القضاة ١٨٠/٢
(٢) كتاب الوزراء ٢٦
(٣) نشوار المحاضرة ٢٣١/١
(٤) المنتظم ٧٠/٦

أن لايقبل رزقاً ، ولا خلعة ، ولا ، ولا شفاعة ، وأن يعطى كاتبه من بيت مال السلطان ثلثمائة درهم في الشهر رزقاً ، ولحاجبه مائة وخمسون درهماً ، وللقاضي في الفروض على بابه مائة درهم ، ولخازن ديوانه واعوانه خمسمائة درهم (١) .

وكان مدخل القاضي أبي القاسم علي بن المحسن التنوخي (٣٧٠–٤٤٧) من نيابه القضاء ودار الضرب وغيرها ، في كل شهر مائتي دينار (٢) ، وحيث أن أجره عن الاشراف على دار الضرب ثلاثون ديناراً (٣) ، فيكون الباقي رزقه عن القضاء ، وعن أعماله الاخرى التي لم تتعين لنا ماهيتها ، ليتسنى لنا تعيين رزقه عن القضاء وحده .

وبلغ من تدني الحال في ايام معز الدولة البويهي ، أنه في السنة ٣٥٠ ضمن ابو العباس عبد الله بن الحسن بن ابي الشوارب الأموي، القضاء أن يحمل الى خزانة معز الدولة في كل سنة مائتي الف درهم، فلم يأذن له الخليفة أن يصل اليه هذا القاضي ، في يوم موكب ، ولا غيره (٤) .

وكان فعل هذا القاضي مافعل ، في سماجته ، وقبح ذكره ، سبباً لأن ضمنت الحسبة ببغداد ، وضمت الشرعة بعشرين الف درهم (٥) .

واقبح من اعطاء القضاء ، والحسبة ، والشرطة ، بالضمان ، اعطاء السرقة بالضمان ، ففي السنة ٣٣٢ ظهر ببغداد لص يقال له : ابن حمدي ، ضمن السرقات ببغداد على ان – يؤدي للدولة في كل شهر خمسة عشر الف دينار . مما يسرقه هو وأصحابه ، وأخذ خطه بها ، وكان يؤدي الاقساط المترتبة عليه من بدل الضمان الى الجهبذ ، ويأخذ بها « روزات » ، أي وصولات رسمية (٦) ،

---

(١) تجارب الامم ٢/٣٣٩

(٢) فوات الوفيات ٢/١٣٨

(٣) المفوات النادرة ٢٤٠

(٤) المنتظم ٧/٢ وتكملة تاريخ الطبري ١٨٤

(٥) تجارب الامم ٢/١٨٨

(٦) تجارب الامم ١/٥١

كما جرى في ايام معز الدولة ، ضمان الفجور ، والقيادة ، والقمار ، ضمنها ابن الحراصة بألفي درهم في الشهر (١) ، وكان ينزل في دار الجهشياري على على دجلة (٢) .

وكانت نتيجة هذا الاهمال ، أن تفشت الرشوة ، وكان ولاة الحكم يجمعون الوكلاء ، والمحضرين ، والشهود ، ويشترطون عليهم « أن لا يتبرطلوا » (٣) .

وقد حدثونا عن قاض كان ضمن من حلفوا أن لايتبرطلوا ، ولما فاوضوه من بعد ذلك على مقدار مايريد من رشوة في احدى القضايا ، اشترط أن يسلم اليه مع الرشوة ، مقدار اضافي بدل كفارة عن اليمين التي أزمع أن يحنث فيها .

وليس فيما بين أيدينا من مراجع ، ما يدل على مقدار أرزاق القضاة وأتباعهم ، في هذه الاوقات ، ويظهر لنا من بعض الأخبار ، أن القضاة ، وأتباعهم ، كانوا يستوفون ارزاقهم من الرسوم التي كانوا يستوفونها من أصحاب المعاملا ت (٤) .

وقد حدثونا عن أحد القضاة ، أنه اذا وجد نقصاً في الواردات بعث جلاوزته ، فأمسكوا باثنين من المارة ، واحضروهما أمامه ليسألهما فيما اذا كان لاحد منهما على الآخر ادعاء او مطالبة ؟ وعندما يكون جوابهما بالنفي ، ينادى الكاتب ويأمره بان ينظم لهما حجة ابراء واسقاط ، وأن ليس لواحد منهما على الآخر أدعاء ، ثم يستوفي منهما رسم الحجة .

---

(١) نشوار المحاضرة ٣٤٩/١

(٢) كان علي بن جهشيار رئيس الطبرية من الجنود في السنة ٢٥١ وكان يحمي الجسر من الجانب الشرقي (الطبري ٣٣٦/٩) وكانت داره براس الجسر (الطبري ٢١/١٠) وكان علي ، صاحب الامير الموفق ، وان المعتضد ، اقطعه الموفق هذه الدار ، وكانت لاسماء بنت المنصور ، وفيها الطاق المسمى طاق اسماء ، الذي تقع حوله محلة باب الطاق المنسوبة اليه (معجم البلدان ٤٨٩/٣) .
اقول : الجسر المذكور آنفاً حل محله جسر الصرافية الحديد ، ومحلة باب الطاق ، هي الآن محلة الصرافية، ودار علي بن جهشيار حسب الوصف آنف ذكره ، تقع على شاطئ دجلة الشرقي عند راس الجسر الحديد من جهة الشمال .

(٣) المنتظم ٢٠٤/١٠

(٤) المنتظم ٢٠٤/١٠

وحدثونا ايضاً : أن متداعيين اختصما الى احد القضاة المرتشين ، في حمار ، كل واحد منهما يدعيه لنفسه مستقلا ، وعمد الاول الى صرة ضر فيها مائة درهم ودسها في يد القاضي ، وأحس خصمه بالامر ، فصر مائة درهم في صرة أخرى ، وأعطاها للقاضي ، فاصبح القاضي محرجاً ، وحكم بأن يباع الحمار ، ويقسم ثمنه بين المتداعيين ، وبيع الحمار بمائتي درهم وتسلم كل واحد منهما مائة منها ، أي مقدار مادفع للقاضي ، وعندئذ ، تقدماً الى القاضي ، وقالا له : قد صح عندنا ـ ياسيدنا ـ ان الحمار لايعود لواحد منا ، وانما يعود كله لك .

القـّواد

أما بشأن ارزاق القواد ، فلم يبلغنا عنها شيئ يذكر ، الا مابلغنا من أن ناصر الدولة ، اصطنع في السنة ٣٣١ عيسى جال الديلمي ، وزاد في رزقه الف دينار ، ووصله بألفي دينار (١) وانه في السنة ٣٣٢ فر اليه أبو بكر محمد بن جعفر النقيب ، من بغداد ، فقبله ، وخلع عليه ، وعلى ولده ، وبلغ برزقه الفي دينار ، ومثلها لولده وغامانه ، وأنه أقام يأخذ رزقه الى ان كاتب أبا جعفر ، وصار الى الحضرة ، وتقلد فيها الشرطة في السنة ٣٣٣ (٢) .

الكتـّاب

كان الكتاب في أيام الخلفاء الراشدين ، يقومون بعملهم حسبة ، الأ من اضطر الى الرزق ، وأول ماعرفناه عن أجر الكتاب في ذلك العهد ، أن زياد بن أبيه ، ولي قسمة الغنائم بالبصرة ، في السنة ١٤ في أيام الخليفة عمر ، وزياد غلام له ذؤابة ، بأجر درهمين في اليوم (٣) ويعتبر هذا الأجر ، أجراً حسناً ، اذا قورن بأجر العامل في ذلك الحين (٤) .

---

(١) الاوراق للصولي ، اخبار الراضي والمتقي ٢٤١
(٢) الاوراق للصولي ، اخبار الراضي والمتقي ٢٧٠
(٣) معجم البلدان ٦٤٠/١
(٤) لطف التدبير ١٤٤ وواسطة السلوك ٧٣

وكانت ارزاق الكتاب في ايام بني امية ، وفي اوائل ايام بني العباس ، لاتتجاوز الثلثمائة درهم في الشهر (١) .

وكان الحجاج يجري على يزيد بن مسلم ، كاتبه — وكان اخاه من الرضاعة — ثلثمائة درهم في الشهر (٢) ، ولعل من الطريف أن نذكر أن يزيد هذا كان يعطي منها خمسين درهماً لامرأته ، وينفق ، في ثمن اللحم خمسة وأربعين درهماً ، وينفق باقيها في ثمن الدقيق ، وباقي نفقاته (٣) .

وكان يوسف بن صبيح ، والد احمد بن يوسف وزير المأمون ، يكتب لعبد الله بن علي العباسي ، فلما استتر عنه أخيه سليمان بالبصرة ، صار يوسف الى ديوان أبي جعفر ، وأجرى له في كل يوم عشرة دراهم (٤) .

وطلبه المنصور يوماً ، فكتب بين يديه ، فزاد في رزقه ، وأصبح عشرين درهماً في اليوم (٥) واستمرت رواتب الكتاب كذلك ، الى أيام المأمون ، فكان أول من سن زيادة الارزاق ، الفضل بن سهل ، وزير المأمون (٦) .

وكان علي بن صالح ، صاحب المصلى ، على ديوان رسائل الامين ، وبلغت جائزته في ايام المأمون ثلثمائة الف درهم في العام (٧) .

وفي أيام المعتصم ، كان الحسن بن وهب ، يتقاضى في كل شهر الفي درهم عن كتابة الكتب الصادرة عن الوزير (٨) .

ولما اختار المتوكل ، عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، لكتابته ، اجرى له في كل شهر عشرة آلاف درهم (٩) .

---

(١) الطبري ٨/٩٥ ولطائف المعارف ٢٢و٢٣
(٢) الطبري ٨/٩٦
(٣) لطائف المعارف للثعالبي ٦١
(٤) معجم الادباء ٢/١٦٦
(٥) معجم الادباء ٢/١٦٧
(٦) الطبري ٨/٩٥و٩٦ ولطائف المعارف ٢٢و٢٣
(٧) المفوات النادرة ٢٨٧
(٨) المفوات النادرة ٢٥٨
(٩) نشوار المحاضرة ٨/١٥

ومن الارزاق الضخمة ، في أيام المقتدر ، رزق أبي القاسم علي بن محمد ، المعروف بابن الحواري، فانه بحكم دالته على الوزير حامد بن العباس، لأنه هو الذي رشحه للوزارة (١) أصدر حامد أمره بتقليده ، وتقليد ولده ، أعمال العطاء في العساكر بنواحي المغرب والحضرة ، وأعمالاً اخرى(٢) ، فبلغ راتبه الشهري اثنى عشر الف دينار ، على قول (٣) ، وسبعة عشر الف دينار ، على قول آخر (٤)

وفي السنة ٣١٩ ، تقلد الخصيبي ، دواوين الازمّة ، واجري عليه ، وعلى كتابه ، الفا دينار وسبعمائة دينار في كل شهر (٥) .

ويذكر لنا ياقوت في معجم الادباء ، أن أبا يعقوب اسحاق بن نصير ، الكاتب البغدادي ، اشتغل كاتباً بمصر ، عند محمد بن عبد الله بن عبد كان (٦) ، واجرى عليه أربعين ديناراً في كل شهر (٧) ولما مات ابن عبد كان ، تولى أبو يعقوب ديوان الرسائل ، وأجرى عليه خمارويه اربعمائة دينار في الشهر (٨) .

ولما استولى احمد بن سهل المروزي (٩) على بلخ وتخومها ، اتخذ أبا القاسم عبد الله بن احمد بن محمود الكعبي وزيراً ، ورزقه الف درهم في الشهر ، وأتخذ ابا زيد أحمد بن سهل البلخي (١٠) كاتباً ، ورزقه خمسمائة درهم في الشهر (١١) .

---

(١) تجارب الامم ١/٥٨
(٢) تجارب الامم ١/٦٨
(٣) تجارب الامم ١/٨٧و٨٨
(٤) الوزراء ٩٧
(٥) تجارب الامم ١/٢٢٦
(٦) ابو جعفر محمد بن عبد الله بن محمد بن مودود، المعروف بابن عبد كان، من كبار المنشئين، ولي البريد بدمشق وحمص في اول امره . ثم اشغل ديوان الرسائل منذ ايام احمد بن طولون الى ان توفي سنة ٢٧٠ في ايام خمارويه (الاعلام ٧/٩٥) .
(٧) معجم الادباء ٢/٢٣٧
(٨) معجم الادباء ٢/٢٣٨
(٩) احمد بن سهل : من اولاد يزد جرد ملك فارس ، كان خليفة عمرو بن الليث الصفار على مرو ، وحبسه عمرو ، ففر من السجن ، والتجأ الى ابن نصر احمد بن اسماعيل الساماني ببخارى ، فاكرمه . ثم خالف على ولده نصر ، واستولى على نيسابور وجرجان ومرو ، وحارب الساماني ، ثم استأمن واعتقل ، ومات في الحبس ببخارى سنة ٣٠٧ (الكامل لابن الاثير ٨/١١٨-١٢٠)
(١٠) ابو زيد احمد بن سهل البلخي: ترجم له ياقوت الحموي في معجم الادباء ١/١٤١-١٥٢ ترجمة جديرة بالمطالعة .
(١١) معجم الادباء ١/١٤٧

وكانت الأزمات التي عصفت بالدولة ، في عهد المقتدر ، سبباً في تأرجح رواتب الموظفين ، زيادة ونقصاناً ، فان وزر ابو الحسن بن الفرات ، زادت ، وان وزر أبو الحسن بن الجراح ، نقصت الى الثلثين اولا ، والى النصف ثانياً (١) وقد كان جاري صاحب ديوان السواد ، مع كتابه والقرطاسية ، في عهد الوزير ابن الفرات ، سبعة آلاف دينار في الشهر (٢) ، وكان جاريه وحده خمسمائة دينار في الشهر ، فانقصه الى خمسة آلاف درهم (٣) .

وكان الوزير ابو الحسن بن الفرات ، عين لابي علي ابن مقلة ، جارياً مقداره خمسمائة دينار في الشهر (٤) ، فانقصه الوزير علي بن عيسى الى مائة دينار (٥) كما انزل جاري ابي الفتح ابن الفرات ، المعروف بابن حنزابة الى مائة دينار ايضاً (٦)(*)

وفي عهد تغلب الديلم على العراق ، كان جاري ابي القاسم الحسن بن اميرويه كاتب ابي القاسم علي بن الحسين ، ابن اخت الوزير ابي الفرج محمد ابن العباس ، خمسمائة درهم في الشهر (٧) . ولابن اميرويه هذا ، رقعة كتبها البقلي ، جديرة بالمطالعة ، اثبتها في حاشية القصة ٨-١٠٣ من نشوار المحاضرة . ولاجل الاطلاع على نوادر كتاب الديلم والاتراك ، راجع كتاب نشوار المحاضرة القصة ٨-٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ٠٢ ، ١٠٣ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، .

عبود الشالجي

(١) الوزراء ٢٤٠ (٢) الوزراء ٣٧ (٣) الوزراء ٣٤٠

(٤) الوزراء ١٣٥ (٥) الوزراء ٣٤٠ (٦) الوزراء ٣٤٠

(*)

(٧) جرى على ابي القاسم بن اميرويه ، من الاتراك استخفاف وصفع ، فقال لابي القاسم : ياسيدنا أنا اخدم بين يديك ، وليس لي بعد الله غيرك ، والجاري خمسمائة درهم ، ليس تكفيني لنفقتي ، فلم الاتراك في كل وقت يصفعونك ، ويجرون برجليك ويستخفون بك ! فضحك ابو القاسم وقال : لسوء أدبهم ، وسوء أدب من يجرون برجله ، واعرض عنه ، وصار بعدها لايكلمه الا بالفارسية (الهفوات النادرة ٣٣٨) .

فهرس المراجـــع

اخبار القضاة : القاضي وكيع ، ابو بكر محمد بن خلف بن حيان – طبع مصر

الاعــــلام : خير الدين الزركلي – ط ٣ .

الاغاني : ابو الفرج علي بن الحسين الاموي الاصبهاني – طبعة دار الكتب بالقاهرة ٢١ مجلداً .

انساب الاشراف : البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر – طبع القدس .

الاوراق ، اخبار الراضي والمتقي :
الصولي ، ابو بكر محمد يحيى بن عبد الله – طبع مصر

البيان والتبيين الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب – طبع بيروت ١٩٦٨ ، ٤ ج ٢ م .

تاريخ الاسلام : الذهبي ، ابو عبد الله محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز .

تاريخ بغداد : الخطيب البغدادي ، ابو بكر احمد بن علي بن ثابت – بيروت .

تاريخ الخلفاء : السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر – ط٣ القاهرة ١٩٦٤

تاريخ الرسل والملوك : الطبري ، الامام ابو جعفر محمد بن جرير – طبع دار المعارف بمصر .

تاريخ اليعقوبي : اليعقوبي، احمد بن ابي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ج٢م٢ – طبع دار صادر بيروت ١٩٦٩ .

تجارب الامم : ابن مسكويه ، ابو علي احمد بن محمد – تحقيق آمدروز طبع مصر ١٩١٤

تحفة الامراء في تاريخ الوزراء :
الصابي ، ابو الحسن هلال بن المحسن تحقيق عبد الستار احمد فراج – طبع البابي الحلبي بالقاهرة ١٩٥٨ .

تكملة تاريخ الطبري : الهمذاني ، محمد بن عبد الملك – تحقيق البرت يوسف كنعان المطبعة الكاثوليكية بيروت .

جمهرة نسب قريش واخبارها :
الزبير بن بكار – تحقيق محمود محمد شاكر – القاهرة ١٣٨١ﻫ .

الديارات : الشابشتي ، ابو الحسن علي بن محمد – تحقيق كوركيس عواد – ط٢ بغداد ١٩٦٦

السيادة العربية في عهد بني امية : :
فان فلوتن – ترجمة حسن ابراهيم حسن ومحمد زكي ابراهيم طبع مصر – ط١ – ١٩٣٤ .

فتوح البلدان : البلاذري ، ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر – المطبعة المصرية بالازهر – ١٩٢٣ .

الفخري ، في الاداب السلطانية ، والدول الاسلامية :
ابن الطقطقي – محمد بن علي بن طباطبا – طبع دار صادر – بيروت .
الفرج بعد الشدة : التنوخي ، ابو علي المحسن بن علي التنوخي ج١و٢ طبعة دار الهلال بمصر ١٩٠٣ و ١٩٠٤ .
فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي – مطبعة دار السعادة بالقاهرة ١٩٥١ .
الكامل في التاريخ : ابن الاثير – عز الدين ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري عن طبعة المستشرق ثورنبرغ – طبع دار صادر ١٣ مجلداً مع الفهارس .
لطائف المعارف : الثعالبي ، ابو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل النيسابوري ، تحقيق ابراهيم الابيارى وحسن كامل الصيرفي – طبع الحلبي – القاهرة .
لطف التدبير : الاسكافي ، محمد بن عبد الله الخطيب – تحقيق احمد عبد الباقي – طبع مصر – ١٩٦٤ .
المحاسن والمساوئ : البيهقي – ابراهيم بن محمد – مطبعة السعادة بمصر ١٩٦٦ .
مروج الذهب : ومعادن الجوهر :
المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسن بن علي تحقيق محيي الدين عبد الحميد – طبعة الشعب – القاهرة ١٩٦٦م .
معجم الأدباء : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، الحموي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي – طبعة مرجليوث ١٩٢٤–٧ مجلدات .
معجم البلدان : الحموي ، ابو عبد الله ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي – طبعة وستنفلد– ٦ مجلدات مع الفهارس .
المنتظم ، في تاريخ الملوك والامم :
ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي–طبعة حيدر آباد الدكن١٣٥٧
نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة :
التنوخي ، ابو علي المحسن بن علي التنوخي – المجلدات من ١–٨ ، طبع دار صادر بيروت .
الهفوات النادرة : غرس النعمة ، ابو الحسن محمد بن هلال الصابي – تحقيق الدكتور صالح الاشتر – دمشق ١٩٦٧ .
واسطة السلوك : موسى بن يوسف ابو حمو بن زيان العبد الوادي – طبع مطبعة الدولة التونسية– تونس ١٢٧٩ .
وفيات الاعيان : وانباء ابناء الزمان :
ابن خلكان ، القاضي شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر – تحقيق الدكتور احسان عباس – طبع دار صادر ٨ مجلدات مع الفهارس .

باب الكتب

ARABIC CONTRIBUTIONS TO THE ENGLISH VOCABULARY

BY

James Peters and Habeeb Salloum

عرض و نقد

الدكتور جميل الملائكة

هذا معجم يتناول « الاسهامات العربية في المفردات الانجليزية »، صنّفه في كندا الاستاذان الباحثان اللبنانيا الأصل جيمز بيترز (جميل بطرس قحوش) وحبيب سلوم، وهو مطبوع باللغة الانجليزية بالستنسل ومستنسخ بآلة الجستتنر في تورونتو سنة ١٩٧٣ . ويقع المعجم في ١٣٠ صفحة ، منها ١١٣ صفحة لمادة المعجم ، والباقي لصفحة العنوان ، والمقدمة ، وملاحظات حول بعض قواعد الكتابة والنطق المتبعة والرموز والاختصارات المستعملة في الكتاب ، وتصويب بعض الأغلاط الواردة فيه ، وملحق مستدرك على مادة الكتاب ، والالفاظ الانجليزية المشكوك في صحة كونها من أصول عربية ، وقائمة بالمراجع ، ومخطط لبيان طرق حركة الالفاظ وانتقالها بين العربية والانجليزية .

ويعترّف المؤلف الاول في مقدمة المعجم بتسرب عدد كبير من أخطاء الطبع اليه لعدم خروجه من المطبعة بالطريقة المعتادة التي يتناولها التصحيح الدقيق :

فهو مازال في طبعة اولية ، او مسوّدة ، لم تتخذ شكلها النهائي بعد . وفي رأينا انه ما كان يلزم نشر المعجم على هذه الصورة . فالذي يفترض في الكتاب المنشور نشرة أولية لغرض التمحيص والتقويم ، وفي المعجم على الأخص ، ان يحتاط له مؤلفه من اغلاط الطباعة على الأقل ، ليتمكن فاحصه وناقده من ان يجد سبيله الى اوجه الفضل فيـــه والمآخذ عليه . فالمسودة ما زالت مكتظة باغلاط الطباعة . ومن ذلك ما نورده على ســبيل التمثيل لاالحصر ماجاء في السطر الخامس من الصفحة الثالثة من المقدمة ، عند الكلام على اخطاء الطباعة :

من هجاء لفظة Machine هكذا Maching

ومنه ماجاء في باب haikal (هيكل) من نطقها بالعربية haykl والصواب haykel .

وما جاء في باب fardh (فرد) من هجائها في المرة الثانية farah .

وما جاء في باب murshid (مرشد) من تفسيره بلفظة ggide والمراد guide

وماجاءفي باب musnad من كتابة(مسند)بالانجليزية nasnad والمقصود masnad

ومثل هذا كثير ويلزم تلافيه .

وكان نهج المؤلفين في التصنيف تحرّي مجموعة من القواميس والمراجع وتجميع الالفاظ المعتقد بانها من اصول عربية . ومع ذلك فانهما لايدعيان اكتمال مجموعتهما ولا الكمال فيها ، بل يعترفان ، شأن العلماء المتواضعين ، بانهما (خلّدا) اخطاءاً لسواهما ، وانهما ليسا معصومين من الخطأ .

غير ان هذا المصنف يؤلف برأينا نقطة بدء لابحاث ودراسات اكثر تفصيلاً ، ونواة لوضع معجم متكامل من هذا القبيل . وهو — كما يعتقد المؤلفان — يضم

مجموعة جيدة كبيرة من الالفاظ المؤصلة تفيد الطلبة الباحثين المهتمين بتداخل الثقافات وتبادل الاستعارات بين اللغات .

وتتلخص الطريقة التي سار عليها المؤلفان في عمل المعجم بان تورد اللفظة الانجليزية التي يعتقد بانها من اصل عربي (بالانجليزية) ، ثم يذكر اصلها العربي (بالعربية) ، وطريقة نطقه واصل معناه العربي (بالانجليزية) ،وبعد ذلك يقدم (بالانجليزية) معنى اللفظة كما هي مستعملة في اللغة الانجليزية ، والشروح المعجمية للفظة ، وشيء عن اصلها ، نقلاً عن القاموس او المرجع المستقاة منه . ولا يقصد المؤلفان الى الدخول في تفاصيل تأصيل الالفاظ وانما يحيلان في ذلك على القاموس او المرجع المنقولة عنه . وقد يشار الى اكثر من معجم بهذا الخصوص .

وقد يورد المؤلفان احياناً بعض التواريخ المتعلقة بتطور استعمال اللفظة في الانجليزية ، بصورة مختصرة ، معتمدين في اكثر ذلك قاموس اوكسفورد الجديد (١٣ مجلداً) ، علماً بان التواريخ المدرجة لاتعني أول استعمال للفظة في اللغة الانجليزية وانما تشير الى اول اقتباس لها من النصوص الادبية .

ومع اعتماد المؤلفين ٥٠ قاموساً ومعجماً و ٢٤ مرجعاً ، كما يشيران في ثبت المراجع ، فانهما يعترّفان بان اكثر استنادهما كان الى قاموسين اثنين هما قاموس ميريام وبستر الدولي الجديد بطبعته الثانية :

Webster's New International Dictionary, (Second Edition)

وقاموس اكسفورد الجديد للانجليزية بثلاثة عشر مجلداً :

The New Oxford English Dictionary (13 Volumes)

ولا يخفى ماللهذين القاموسين الضخمين من مكانة في اللغة الانجليزية فهما يعدان اهم قواميس تلك اللغة اطلاقاً .

هذا وقد يورد المؤلفان من حين لآخر ملاحظة او تعليقاً على بعض الالفاظ ، او يستدركان على الفاظ اخرى . ومن اسهاماتهما المهمة في هذا الباب تصحيح بعض الاوهام الواردة في عدد من القواميس والمراجع ، او التنبيه على بعض الاخطاء الشائعة :

كما جاء في تصحيحهما للخطأ المتفشي في القواميس الانجليزية حول ترجمة جملة (لا اله الا الله) بالعبارة : There is no God but Allah

وترجمتها الصحيحة There is no God but God

وفي تصحيح وهم اوكسفورد في عزو لفظة (فدائي) Fedai الى الفارسية وهي عربية فصيحة .

وفي التنبيه على الخطأ الشائع في الانجليزية من استعمال لفظة Mahomet احياناً بمعنى (معبود) او (وثن) مع ان اصلها (محمد) .

وفي تصحيح وهم وبستر واوكسفورد في رد كلمة (مختار) Mehtar الى الفارسية ، وهي عربية كما لايخفى. على ان المؤلفين فتحا الميم في هذه اللفظة العربية في اكثر من موضع ، وهو خطأ لم اجد سبيلاً الى تفسيره .

هذا ويلاحظ ان المؤلفين تطرقا الى الفاظ ليست من اصول عربية ، وانما هي ترجمة انجليزية لالفاظ عربية ، ومثال ذلك كلمة Surd وهي ترجمة حرفية للفظة (اصمّ) التي استعملها العرب في الجبر والرياضيات للجذر الأصمّ اي الذي لايمكن التعبير عنه بنسبة بين عددين مُنطَقَين ، وكلمة Sine التي هي ترجمة حرفية للفظة (جيب) وكان العرب اول من استعملها بمعنى النسبة بين الضلع المقابل لزاوية مثلث قائم ووتره . وكلا هذين الاستعمالين في اللغة الانجليزية يعدّ من الاسهامات العربية في توسيع معاني المفردات الانجليزية .

وفي باب الالفاظ المشكوك في اصولها Uncertain Etymologies يورد المؤلفان آراء وتخريجات مفيدة ، من غيرهما او من عندهما ، في تأصيل بعض الالفاظ مما قد لايجد القارئ بعضه في القواميس ، ويفتح مجالاً واسعاً للبحث والدراسة ، كما في احتمال اتصال كلمة risk بلفظة (رزق) العربية .

وفي احتمال كون عبارة So long تحويراً للفظة (سلام) .

واحتمال كون اصل عبارة Habba hubba من لفظة (مرحباً) .

وفي المخطط الذي يقدمه المؤلفان في آخر الكتاب حول أهم تحركات الالفاظ بين العربية والانجليزية يجد القارئ صورة مفيدة جداً لسبل انتقال هذه الالفاظ ، سواء في ذلك ما انتقل من العربية الى الانجليزية على طريق مباشر ام غير مباشر ، مع ذكر اللغات المختلفة التي تم عن طريقها هذا الانتقال ، وتشمل الفرنسية والايطالية والاسبانية والبرتغالية والتركية والفارسية والهندية والاوردية واللاتينية واليونانية .

ومما يؤاخذ عليه المؤلفان حشدهما في المعجم عدداً كبيراً من :

أ ـ الاسماء الجغرافية ، وامثلة ذلك كثيرة منها :

جيزة (الشائع : الجيزة)	Giza
حيفا	Haifa
يافا	Jaffa
عمان	Oman
ام درمان (في المعجم : امدرمان ، وهو خطأ)	Om durman
رياض (الصواب : الرياض)	Riadh
تل العبيد (في العراق)	Te ɪAl - úbaid

تل الفرعة (في فلسطين)	Tell el F- aràah
تل الحسّة (في فلسطين)	Tell el - Hesi
تل عقير (في العراق)	Tell Uqair

ب ـ أسماء الاعلام ، مثل :

حويطات (قبائل في الجزيرة العربية)	Howeitat
شمّر (عشائر عربية)	Shammar
هُبل (اسم صنم في الجاهلية)	Hubal
الشَبَك (طائفة من الاكراد)	Shebek

ج ـ أسماء الاشهر العربية جميعاً ، مثل :

رمضان	Ramadan
شوال	Shawal

د ـ النسبة الى الاقطار والبلدان والقبائل والاعلام ، مثل :

غسّانيّ	Gassanid
حبشيّ	Hubshee
حجازيّ	Hejazi
حورانيّ	Hauranitic
حضرموتي	Hadramautian
سينائي	Sinaitic
سنديّ	Sindhi

ولقد اورد المصنفان الكثير من هذا على الرغم من اعترافهما صراحة بانهما لم يستوفيا ، ولم يكن في وسعهما ان يستوفيا ، جميع هذه الاعلام والاسماء الجغرافية .

ولايخفى انه لايمكن ان تتسع لكل هذه المسمّيات مجلدات ضخمة بله قاموساً صغيراً من هذا القبيل ، وكان الأجدر تجنب ولوج هذا المدخل الذي لا آخر له .

وثمة ملاحظات اخرى كثيرة يمكن ان تلاحظ على المعجم مما لايمكن استيعابه والاحاطة به جميعاً بهذه العجالة . فمن ذلك مانورده على سبيل التمثيل :

ردّ كلمة Sabian الى (سابي) وصوابه (صابئيّ) نسبة الى الصابئة .

ومنه ردّ لفظة Jupe الى (جُبّة) دون الاشارة الى وجود لفظة (جُبّ) بالمعنى ذاته ، وهي اقرب الى اللفظة الاجنبية .

ومنه ردّ لفظة Howadji الى (خواجة) دون اشارة الى كون الاخيرة من الدخيل ، ولو انها مستعملة في بعض ارجاء الوطن العربي .

ومثل ذلك يقال في لفظة Kourbash المأخوذة من (كرباج) التركية .

ومنه ماجاء في باب Mesquin من فتح ميم (مسكين) والصواب كسرها .

وما جاء في باب Muslin من ضمّ ميم (موصل) والصواب فتحها .

وما جاء في باب Nahie أو Nahiye من تأصيلها بلفظة (نحية) وصوابه (ناحية) .

على ان كل هذه وسواها هنات هينات لاينبغي لها ان تغضّ من شأن هذا العمل التجميعي المضني الذي يُعدّ اسهاماً محموداً في موضوع دقيق معقد قلّت فيه التصانيف . فهذا المعجم ولا شك سيوفر على الدارسين جهوداً كبيرة في البحث والتنقيب بما سيقيمه من دليل يرشدهم الى المظانّ التي يجدون فيها تفاصيل اصول الالفاظ الانجليزية التي هي من اصول عربية ، والآراء المختلفة المقدمة حولها . ونرى ان يبادر المؤلفان الى تنقيح المسوّدة وانجاز طبعها بعناية لتوفير المعجم للباحثين والمختصين .

جميل الملائكة

مجلة المجمع العلمي العراقي

فهرس المجلد السادس والعشرين

(الثمن ٥٠٠ فلس)

(صحح تجارب الطبع الخطاط وليد الاعظمي الموظف في المجمع العلمي العراقي)

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٦٦ لسنة ١٩٧٥